عامر الفرحان

بريد رجل مطارد

رواية

الناشر

دار الابداع للطباعة والنشر

العراق – صلاح الدين -تكريت ٢٠١٦

٠٧٧١٠٦٥١٩٦٨ / البريد الالكتروني : osama١٩٦٧٦٧@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

يحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو اعادة تنضيد الكتاب كاملا أو منجزا أو تسجيله على أسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطيا.

الكتاب: بريد رجل مطارد

التأليف: عامر الفرحان

الطبعة الثانية : ٢٠١٦

تصميم الغلاف: أسامة محمد صادق

القياس :١٥ سم ×٢١ سم

رقم الايداع بدار الكتب الوثائق الوطنية في بغداد (٤٠١) لعام ٢٠١٦

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية من محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دار الابداع أو أي جهة حكومية أخرى.

الفرع الثاني :سامراء مكتب الملا مجاور المحكمة /٠٧٧١٩٦٥٠٧٣٦/٠٧٨١٤٨٧٨٤٣٧

بإدارة السيد سامي عبدالوهاب خلف العاني البريد الالكتروني : swkf١٩٨١@gmail.com

الفرع الثالث : ديالى : ٠٧٧٠٦٢٦٩١٢٤ / بإدارة السيد محمد عبد الستار الجنابي

الفرع الرابع : اربيل : ٠٧٧٣٤٥٥٢٥٣٧/ بإدارة د. محمد يونس صالح mywns١٠١@gmail.com

---

صدى العاصفة

بعد اعوام لن تسمع لنا صوتا او صدى

ولن ترى جسدا يمشي او شبحا يمس الفضا

ستبلى اجسادنا...

وتجف دماؤنا نحن الضحايا فوق الثرى

سيهدأ العصف رويدا رويدا

ستخبو النار التي اضرمت

ستمضي احاسيسنا حديثا فوق الورق

ستقرأ الاجيال عنا "يضحكون او يبكون "

لافرق...

في النهاية نحن ابطال الرواية

والمتفرج دون ادنى شك

يختلف تماما عن بطل المارثون ...

يمضي الزمن ، وتمضي الذكريات خالدة المواقف

بحلوها ومرها فوق السطور

فلربما تذهب الاحلام الى غير رجعة

وتنتحر ، الطفولة ، ويلحقها الشباب

وربما...

تحترق الاوطان بعود من ثقاب

ويتوقف نبض القلوب فوق موقد نار هادئة..

بلاشك...

يتعذر على الاموات استعادة أمر مضى

لكن الاحياء وحدهم هم المسؤولون

فكثير فوق الارض ولكنهم موتى

كثير هم موتى فوق الارض

وآخرون بباطن الارض احياء

العمر قصير والاحداث كثر...

فياليت للعمر بقية يتسع لانين وطن مباع

المؤلف

إهـداء

الى وطني الذي هده الداء واهوال الشقاء...

الى الشرفاء الذين كتبوا حقيقة الانتماء

بدمائهم الزكية...

الى ابطال الرواية وهم يطوفون في سماوات الخلود

وكانوا سبباً لفيض هذه الكلمات...

(١)

يبدو ان الطيور لاتهاجر الا اذا اقتضى العيش لقمة خبز يابسة في زمن شحيح ... أو ان تألف اصحاباً اخرين.. او ان تهاجر مرغمة فتوحي للناظرين تشكيل سربها الجميل وهي تطاول كبد السماء وربما تخفي حجم جراح غير معلنة...

جل ماكان يخشاه ان يضيق هذا الفضاء الفسيح حول عنقه فينحر احلام الطفولة الغضة التي تعشعش حول ذاكرته وهو يمرح في ساحة المدرسة بين جمع غفير من الصبية ، يتصافعون احيانا ثم يركضون ، يبكون في اخرى ومن بين بركان الدموع المنهمرة ينوب الضحك افواههم فيغسل زوايا الحزن والالم ،فما اجمل تلك الصورة وهم يتقافزون كالعصافير بعد زخات امطار كثيفة.

حين كان المعلمون يجتمعون في الادارة وينصتون عن قرب من الضجيج الصاخب لكن مااسعدهم لهذا الايقاع الموسيقي الذي يدفعهم لدرسهم القادم .

يمرق الصغار تحت شبكة كرة الطائرة التي تتوسط الساحة الكبيرة فالبعض بات راسه يلامس حافتها السفلى واخرون تصطدم وجوههم بها فتصنع مربعات الخيوط الخضراء ،انه مشهد يجلب الدعابة والضحك.

فجأة صوت يشق الفضاء ،كالرعد يزجر صداه اركان السكون في المدرسة والاشجار الكثيفة من البرتقال والتوت العملاق والنخيل الباسق ،انه صوت طائرات مقاتلة ترمي لظاها فوق البلاد والعباد ، إنذاراً ودعوة الى السكون

والخوف واللواذ الى الجدران ،دموع خشية حقيقية هذه المرة...الطيران ينطلق في حرب لاهوادة فيها وعلى مدى (٨)سنوات ولكن الصغار على االرغم من كل هذا كانوا يشعرون بالامان ،والكبرياء مع انهم فقدوا آبائهم بهذه الحرب الطاحنة والبعض قد ماتوا من جرائها...

حرب تلد من رحمها اخرى تختلف عن الاولى بكل المقاييس "حرب الخليج"ثم حصار جائر ظالم ...

ذاك الفتى العشريني يتابع الاحداث عن كثب ،تنامى شعورا بالانتكاسة والهزيمة من الداخل خاصة ان المواجهة كانت غير موفقة نظراً لحجم الفوارق المادية "التكنولوجيا الحديثة"والموارد البشرية مما جلب الموت ليجوب ارض الوطن ويقتل سمة الجمال ،ومغاني الصبا واحلام الشباب ،والاصعب ان الاصدقاء قد وجهوا النار الى جسد العراق دون تردد...

ياللكارثة...كارثة تصل باخرى ...فمازال السخام الاسود يغطي المنازل والشجر الاخضر والطرقات ،الملابس ،العصافير الصغيرة ودجاج القرية المترامية الاطراف ...رائحة النفط الاسود وفتات الحريق تحمله الريح من الكويت والبصرة ليلقي مظلته السوداء الى بغداد وباقي محافظات العراق كل شيء يوحي بالبؤس والالم والحزن وان المصير يسير راكضا الى المجهول...

انها امريكا وجحفلها تدس السم ونحن نحتسي بادمان فارادوا كيدا ففرقوا يوسف واخوته ...فالعراق قد هانت كل جراحاته وآلامه وعلى اقرب الجيران ...

تضع الحرب اوزارها وامريكا تخرج من اللعبة منتصرة في نظر العالم والخسائر عراقية...نعم عراقية لاغير؟؟

العراقيون اكلو من بقايا الشعير العفن ،التبن مع الطحين الاسمر المائل الى السواد ،بل طحنوا نوى التمر اليابس واكلوه ظلما وعدوانا حتى ان البلعوم تخدش من خشونة الطعام والبطون تقلصت والاجساد نابها الخواء والشحوب ....الوجوه صفراء واحلامهم ادنى من خط الصفر...لكنهم مازالوا يحدقون من غيمة الاسى هذه الى المستقبل القادم ...

عاصفة الصحراء انتهت وعاد المقاتلون ضباطا وجنودا يجرون سرابيل اوجاعهم باكبر كارثة في حياة جيشهم الخامس ...ويسالون هل ياترى ان الستة آلاف سنة هي كذبة ام حقيقة ...يا للفجيعة.....انهم محطمون لان اسلحتهم هذه المرة انتكست فوهاتها الى الرمال فهي لم تبلغ عنان السماء وراء طيران الشبح الذي يختفي خلف الغيوم كالغربان ...ترعرت الحياة من جديد لكن الجيش ذاق ويلات قيامة كبرى بعيدا عن حجم الكلمات والصور التي يراها الاخرون كافلام كاوبوي او الاكشن...تخرج ابراهيم من الكلية العسكرية.ثم كلية الاداب –قسم الاجتماع وكان يامل ان يحصل على شهادات عليا ولكن العراق ومايمر به من ظروف سياسية وعسكرية حالت دون ذلك وان الطريق الشاق في الجيش الذي اختاره لنفسه كان يلزمه ان يعكف – ولو لوقت قصير- عن ذلك حتى يرى نهاية النفق ... ابراهيم سعدون شاب طويل القامة تغلب عليه سمرته على الصفار ،اسود الشعر تتخلله الخيوط البيضاء القليلة ،نظره ثاقب بسواد عينيه وبؤرتاها الصفراء التي تتناسق مع ابتسامته وفطنته وشاعريته واحساسه بكل مايدور حوله وهو يمسك يراعه بين الوسطى والسبابة والابهام حتى يقول (اذا

كتبت كان لزاما علي ان يخشع قلبي فتبكي عيني ،فترتعد شفاه القلم انكسارا لما اكتب...)تلك الصور تمر في ذاكرة النقيب ابراهيم سعدون وهو يتجة الى البصرة حاملا كتاب نقله الى فوج مشاة /٩...مع انه لايرغب الخروج من هذه الذكرى وذلك الحلم الذي طالما كان يؤرقه على االرغم من تقادم السنين عليه.. وتسير الحافلة سبع ساعات في أرضٍ لم تطأها قدماه في سابق عمره وتلك اقدار من يعمل في الجيش اذ كان نقله مواكباً للاحداث المريره التي يمر بها بلده العراق..كانت الحافلة متعبة كثيراً وهو يتوجه الى زميله الذي يجلس بجانبه :-

- ارى ان الطريق بات طويلاً

- نعم يا اخي يبدو انك لم تزر البصرة في السابق

- لا ابداً ..ولكن رأيت في منامي وانا في سفر طويل وشاق وان سيطرة ما قد اوقفتنا وفتشت بدقة..

- حسناً اذاً نحن في الانتظار ...

لم يمض وقتا طويلا على الحوار حتى وقفت الحافلة عند سيطرة لأنضباطية الجيش وهم يرتدون البيرية الحمراء وراحوا يدققون في وجوه العسكر الملونة بالاسى وهم يتوجهون الى وحداتهم وكألعادة فأن الجميع قد ارتدى بيريته وهيء نموذج اجازته ... وعقب اجراءات مكررة ومزعجة ....

بادر زميله قائلا اذاً صدقت الرؤيا ...

أومأ برأسه ... قائلاً الحمدلله...

انزل عدد من الجنود في السيطرة ، واعفي عن البعض بعد توسلات عوائلهم وزملائهم ليسود الصمت والهدوء وينام العدد الاكبر منهم ... عيون الفتى تنظر من نافذة السيارة الى الارض الجرز يميناً ويساراً "سيبقى عمرك طعاماً للايام والاراضي والغربة التي لم ترها قط في عينيك كان يحاول مرارا ان يستسلم للنوم الا ان الصور التي يحملها كانت حاجزا ضخما لايمكن عبوره نحو هدأةٍ للنوم ولو لسنةٍ أو بعضٍ منها...

عند شيخ سعد بدات فرامل الاطارات متأودة بالكابة ايذانا بوصول محطة الاستراحة حتى توقفت ،نزل بمفرده امام ذلك المطعم البسيط الذي يعج بالجنود والضباط بين ملتحقٍ أو مجاز عائدٍ لاهله والنساء والرجال.... مصير مجهول يسير اليه بين حب الوطن الذي يدعو له وبين تطلعاته التي تقتل بالعشوائية والحيف وعدم الاستقرار..

لعمري ماضاقت بلاد باهلها لكن احلام الرجال تضيقُ

دخل والريبة تطارد اوهامه التي تفصح ان اقامتك لن تطول ستعود الى بغداد جلس الى طاولة خضراء ... النادل يقدم الماء اليه فشرب منه فأحسَّ بملوحة لم يذقها من قبل ونادى بصوت خافت الى احد العمال الماء ((مج))

- ابتسم هذا ماء (Ro)

- اصاب ابراهيم الحياء ترى ماذا يعني بـ(Ro) وبعد صمت قليل اعاد النداء وسأله:

- ياعم ماذا تقصد بـ (Ro)

- اجابه .. اي ماء مصفى ومعقم ونظيف (جا اتّه ما خادم بالجنوب؟) غادره مبتسما

- لا ابدا لم اخدم في الجنوب ..

نظر في جنبات المكان المصبوغ بالاخضر والازرق الغامق وإلى الجمع الغفير الذي تغص به الباحة المحيطة .. يبدو انه المطعم الوحيد بهذه المنطقة ،البعيدة المتوارية على كثبان رملية ، سرح بذاكرته مستذكراً أبناءه وزوجته عندما ودعهم في الغبش المبكر وهو ينفث الدخان من فمه كمن ينز سجارته مكترثا والدمع النازل خلفه كوابل المطر .. بل ووالدته التي لم تتمكن من الخروج خلفه وقد دخل الى غرفتها وراحت تبكي بكاءاً مراً .. وهي تقول (محفوظ بالله يابني ..محفوظ..)لم يحتمل المشهد وهو يعانق والده واخوته والاحزان ترسم اشباحها فوق وجهه كتضاريس الشمال يهمس بهدوء فوق احجار جبل مرتفع..ويضمد ظلام الغبش جراح دموعه العطشى الى قريته النائيه البعيدة عن الزيف والخداع والصخب الماجن ... لم تتوقف رحلته بل عطف طريقها إلى اطفاله الصغار وهم يحتضنونه بشوق غارق وكأنها المرة الاولى التي يغادر دون عودة ، وتتكرر عبر ذاكرته الأسفنجية صور كثيرة تخلق له تارة جو من التعاسه واخرى جو من الاستراحه والامل...البصر يمتد من النافذه الزجاجيه الى الفضاء البعيد فلم ير شجراً او طيراً او انساناً او بناءً شاهقاً سوى اعمدة الكهرباء التي تحتضنها الرمال من كل صوب ... يالتعاستي ... يالغربتي .. كيف ساقضي باقي العمر بهذا السفر البعيد ...نزل الطعام امامه تلاحقه اسراباً من الذباب الذي لايكاد يخلو منه المكان على الرغم من استخدام المبيدات المتكرر بين وقت واخر .. اكل وشرب الماء بصعوبة قائلاً :

عليك ان تعوّد نفسك على هذا الطعام واياك ان يصيبها القرف بل وتنسى الماضي .. نعم يحتاج لك تمرين على حفض هذهِ الاجواء فانت في رحلة انتقام لاخدمة علم كما يقولون .. نهض الى المغسلة ووضع بين يديه الصابون تحت فوهة الصنبور الحديدي المغطى بطبقة من الاملاح ولكن ليس هناك رغوة واجاب:

– ليس هناك رغوةلان الماء مالح ليس (Ro) وابتسم في بحر همومه وتقدم اليه النادل يحمل الشاي الى الطاولة سائلا اراك مبتسما وانت تغسل يديك

– ونظر اليه بعلامات استفهام كثيرة لان الماء مالح جدا وليس هناك رغوة في الصابون فقال ربما هذا الماء ليس مصفى...

– احمده ان وجدت ماءا تغسل يديك

–الحمد لله..الحمد لله

تناول الشاي بمذاقه الجديد عن ذلك الشاي الذي يشربه على هسهسة النار في ديوان بيته ...

السائق ينادي :

●ياشباب تحركوا لنتوكل على الله الطريق طويل وقد انتصف النهار ..توجه الى المغاسل الخارجية فوجدها بناءا بسيطاً من ماده (البلوك) والجص وطوابير تقف للدخول أشمأزَّ من المكان وزادت الريبة بنفسه ... قائلاً :

● آه كم كنت في نعمة كبيرة... وقد تبدلت الحال ؟؟؟

صعد جميع الركاب بضجيج عال وسكن كل مكانه وهو يقف في باب السيارة (٤٥) راكبا يتطلع الى الفسيح اللامتناه من الغربة والسائق ينظر اليه قائلا:

●((شد نفسك)) فبادره بابتسامة مصطنعة ليخفي خلفها وجعا لاتنهيه كتب مسطرة فوق طاولة خشبية..

جل ماكان يحمل في صدره حب الوطن اذ هو في مقدمة الاشياء الغالية والنفيسة ومتى ضاع فلا وجود للحياة ،نظر الى ممر السياره وقد امتد الجنود (ابو خليل) وغرقوا في نومهم على الفور وكانهم في غرف نوم هادئة او دار استراحة فارهة ... المسافرون سقطت رقابهم الراقصة يميناً وشمالاً الا هو لم يستسلم للنوم مطلقاً ربما لانه ياتي لاول مره ... او للهموم والمستقبل القادم او حب الاستطلاع ،مازال ينظر عبر النافذة ويقرأ علامات واسماء المناطق ... ميسان ترحب بكم .. (العمارة) ها... نعم العمارة هنا كان يخدم اخيه الاكبر (ابو البشير) وقد استشهد في الحرب الايرانية العراقية او القادسية الثانية كما في معاجم الحرب وراح ينادي نفسه:

ايها الطائر المسافر فوق الغيوم ، ايها الغائر في قلبي ، ايها الوطني الاصيل ، ها قد وصلت مكان رحيلك ها انا انشد اغنية الوداع لوحدي ، وابحث عنك بين الجنود واتفقدك ولكنك تواريت في الافق البعيد

ايها الغيور...

ايها المدافع ...ايها الصبور في المحن ايها السائر..هلا ان تعود تلاعبني وتعيد طفولتي بين احضانك...تنتشل وجعي من غربة البعد كبر الطفل وصار رجلاً ...عاد الى المصيدة التي لفظتك بلا عودة نعم ولدني بفجره

الجديد..... وعلقت صورته في خيالهِ وارتفعت به الى السحاب ...ثم نزلت تحاوره وهو يباكيها صورة يذوق حلوها ومرها في وقت واحد ....

وانتقالة جديدة لاخ آخر كثيرا ماتكلم عن المعارك التي حصدت مئات الارواح ... وكيف كان له اعز الاصحاب ايام القادسية وتمر امام حدقتا عينيّة المتحجرة القرنه ... البصرة ... الكزيّزة ... ساحة سعد ...ساحة سعد المحطة الأخيرة حيث يفترق الاصحاب بها وكل يغادر الى مقصده ... دخلت السيارة الكراج ونزل الجميع وهو يتفحص بفضول : هل انا بالفيحاء ... هل اتناول شيئاً من طعام قبل المغادرة .. وجاء يحمل حقيبته ويرتدي ملابسه المدنية ليدخل احد الاكشاك خطوات غريب لا يعرف احداً ،طلب ببسي ولفة فلافل اذا لايوجد غير ذلك ولكنه تحفظ عن تناولها لان اعداد الذباب كثيرة جداً اذ مارست اعتى اشكال الهجوم للظفر بغنيمة تسد رمقها .. اودع لفة الطعام على الطاولة الخشبيه قائلاً : هلموا ياذباب وكلوا بلا حرب او نزاع شرب من قارورة الببسي كولا قليلاً ودفع الحساب وخرج الى فناء المرآب الحار .. وتقدم الى احد المارة وسأله :

- هل بالامكان ان اعرف مقر فوج المشاة ٩/... فاجابه وباللهجة الجنوبية .

- (خوية تصعد بسيارات الزبير ومناك تسأل عليها وان شاء الله توصل)

السيارات (لاندكروز) قديمة جداً ،نظر الى سائقها ذي البدلة الزرقاء التي تحولت الى لون قاتم اسود له بريق لربما للعمل المستمر والدهون التي تمسح من جراء اعماله وادامته الكثيرة لسيارته تمعن على نبرات صوته الشاحبة الخمسينية:

- (زبير- زبير- زبير)

واومأ السائق بيده

- اصعد خويه اصعد

فتح الباب الايمن الخلفي فغشيته رائحة تزكم الانوف وذباب يتطاير ومقاعد قد هرأت وتمزقت وتدلت وتغير لونها للأسود من الاوساخ .. كمم انفه بيده وصعد لانها السيارة الاخيرة المتوجهة الى الزبير .. فخاف ان يدركه الوقت فلا يصل الى وحدته العسكرية هكذا انتابه الصمت ومزيداً من الحزن وهو يتطلع الى وجوه قد عانت شضف العيش والعناء وتحدث مع نفسه : كلهم متعبون وسياراتهم كذلك ... علامات قلق واضحة على وجهه ، وتكلم مع جندي يجلس بجانبه :

- اخي من اين يمكنني - عند الوصول الى الزبير- ان اصل الى فوج المشاة التاسع ..

- لم يجبه .

- كرر عليه السؤال .

- عندما اتمكن من شراء حذاء جديد وبدلة ان شاء الله

- وماعلاقة هذا الموضوع؟

- لانك بالتاكيد جندي تريد الالتحاق

- مؤكد ذلك واين تخدم انت؟

- في الموصل وانا من الزبير ولن التحق الى الموصل مرة اخرى

- لماذا ياصديقي

- راتبي (٣) الاف دينار ...

- يبدو على الجندي علامات العناء والتعب والشحوب ... ثم ركن الجميع الى الصمت وبعد عبور جسر الزبير نظر الى جهة اليمين واذا ببناء شاهق فسألهُ بهدوء:

- ماهذا المسجد رد السائق .. انها خطوة الأمام عليه السلام

- عليه السلام ...

ثم توغلوا في شجر عال وبنايات يتخللها القدم بل بعضها قديم جداً حتى وقفت السيارة هناك ونزل ومازال يمسك انفه من الرائحة الكريهة التي خنقته مشى متطلعا الى قطع ولافتات الاطباء واحواض الاسماك الحية لاسيما ان البصرة تشهد بذلك ولكن للذباب نصيب كذلك .. دفع جسده المثقل بخطى المتأمل ويسقط نظره الى بناء جديد ابيض مازالت حملة الاعمار به انه جامع ومرقد الصحابي الجليل الزبير بن العوام (رضي الله عنه) .ثم يقول لنفسه انت طير وتحسد الطير، لكن ، يبدو ان الطيور لاتهاجر الا اذا اقتضى العيش لقمة خبز يابسة في زمن شحيح ... أو ان تألف اصحاباً اخرين.. او ان تهاجر مرغمة فتوحي للناظرين نظام سربها الجميل وهي تطاول ابط السماء ولربما تخفي عمق جراح غير معلنة...ثَمَّةَ فكرة تراوده بزيارة جميع هذه الأماكن بتأن وراحة حين يألفها...

رمق المحال التجارية بنظرة اخرى والمطاعم .. فلم يجد افضل من واجهة مطعم (ماجد) سائلاً ترى هل للذباب نصيب كذلك ام هناك حظرا لدخولها – سنرى ان شاء الله في الايام القادمة ...استكمل التامل المحزون بكل المكانات وهمَّ بالسؤال عن فوج المشاة /٩ الى ان ظل يركن عند ظل نخلة امام محل للانشائيات وسال جنديا :

– اخي اين يقع فوج مش / ٩

– هذه السيارات (الجيب) تصل بك ومقرها (الدريهمية)

ذلك الجندي لم يأبه له باهتمام معين واخذ نفسه متواليا بعمق مع سيجارة "سومر"

– وكيف حال الجيش هنا ...

– بنبرة حادة ياخي ستذهب وترى بأمِّ عينيك ... عوز مادي ومعنوي ونمشي على الارض كاذبين

– واين اهلك

– من ديالى ام البرتقال وابتسم مصطنعاً (ثلثين الطك لاهل ديالى) وهز يده ...راغ الى احد المحال وارتدى بدلته العسكرية وتحرك الى سيارات الجيب والقى نظرة فاحصة على شكلها فوجدها لاتختلف كثيراً في اتساخها عن اللاندكروز التي اقلته من ساحة سعد الى الزبير ... صعد في الخلف وحقيبته السوداء المشحونة بالملابس العسكرية وسجله الخاص بالمذكرات الى جانبه والسائق يزعق بشيء من التفاهة والاستهتار:

●دريهمية .. دريهمية... كيمياوي ... كيمياوي.

امتلأت السيارة بركاب العسكر .. اذ لايوجد مدني واحد بينهم وراحت تسير بهدوء كما ينساب ماء في منحدر الى الاسفل ..الطريق متعرج ومتعب نوعاً ما ...

ابراهيم ينظر من النافذة ولم تسقط زاوية نظره الى باب دار الا ووجد انبوب ماء مع جلكان حديدي او بلاستيكي كتب عليه (يوجد لدينا ماء Ro) يالهي ماهذه المحنة التي امر بها هل ان الماء عزيز الى هذه الدرجة – هذا يعني انني ساموت عطشاً ..

السيارة سرعتها البطيئة تجر اذيال خيبتة وسط مزارع فلاحية بسيطة ... ثم انبوب عال عليه لهب احمر يتطاول في السماء بدخانه الاسود ..الصمت يخيم على المجموعة والغريب انهم جميعاً قد قدحوا سكائرهم ووجوههم طعن بها السمار وملابسهم اعتلاها الوسخ وبين الحين والاخر يتكلم احدهم ثم يضحكون من سخرية القدر .. ضحكهم يشبه الى حد ما ثملا في حانة عند اخر المساء .. انها تعبير عن حجم الاوجاع التي يتقاسمونها في هذا السجن الكبير .. ثم يطبق الصمت مرة اخرى وتأخذ السيارة يمينيا وشمالاً حتى باتت قريبة مما يدعى (بالكيمياوي) يبدو انه معمل نفطي او غير ذلك .. ثم نزل الجنود عند كتيبة المخابرة ... ثم ينادي السائق:

– وانت اين تصل ..

– فوج المشاة /٩

-خير ان شاء الله ... واندفعت وهو يغني "عمي يبياع الورد كلي الورد بيش " سيارته تنفث زفيرها الابيض بعناء كمن يعاني سكرات الموت ببطء حتى وقفت عند اخر محطة واشار بيده هنا تفضل وسلمنه

وابتسم له نازلا :

- اشكرك ..

نظر الى ساعته الوقت (٤) عصراً واندفع ماشيا غارسا نظره الى باب النظام الاسود والى الجنود .. ثم وقف يحدث نفسه (يالبراهيم) اين احبتك واهلك لاشيء سوى ذكرى والمسافات شاسعة ولكن ربما يحكم الله امراً فيه خير كثير ...ثقافتك .. دراستك .. ادبك .. خواطرك واشعارك ... ادفنها الان فلا مجال لها ان تعيش في هذه الارض السبخة .. فهذه الارض ارض قتال ومعارك فقد ماتت مئات من البشر عند هذه البوابة فعليك ان تنهي كل الماضي .. نعم كل شي انت الان في قبضة الموت وذاك مطلبك في يوم ما ...

استقبله الجنود .. اهلا وسهلا سيدي تفضل

- توقف قليلاً مع نفسه (انا سيدهم) كيف؟ (لماذا؟) عموماً هي تقاليد عسكرية وسأل احدهم الذي يبدو عليه القيافة النظامية والقوة والفتوة هذا فوج مش / ٩ اجابه - نعم سيدي تفضل ومن اي وحدة ..

- انا ضابط جديد منقول اليكم

- اهلا وسهلا بك..

واشار الى ابراهيم بيده مقر الوحدة حيث يوجد المساعد الرائد عبدالكريم

- وما اسمك - عبدالباسط.

- شكراً وراح يحث خطاه يتمتم مع نفسه الحمدلله وجدت مثل عبدالباسط كم اراه معتزاً باناقته عكس كل الجنود الذين تظهر عليهم علامات الجزع والاذلال والمهانة - ينظر الى الجدران ويقراً شعارات كثيرة

- بالروح بالدم نفديك....

- التدريب يقلل من دماء المعركة

- ارفع رأسك انت عراقي

- الوحدة بآمرها ..امل ان يكون ذلك صحيحا ونابعا من القلب لا ان يكون نفاقا

(٢)

انهم نوع من البشر يرتدون قناع المكر ،صورتهم مثالية ،وحقيقتهم ثعالب ماكرة او ذئاب غادرة او اسود غاب ياكلون الضحية بلا مشارك ،تعرفهم من مسخ وجوههم... او كلماتهم ... اوتصرفاتهم ، ثقافتهم معكوسة ، الوطن لديهم مجرد اسواق وبنايات وطرق معبدة وليس هناك ادنى شعور بالانتماء الفعلي ...تاملات كثيرة تساور ذاكرته حتى دخل مقر الوحدة فشاهد كثرة الزخارف على الجدران والبوسترات .... ولكن هناك شيءٌ لاينكر ان حصير القصب عند المدخل اعطاه تأكيداً انه اصبح ضابطا بصريا وان الارض التي تلفظ انفاسها بالملوحة البيضاء هي معيار لاعطاء البرهان ...عند الباب القى تحيته على الانضباط فردها قائلا:

-تفضل سيدي

- نقيب ابراهيم منقول اليكم

- اهلا وسهلا ... ودخل الى الرائد عبدالكريم يخبره فنادى باعلى صوته اهلا وسهلا تفضل تفضل اندفع الى غرفته واصطدم نظره بلوحة خاكيه مليئة بالاعلانات والسجلات ... استدرك بالسلام والتعريف باسمه...

- اهلا بك وعليك السلام نحن ننتظرك منذ اسبوع وصل كتابك

- انا سعيد بكم

- ((حامد)) ماء (Ro) في الثلاجة اعط لعمك

حدث نفسه بهدوء (Ro) كذلك... عجبا ماهذا

شرب قليلا ثم صمت ... واذا بحامد يأتي بالشاي ومذاقه (مج) ورمق المساعد بنظرة قائلاً:

- اعتقد ان الشاي ((Ro)).

- نعم هذا معك مادمت قائماً في البصرة واحياناً يصيبنا العطش حقا ..وراح الرائد عبدالكريم يقلب باوراقه الكثيرة فوق المنضدة والسجلات ذات الالوان الموحدة ... ويرد على المكالمات التي ترد له بين الفينة والاخرى من جهات عسكرية مختلفة ... ولايسمع ابراهيم الا ... نعم سيدي ... لاسيدي .. تأمر. امرك سيدي ... اليوم اليوم سيدي ... تصلك ...

يحدث نفسه الى متى سابقى هكذا ... متى الخلاص من هذا الواقع المرير وهذا القلق وهذا الانهيار الذي يعذبنا؟

ينهي الرائد عبدالكريم مكالماته ويحدق اليه بعمق .. قائلاً :

-اعذرني فلدينا تفتيش بعد يومين وعليّ ان انهي جميع السجلات والمواقف وخاصة بالفوج .فضلاً عن صبغ الواجهات والارصفة والمشاجب وتوزيع بدلات للجنود ... وكتابة شعارات جديدة بخط جديد .. بادره بابتسامة :

- لماذا كل هذا سيدي العزيز ..؟

- هي مجرد سياقات سنوية .. نقوم بها

- ومافائدة الشعارات والاصباغ؟

- بيني وبينك حتى نرضي لجان التفتيش لااكثر

- واذا لم ترض؟

- يغمز بحاجبه الايمن ندفع لها مبلغاً من النثرية !

- تقصد رشوة ؟

- لا في الحقيقة اكرامية !

- وهل تظن انها ستقوم قائمة للمؤسسة العسكرية اذا تعاطت بالرشوة أو بالإكراميات كما تسميها ...؟ وما قصة الملابس الجديدة للجنود؟

- في كل تفتيش نوزع تجهيزات جديدة اي قيافة للجنود يستعرضون بها امام لجان التفتيش القادمة من رئاسة اركان الجيش

- وماذا بعد ذلك ؟

- ينظر ساخرا .. لاشيء بعد ذلك مجرد نوحي اننا مستعدون لبذل الغالي والنفيس وبعد ان تغادر اللجان نسحب الملابس الجديدة من الجنود ونضعها في المخزن استعدادا لأي تفتيش قادم .

- طيب وهل يمتلك الجنود ملابس؟

- لا ابدا فما لديهم قديمه جدا ولا يمتلكون احذية عسكرية الا اننا نواجه مشكلة بالتبديل الصيفي والشتوي فهم يبيعونها في العلاوي

- وما السبب؟

– مؤكد تعرف ذلك الحاجة المادية وماخلفه الحصار الظالم على جميع الناس .

استاذن من المساعد للذهاب الى مقر الضباط فنادى له أحد الجنود في مقر الكتيبة لاصطحابه الى مكان تواجد الضباط ... وعند الباب توقف قليلا ومسك ذقنه (يبدو ان الامور سيئة جداً) وان ما موجود هنا ليس الجيش العراقي الخامس كما يسمونه بل بقايا رماد من ذكريات ٦ كانون ١٩٢١ .حمل الجندي حقيبته ومشيا بهدوء والتفت الى الجندي الاسمر القصير القامة وسأله:

– من اي محافظة انت؟

– الموصل

– كم يوما مضى عليك في الخدمة؟

– سنة وشهران

– هل انت خريج؟

– نعم خريج كلية التربية

– ولماذا لم تهرب؟

– الحال المادي جيد جداً ولو كان عكس ذلك لهربت كما فعل الكثيرون .. ولكن في الحقيقة الوطن بحاجتي الان ...

– وهل انت متزوج؟

- نعم ولدي طفلان (خالد - أيمان) ...

- كم يوم مضى على مجيئك من الاهل؟

- خمسة وعشرون يوماً واعتقد هناك تفتيش قادم ولان عملي في القلم الاداري ولايوجد بديل فسأتاخر عن النزول...

- هل هناك طريقة بالامكان ان تنزل بها؟

- صمت الجندي مبتسماً ... وكرر عليه السؤال لماذا لاتجب؟

- نعم ممكن اذا دفعت مالا نقديا

- ولمن تدفع ...؟

- هناك سماسرة في الكتيبة .. بعضهم لصالح الآمر او المعاون او المساعد او امري السرايا او ضابط الامن

- اراك تتردد عن الجواب؟

- انا ادخلت نفسي في اشكالية كبيرة ارجوك سيدي احتفظ بما قلت لانهم يؤذونني فانا لاحول لي ولاقوة ..... فلم تبق الا اياما معدودة واتسرح وان هذا ليس لصالحي

-لأطمئن ....لكن ما اسمك؟

- انا سعد...

وعند الفضاء الفسيح الذي يحتضن الغرف المتواضعة للضباط .. اشار سعد بيده الى غرفة آمر السرية الثانية ..ثم سمح له بالمغادرة ووقف متاملا يحيطه الم كبير وهو يقرأ حجم هذه الاوجاع التي تعتاش في صدور هؤلاء اللذين قطعوا مئات الكيلو مترات للخدمة فاصبح الامر شيئاً اخر وهو خدمة اناس قد اصبح لهم سلطة ونفوذ يحكمون شؤون الفقراء..الغرفة كبيرة بنيت من البلوك يغطيها الحديد "الشيلمان والجينكو" ...وأبوابها متواضعة وجدرانها من الخارج كجسد اكله المرض فلم يبق فوق الضلوع والعظام سوى جلد رقيق قد تجعد شيئا فشيئا... ونظر كيف يحمل الجنود الماء من خزاناتها بقدور او جلكانات الى غرف الضباط . اسئلة كثيرة تخالجه في غربة لم ير مثلها في حياته"هنا سيشيب رأسك على نار هادئة " هنا بين البرد والحر وجمع غفير يعيشون في المنفى لايكاد يسمع لهم احد صوتا أو يقرأ لهم ذكرى من ألم المعاناة .....رمال تتطاير تجلب الحزن والالم ... فلا ترى زرعاً اخضر ...انها ارض بوار يعيشون بها ممن جاؤوا مرغمين الى هنا .. لكن آمل ان يكون هذا السوق دعوة لحب الوطن والدفاع عنه وان اكون بمنأى عن الكلمات التي تجرح الشعور ...

مازال بافكاره الخرفة دلف نبضه عند الباب ودخل وادى التحية العسكرية ثم السلام فنهض ضابط برتبة مقدم : اهلا وسهلا بك ...

-انا نقيب ابراهيم سعدون جئتك نقلا جديدا

- مقدم فراس احمد آمر السرية الثانية واهلا ومرحبا شرفتنا ونحن بانتظارك ..تفضل بالجلوس

جلس بعض الوقت ومقدم فراس ينظم اضابيره وأوراقه وبرامج التدريب ورمق بنظرةٍ متفحصة الى غرفة آمرالسرية سقفها مغطى بالحديد والخشب "والجينكو والارضية صبّت" حديثا وسرير بوسادة من الاسفنج وشرشف وفراش متواضع ولوحة قد وضعت على الارض بطول مترمن الخشب قد توسدت فوقها مئات الجثث من الذباب التي قتلت من طمعها في المذاق الحلو"سكرا ومبيد حشرات" اذ تناولت بشراهة فماتت ولحظة بعد اخرى تجد افواجا جديدة تتفاخر بالموت في المصيدة ... تقززت نفسه كثيرا " ترى هل سأعيش مع هذه الاجواء بسلام "الهي لطفك بحال عبد ضعيف – بالتأكيد قدم ماء ((Ro)) والشاي ... استأذن للنهوض ... ونادى امر السرية بايصاله الى غرف آمري الفصائل ... في هذه الاثناء دخل شاب برتبة ملازم ثان وادَى تحية عسكرية قوية جلبت انتباه ابراهيم ... اشار مقدم فراس بيده للتعرف (نقيب ابراهيم جاءنا نقلاً وملازم محمد) تبادلا التحية ، بدا على ملازم محمد شراسة ولسان سليط وفتوه قوية وشخصية مليئة بالثقة بالنفس حين قال :

●سيدي مقدم فراس ... اسمح لي ان اضيّف السيد النقيب في مقرنا واشار له بالموافقة ...

سارا خارج الغرفة وبادر ملازم محمد

– كم انا سعيد بلقائك وكم كنت انتظرك بفارغ الصبر ...

– وهل تعرفني من قبل؟

– لا ابدا ولكن منذ ان قرأت اسمك في كتاب النقل غمرني فضول كبير بالتعرف عليك

- اهلا ومرحبا وانا سعيد جداً ... جداً.

دخلا الى الغرفة البسيطة التي لاتختلف في خارطتها وحجمها وشكلها عن تلك التي تركها - انها غاية في التواضع .. اذ تحتوي على ثلاثة اسرة ، شباك قديم للتهوية واخر للمبردة عشتار ...

بدأ الحديث ملازم محمد تسبق عيونه وكلماته التحيات والترحاب حتى ان ابراهيم قد اصابه العجب ... قائلاً

- من اي محافظة انت سيدي العزيز ؟

- انا من صلاح الدين

- وانت ؟

- انا من بابل

ونادى محمد بالشاي والماء وترتيب الغرفة على تواضعها فتذكر ابراهيم البيت الشعري :

وما كرامة الضيف بكثر القرى ولكن وجهه الكريم خصيب

لقد سر محمد ذلك القول ... فرد

- ياضيفنا لو زرتنا لوجدتنا نحن الضيوف وانت رب المنزلِ

سُعد وانفرجت همومه حين وجد شخصاً كهذا يفهمه ويهتم به بل واديبا .. فسأله

- ملازم محمد هل انت شاعر او تحب الشعر؟

- نعم احب الشعر واكتب الشعر ويبكيني احيانا

ورحم الله الامام الطغرائي حين قال: (ما اضيق العيش لولا فسحة الامل) ... وسط العناء والضجيج والالم تفتح ابواب الفرج وتألف كل الاشياء في لحظة كنت ترجوها ... ويذوب المقت والغضب ويأتيك السكون بعد بركان هائج ... ومهما تكن الثورات بحجمها وشكلها ومضمونها ففي النهاية تؤول الى الزوال فما اسهل ان تقرأ عنها وتتمعن وانت مبتسم وكانت في وقت ما هي جرح العالم وحديث الاصدقاء والاعداء ..

- وكيف تسير حياتكم هنا ..

- ابتسم سيدي هنا نقضي عشرين يوما ونتأمل النزول واحيانا اكثر ... علاقتنا طيبة كضباط ... والجنود مشكلتنا ... (هرب وعاد هرب وعاد) ولكن كحياة عسكرية وليست عليك بجديدة فهي صعبة فانت معزول عن العالم ... والطعام قليل فنحن نشتري من السوق فضلاً عن ارزاق الجيش . وهناك واجبات داخلية وخارجية ..

- ومتى بالامكان ان ارى الآمر؟

- عند المساء سنذهب اليه تسلم عليه وتعرفه بنفسك ...

- وكيف حال الامر ..؟

- بين حالين تارة جيده جدا واخرى لاتريد انت ترى سواد وجهه المعتم .

وبعد وقت من الاستراحة .. وصلت وجبة الغداء الفاخره التي تولاها ملازم محمد ... مع عبوات ببسي كولا وماء (Ro) هذه التسمية التي حفرت في نفسه ... كانا قد تبادلا اطراف الحديث حول الحياة العسكرية وصعوبتها والوحدات التي خدما فيها ... بهذا لم يتمكن ان يأكل براحته لان قتلى الذباب تتراكم على مقصلة خشبية تشبه الى حد ما ما رأه في غرفة آمر السرية .. تم تشغيل المبردة لعلها تكون المنقذه من هجومات الذباب المتكررة عدد كبير لايستهان به ... شعوره و مزاجه قد تعكر فراح يسرد له زميله بعض النكات حتى فرج عنه بضحكات لم تعد تنتهي وعقب وجبة الغداء دخل جمع من الضباط للتعرف عليه اذ جلسوا معه حتى عكفت الشمس الى الغروب بقوسها الاحمر الباهت.... ثارت مشاعرالشوق الى اهله وديارة التي ارضعته الحب ... والشوق الى عائلته وصغاره الذين ينتظروا طريق عودته ... الاّ انه في هذا اليوم هو في ارض بعيده جدا لايدركها بصر ولاتطولها يد .. سوى احاسيس قلبية نابضة بوعود قد لاتتحقق ... فرغ الزملاء كل الى غرفته وغادره محمد لعمل مكلف به فشعر ثقل اللحظات لاسيما ان الوجوه جميعها جديدة لايعرف منها الغث من السمين لاسيما ان احد الضباط قال له : ماالذي اتى بك الى هنا الى مقبرة الاحياء ... انها الهمجية بعينها... ياصديقي ...

– لست جديدا عن الخدمة العسكرية وهذه مهنتنا ...

راح يتامل قرص الشمس وهي تسير بخيوطها الجملية الى الكثبان الرملية وهو يمشى في الخارج مبتعدا عن حدود ذاكرته وخيالاته مستنكرا مايمر به احيانا ومستسلما في اخرى كان يسال ويجيب نفسه يبتسم واخرى وجوم عارم ودموع ينزل خيطها ويمسحها في سبابته التي شربت كثيرا من جفنه

المؤرق في هذا الزمن حديث من عقله الباطن ... بماذا توحي لك الشمس سيدي ...؟

- ابتسم

- مادعاك لسؤالي؟

- لقد اطلت التحديق فيها

- انها الان بمثابة الزاجل الذي يحمل كلماتي على خيوطها الى من احب وهي الكائن الذي بالامكان ان تصل بما اريد بلا كلام ..

- ان شاء الله لن يطول مقامك هنا ... فكل شيء سينتهي ..

- ماذا تقصد؟

- الدنيا تسير الى الخراب!

وغادر ذلك ذائبا في جمع غفير من الخاكي الذي يلتحم مع صفرة الارض....حان آذان المغرب ... وشعر كأنه لاول مرة يصلي بذلك الخشوع والتوسل والطمأنينه ... كان دعاؤه يليق بمحنته وما ان فرغ راح يحدث نفسه على الرغم من تجربتك الطويلة في الوحدات العسكرية الا انه لاول مرة يشعر بهذا الضيق وهذه المهانة ... فكلما تحدث مع احد وجده محطما في داخله مهزوما وقبل أن تهب العاصفه شعر بالظمأ ولاذ الى داخل الغرفة واغترف الماء (Ro) قائلا: لذيذ طيب طيب وابتسم واذا بشخص تبين انه ضابط برتبة رائد فسلم عليه وساله بضحكة مستفسرا عن سبب ابتسامته فرد الماء ياصديقي

- تعيش وترى

وسأله من اين انت؟ فاجابه من القطب الثاني وماتقصد:

ابتسم اقصد من(تل عفر) الموصل عند الحدود السورية وما الذي جاء بك الى هنا

- الذي جاء بك ياصديقي .. انتهى اللقاء وانصرفا كل الى ركنه وحل المساء وانيرت الثغور في الصحراء الممتدة وانبوب النفط الاحمر والاسود - الاخضر يزداد شموخا في السماء ... حتى يكاد يلعق الارض المحيطة بلسانه وينير على مسافات عدد من الكيلومترات ...

دخل محمد ضاحكا:

- مالي اراك مبتسما سيدي العزيز .. نحن اخوتك واصدقاؤك واي شيء تحتاج رهن إشارتك .. "تقول ونحن ننفذ"

- بارك الله فيك ابو (جاسم)

تهيأً للذهاب الى الآمر بعد ان اخبر آمر السرية وتوجه الى مقره وهو على مقربة من المساعد الذي مكث عند وصوله لديه بعض الوقت ..

دخل الى مكتبه وقدم نفسه نقيب ابراهيم الضابط المنقول جديدا الى فوج مش / ٩ ..

جلس الآمر خلف مكتبه الفخم و هو ينظر له واقفا وشعر بضيق اكثر حينما نظر سماره الداكن متجاهلا اياه مراجعا في البريد الملقى ، يقاطعه هل بالامكان الجلوس

- نعم تفضل... تفضل...عذرا

- وشعر ان ذلك امر مقصود فلربما هو انسان لئيم حاقد متكبر..

غرق العقيد سرحان ماجد / آمر ف /٩ في حديث طويل عن العسكرية والجيش واهميته وواجباته وانه كما يقال هو من فجر الثورة

- انا سعيد بلقائي بك واسأل الله ان يوفقنا واياكم لخدمة البلد ان الله سميع مجيب الدعاء .

- امين ولعل شرف العسكرية لايمنح لاي شخص فهي امانة في رقابنا جميعا "استذكر ابراهيم ماقاله الجندي حول الطرق التي بالامكان ان يذهب بها مجازا لاهله وشمل الامر (عجيب كلها تتحدث عن الشرف)

واستدرك نفسه لربما الجندي يكون كاذبا ...وقال سيدي:

- (انا نقلت اليكم على الرغم منٍ اني وحدات ثابتة)

فضج الامر بصوت عال:

- (ماالذي يأتي بكم الى هنا وانتم وحدات ثابته) مثل علي الذي دمرني .. تدميرا ...

-انها اقدار حياتنا

انتهت الزيارة على ان يتم التفاهم لاحقا بشأن موضوع العمل في الفوج أدرك وهو يهم في الخروج ان البشر ليس جميعهم يحملون سمات البشرية فقد تجدهم يرتدون القناع الذي يوحي الى ذلك ولكنهم بحقيقة الامر هم ثعالب ماكرة او اسود تتفرد في مشيختها وتأكل بمفردها دون ان يشاركها احد ...بلا شك ... انهم نوع من البشر يرتدون قناع المكر ،صورهم مثالية ،وحقيقتهم ثعالب ماكرة او ذئاب غادرة او اسود غاب ،ياكلون الضحية بلا مشارك ،تعرفهم من مسخ وجوههم... او كلماتهم ... اوتصرفاتهم ثقافتهم معكوسة ،الوطن لديهم هو مجرد اسواق وبنايات وطرق معبدة وليس هناك ادنى شعور بالانتماء الفعلي ...

(٣)

الطريق شائك وطويل والحياة حطام كعظام هذه الاليات الملقاه على جانب الساتر ...اياك صديقي ان تنسى يوما فيه التقينا فقد لا نلتقي مرة اخرى ، فأنحت الذكريات فوق الصخور لكي لا تمحوها عاديات الزمن..ابراهيم يسير من مقر الآمر يحمل بين خافقيه تساؤلات كثر تحتاج الى اجوبة وتجتاح بعصفها كيانه الصامت .. هل ان آمرهم بمستوى الوطنية التي طرحها ؟ هل يعمل في هذا المنصب ايمانا ووفاءا مرهونا بدمه؟ هل كان بمستوى قوله بانه يستعد وامثاله لهزم امريكا ومن معها؟ هل هو لايسرق وامين على معيته ؟

اذن ((ستبدي لك الايام ماكنت تجهل ... ثم يحاكي نفسه: وكأني كرهت هذا الرجل باسلوبه وتقمصه دور الأمين المتفاني ،بأسلوبه الجاف ووجهه الذي ينم عما في داخله من حب الذات وكراهيته للاخرين ،واستمر بتلك الدوامة فكانت له عقد كثيرة *الاولى انه منذ نعومة اظفاره كان يطمح ان يصبح ضابطا مقاتلا مدافعا عن بلده يوم افزعه صوت الطائرات المهاجمة والثانية ان ذلك الحلم باء بالفشل حين علم انه بلا قرار والثالثة انه يتحرى الامانة والصدق فوجدها زيفاً وخداعاً في الجيش والرابعة أنه سعى جاهدا في طلب الموت المبرر من اجل الوطن والتخلص من الخداع بعيدا عن الانتحار الذي يفضي الى النار واسّر كل ذلك في نفسه ولم يطلع احدا...*

وصل الى غرفة الملازم محمد وتناولا وجبة العشاء الخفيفة مع مجموعة من الضباط وكل راح يقص شيئا من مرارات حياته التي عاشها عبر تأريخه الممتد وبادر بالسؤال الى محمد:

– من هذا رائد علي الذي أذاق الآمر الامريّن؟

– انه رائد علي من الانبار وهو ضابط مريض منذ سنوات ولديه وحدات ثابته وعلى الدوام يكلفه الآمر بواجبات فيعتذر بسبب حالته الصحيه السيئة...

– الآن فهمت فحين قلت للآمر انا وحدات ثابتة .. ونقلت الى هنا بقرار مجحف غضب غضبا شديدا وقال مثل رائد علي ..دمرني ..

يتنهد رائد علي فوق السرير الحديدي مبتسما:

– انا رائد علي ومرت ثلاث سنوات في هذا المكان البائس وحالتي المرضية لاتسمح لي مطلقا باداء الواجبات وهذا اشد ما يغضب (العمدة) اقصد الآمر .وانت جئت كما يقولون (فوك الحمل علاوة) ولكن ليذهب الى الجحيم هذا ماقدره الله علينا ..

تفرق كل الى غرفته توسد سريرا حديداً هيأه ملازم محمد للسيد النقيب

●عليك ان تنام هنا حتى الصباح لتأخذ اجازة الى اهلك لترتيب امورك هذا ماقاله مقدم فراس ..

كانت الليله ثقيلة جدا لاسيما ان الغرف او المقر محاطة بقطيع كلاب وعواؤها يرهق النائم واليقظ .. كان مضطرا للنهوض من سريره ليرمي الاحجار والحصى وراءها وهي تولي بالنباح خلف الساتر الترابي المجاور للمعسكر – كان الظلام خلف الساتر قاتما غاضبا مخيفاً فكل شيء مجهول هناك ..!

عاد ممتدا مرة اخرى ولكن يبدو ان العاصفة قد حان موعدها محملة بالتراب اغطشت نور المصابيح المضيئة.. والحراس هربوا الى الداخل لذا كان

عليه الخروج من الغرفة تارة اخرى فلم يراو يسمع احدا في الخارج سوى هذا الحفيف الذي ينذر بكارثة قادمة او امر ما ...

لف وجهه بمنشف صيفي ونظر الى المشهد في ساحة العرض وانبوب النفط المتعالي يتأود بشعلته الحمراء يمينا وشمالا ، تلعب به الريح كما تشاء مثل اقدار الحياة مثل الاوجاع والانين بل كالحب الخاسر حيث لالقاء بين حبيبين حتم عليهم الزمان الافتراق..حظه مثل تلك الشعلة التي تفور في غياهب الظلام او كما قال الشاعر:

ان حظي كدقيق فوق شوك نثروه

ثم قالوا لحفاة يوم ريح أجمعوه

صعب الامر عليهم ثم قالوا اتركوه

ان من اشقاه ربي كيف انتم تسعدوه

عاد مستسلما فوق وسادته : يجب عليك ان تنام فغدا لديك سفر...- ولكن كيف انام بهذا الجو الحزين و المشحون بالمجهول ؟ الا تحتاج النفس للطمأنينة كي تنام؟ والغريب الذي رآه ان الجميع نيام لايهمهم مايجري من اهوال وضجيج .. ونهض مرة اخرى متناولا كأسا من الماء وقد تحسسه على الطاولة الحديدية المجاورة شاربا ماتبقى فيه مجبرا نفسه التي ترفض ذلك المذاق ومعدته بدأت تعاني بعض الاوجاع ويقول لها اصبري فنحن في اول الطريق .. مضى وقت قليل ويسمع طنين البعوض يغزو جو الغرفة وهي تلسع كل جزء تتلقفه عبر مجساتها من جسده المتعب فهي قادرة على بلوغ مرامها لانها مهيئة ذاتيا لذلك.. واعدادها لاتختلف شيئا عن اعداد الذباب

في الصباح ولكن مبردة الهواء التي تدور ببطء تكافح بشكل بسيط... ومن شدة العناء والتعب نام على الرغم من كل مايجري .. نوما استسلاما اجباريا ... لا ارادیا من شدة الارق ... رفع الفجر اكفه للذاكرين نهض وزميله " الرجل الطيب" الذي قدم له اشد العناية عقدوا نية الصلاة وقد اجتهد محمد بالدعاء حتى ابتل وجهه من مطر الدموع الغزيرة التي حفرت طريقا ساقطة على الارض ،استبشر ابراهيم خيرا حين راى هذا الشاب العشريني بهذا الخضوع والخشوع والتوسل والعبادة ...بعد ذلك تبادلا اطراف الحديث اذ قال محمد:

– سيدي العزيز كانني على يقين بانك لم تنم هذه الليلة؟ .. اعانك الله فكلنا باول وصولنا هنا مررنا بالمعاناة نفسها ولكن اصبح الموضوع عابراً او طبيعياً.. فتح محمد دولابه الصغير واخرج قطعة حلوى الى ابراهيم ثم اردفه بورقة الاجازة التي جاء بها من آمر السرية مساءا ولم يخبره بها قائلا: ارتدِ ملابسك وتوكل على الله وبعد هذه الاجازه نلتقي ولنا احاديث اخرى .– فرح كثيرا وعلى عجل هيأ نفسه والى سيارة الحانوت التي طلب من سائقها بنقله الى الكراج مبكرا وودعه بالسلامه نلتقي وعلى بركة الله وعساك بالف خير تصل ..

راحة مؤقته وهو يفارق هذا الكابوس الذي كتب عنه بمذكراته الشخصية .. قصائد وخواطر وذكريات مازجا ذلك باشد الالام .

وصل مع طلوع الشمس في كراج ساحة سعد اذ وجد العباد يهرعون كخلية نحل اصابها خطر والاصوات ترتفع .. شاي .. خبز حار .. بغداد ... بغداد .. ناصرية .. ناصرية .. وبكل هدوء وسكينة يصعد في السيارة المتوجهة الى بغداد ولكن لايخفى انه متعب فمازالت آثار رحلة امس ترهقه..

انه يرغب على الدوام ان يكون بجانب النافذة ليطلع على مالم يره بالامس ... انطلقت الحافلة(٤٥) راكبا واغلبهم (ابو خليل) كما يطلق على الجنود ،كانت القهقهات تملأ افواه المجازين لان ذلك عيدهم ولكنهم بعد سبعة ايام يفقدون هذا المرح بالوجوم الذي يخيم عليهم في وقت وداع الاهل والاحبة ،كانت الرحلة شاقة نوعا ما لطول الطريق الذي يستغرق ٧-٨ ساعات الى بغداد .. دارت احاديث كثيرة بين الجنود والمدنيين وكان ذلك التمثال الذي يسمع اكثر مما يتكلم ماسكا بين انامله سجلا بالجلد المقوى الاسود فهوالرفيق على امد حياته العسكرية يطرز بحروفه دروس مسرح الحياة باعتباره احد ابطالها ...

واياك ان تجرح التمثال في احساسه فكم بكى في صمته التمثال

كان خياله منطلقا بعض الشيء فالمعاناة التي يتلقاها قد فتحت امام عقله نافذة واسعة من ادراك ووعي وتحسس فهو يكتب بحرارة وشوق والهام ... فما ان تسمع اوتار مفرداته تشعر حجم مايعانيه في مجتمع لايعرف قدر المثقف فهو يضيع بين دهاليز الجهل دون أن يؤرخ له التاريخ حرفا واحدا .

المصحف الشريف والكتب الأدبية والثقافة والعلمية التي يقلب صفحاتها من خلال ذلك ينظر الى العالم الذي لا يراه الا بائسا شبيها بحاله... كان الطريق طويلاً كسيف اسود يبقر بطن الصحراء من ساحة سعد الى بغداد....تلك الفيافي المزدوجة بالهواء والنباتات البرية المتفرقة هنا وهناك التي تقاوم قسوة ظروفها الموجعة حرارتها وبردها او تلك الطيور التي غيرت نمط حياتها راكنة فوق العليقات المتناشرة ...صحراء مجدبة تبدو ساخطة كافكاره الحرى التي تصعد ناطحة السحاب ونازلة الى اعماق الثرى ،ويح هذه

الهواجس التي تخترق كيانه بتحد قوي ظالم شرس فلايقوى ردها الاّ بتنهدات عاشق يحب الحياة وهي مدبرة عنه وهو يلهث في المارثون آملا ان يحصد زهور بقايا عمره الذي ازف للترحال .. فمن يطلع على مايكتب يظن جزما انه لايحب الوطن .. لكنه يعرف تماما ان الوطنية والمواطنة والانتماء الى الارض لاتقاس بمقياس حراري فهي جملة الولاءات الصادقة بين جمع من الصادقين يهمهم امر الوطن ،الارض والسماء والاشجار والطيور وعيون الطفولة الدامعة والامهات الثكالى والاباء والشيوخ فالذين يدعون ذلك ويتبجحون بها هم جمع منافق ... لكن الذي يوجعه الم النفاق فلربما سيقود الى كارثة لاتحمد عقباها....

كان يحلم ان يكون ضابطا باحثا عن تلك المفاهيم والاسس والاقدام بل والتضحية التي قرأها وتمرن عليها فترة الاعداد بالكلية فوجدها خطا وهميا يمتد من حلمه الاول بالفحص الطبي في مستشفى غالب بن عبدالله الليثي الى كومة الاوجاع والكذب الذي طعن قلبه بالخداع وثقافة الخداع... بل مجرد حبر على ورق لا اكثر ... بل وجد كذبة كبرى يشترك بها مع عدد كبير من الضباط والجنود ،فكان مطلبه الخلاص من تلك الكذبة بدل الاكثار من مائدتها التي اتخمته ثم يعترض نفسه بشدة ولكن من يبقى اذا كان قرارنا هكذا –لا لا لا ..

تكررت على ناظره تلك المشاهد من المناطق البصرية والميسانية التي كان يسمع عنها ذات يوم في الكتب المدرسية ... ثمة وحشة والطريق خال من السيارات اذ ترى بين كل(٥)كم اقل او اكثر واحدة مشابهة او مختلفة فعلم بشكل جازم انه الطريق للمهاجرين باحيان كثيرة ...

ومن حسنات هذا الطريق انه امنا مسالما للجميع ،ولربما لايمكن لاحد ان يمر به في يوم ما....وبدت تباشير بغداد تلوح عند النهروان ..تنفس الصعداء فاستراح وصعدت انضباطية الجيش طالبين الهويات والاجازات الدورية ...ثم مشاكسة تحدث بين ضابط حاسر الراس افضت الى نزوله لمخالفته الاوامر كما يدعون وبعد رفع ونصب وحل وشد تأخرت الحافلة عن الدخول الى العاصمة نصف ساعة وتدخل مجموعة من ضباط السيطرة في الامر ولكن دون جدوى ...كان من الناحية الضبطية يتوجب على السيد الضابط ارتداء "البيرية" ... ولكن ياترى هل هي النهاية او المنقذ...او هل هؤلاء هم صادقون في تطبيق الاوامر ... ام نزوة وشعور بالنقص وارادوا اثبات الذات من خلال التعامل بطريقة جافة ومجحفة بحقه ..ظلَّ زميلنا الضابط لديهم وسارت القافلة ولا نعرف مصيره الأخير حيث نزل بعد شهر إلى اهله حسب ادعائه ليواجه صعوبات جمة وسط بركان من الغضب ...

في مرآب النهضة تفرق كل إلى غايته وهو يتوجه الى الكاظمية ثم صلاح الدين ... كان يشم الهواء باسترخاء وعذوبة لعل رئته تحتفظ ببعضه لانه يعاني من بقايا هواء رطب ملحي تضيق انفاسه لاسباب مرضية ونفسية ....

وصل داره متعبا ولكنه متحفظا عن الحديث بشان تلك المعاناة فهو كتوم الى حد ما ولكن الذي يقلب صفحات مذكراته يعرف حقيقة ما عاناه...

كم منزل في الارض يألفه الفتى

وحنينه أبداً لأول منزلِ

ومنذ اليوم الاول من الاجازة هو في وجل كبير للعودة الى وطنه الجديد ... او منفاه الذي اعد له ... منفى مجرد تخبط وعناد ونوع من التعسف الذي قرره بعض المستشارين الكبار في الجيش .. على أية حال فهو راض بذلك القدر وعلى الرغم من علته فالكثير من ابناء الوطن قد وجدهم هناك وعلى المثل السائد(حشر مع الناس عيد) ...امام موجة عارمة من المشاعر الجياشة التي تخنقه بتداعياتها سحب من المنضدة البوما للصور تؤرخ أمدا طويلا من حياته ،اشبه بواحة فرح كانت ذات يوم ،الواجهة الرئيسة الوان وزخارف بل غابة مليئة بالحيوانات ،طبعا الاسد هو الاكبر حجما والذي يتربع ملكا على ابناء جنسه ،عيناه كبيرتان قاسيتان ذات احمرار واضح ،الارانب والقطط وابن آوى خاضعات تحت قدمه وقسم اكبر يحملون الطعام امام فمه الكبير المليء بالانياب الناصعة من البياض على لحوم الحيوانات الضعيفة ...

الاشجار عالية تغشاها خضرة جميلة تتخلل بين اوراقها العصافير والبلابل والحمام وفي الوقت نفسه خائفة من الاسد فهي تنظر اليه من الاعلى تاركة علوها واجنحتها وامكانيتها الهرب باي وقت داهمها الخطر....يالها من صورة ادهشته دون ان يشعر فاتحا عينيه بقوة وكاتما فمه ثم زافرا نفسا ساخنا ،هكذا على الدوام الفقراء مستعبدون! غادر مخيلته مبتسما بسخرية وماشيا الى خارج بيته مقلبا الصفحة الاولى من الصور كانت بمثابة نحوت سومرية او بابلية او آشورية انها قديمة حقا يرى نفسه جسدا نحيلا لطفل صغير يقف تحت شجرة التوت التي لاتزيد في ارتفاعها عن المترين وقد اخبرته والدته ان هذه الشجرة ذاتها التي امام داره وقد وقف امامها الان بعد اكثر من ثلاثين عاما....نظر بألم ترى كم اصبحت عملاقة شجرة التوت وهي تطاول زرقة السماء ،كم من ساق ضخم تشقق لحاؤها الخارجي

باخاديد كوجه بال او قرى مهاجرة الى غير رجعة ،بل باتت تصلح كمسكن الدود الصغير والدبابير يلمسها بيده تارة والصورة تارة اخرى فرق كبير في الاحساس ...ياه اي ماض لصورة واقفة تستجدي من الذاكرة بقايا حلمها المفقود تؤرخ بلونها الاسود والابيض لحظة مات احساسها لتوخز ساكنها بالشعور واللوعة ...نعم ماض عبارة عن ورق بالاسود والابيض وعلى زميلة له(النهايات التراجيدية المفتوحة لشتى التصورات ليست في الواقع من شيء هي للقاريء المتسلي لشخوص من ورق اناس يمتلكون الروح لكنهم من ورق)...ثم صورة لوالديه في حفل الزفاف كانا يضحكان بفرح غامر وسعادة ثم اعمامه واخواله واقرباءه واصدقاء كثر بعضهم فوق الارض وبعض تحت الارض لاهمس لاصوت لاحراك انه الصمت الذي يصارع مخيلته...لاشك ان اطفالي سيقلبون هذه الاوراق مثلي ولربما تربكهم او تحزنهم ولكنهم رويدا رويدا ينزلون الى القاع مدى ذلك ناسين او متناسين...لم يزل يتطلع بشهية الى زوايا داره الواضحة والمظلمة ثم توقف امام صورة كبيرة في غرفته ثم غض طرفه وسحب من جيبه محفظته المليئة بالصور الصغيرة احياء منهم واموات ،تامل صورة خاصة تنهد امامها بحسرة لانها كانت حلما ذات يوم لكنه قرر ان يمزقها ثم يجيب نفسه ولكنها مجرد ضغط مسكها بين ابهامه وسبابته ...نعم امزقها ذلك افضل وفعل ذلك ودخلت زوجته مابك ياحبيبي؟

-لاشيء ماض من ورق

- لمن هذه الفتافيت الورقية؟

- بارتباك صديق كنت احبه وقررت ان اهجره لانه اصبح ماضيا

– تفاديت الجرح املي ان تنساه تماما وان كان الورق يحرق بالنار وناره حارقة كذلك ولانه يعد نفسه للمغادره قررت ان لاتعاتب اكثر من ذلك مع انها مكترثة حقا..برهة من الوقت يستل صورة للعائلة ذات حجم متوسط ليضعها في المحفظة قائلا: ساحتفظ بها ياحبيبتي لاني اشتاق اليكم والنظر بها جزء من راحتي..

– ان شاء الله وتذكر ان زهرة عباد الشمس تستدير على الدوام باتجاه الشمس لانها الامل الوحيد والملاذ لانها تهدي اشعتها بلا منة..

– مسك يدها يلوذ من الحزن بابتسامة ساخرة واعلمي ان الشمس ستبقى تشرق وترسل لزهرتها الوحيدة لانها ورثت الوفاء لاصحابها

انساها حزنها وكآبتها التي تعرضت لها قبل قليل وقبل راسها فاعطاها املا كبيرا وجدد حيويتها وصافحها لانها طيبة للغاية وعلى هامش هذا اللقاء العاطفي اوصاها بالعيال فاجابت:

انا خادمة لك ولعيالك واحتقنت جفونها دمعا غارقا مسبلا على خديها بلا استئذان...ارتدى قيافته التي يعتز بها كثيرا "وبيريته" السوداء محدقا في المرآة ياليت كل من يرتدي هذه القيافة يحبها من قلبه وجسده ولكن ياحسرة ، تجربتك مريرة وفاشلة مع الذين يبررون لاخطائهم وسرقاتهم ورشاهم مع استثناءات لحاملي الرسالة بصدق وايمان ... عاد مودعا اهله وكأنها بعض لحظات قضاها وراح يقبل منذ الفجر دموعه وهي تخضب شفتيه ووجنتيه الخاويتين... سار راكبا الهم يجر سطوره المفجوعة الجريحة خلفه دون ادنى كلام ...هذه المرة وصل الزبير الساعة الثانية بعد الظهر قاصدا مطعم (ماجد) الذي رصده في المرة الاولى من التحاقه تلك

الواجهة الجميلة الملونة وتناول وجبة الغداء النظيفة ولكن العلة في الموضوع على الرغم من المكافحة والعناية الا انه تسلل الذباب من هنا وهناك لايمكن السيطرة عليه أبدا...سار بهدوء على قدميه المتعبتين من الجلوس الى جامع ومرقد سيدنا الزبير بن العوام رضي الله عنه وصلى في المسجد ودعا الله ذارفا بقايا دموعه سائلا ان ينظر بحاله في زحمة الاشواق واختلاف الرؤى الفكرية والثقافية بهذه المؤسسة التي تميل الى الانهيار شيئا فشيئا وشعر انه بات اكثر صدقا وأعلى قيمة في المجتمع وان كان ذلك أضعف الايمان.

وصل فوج مش/٩ وكان باستقباله ملازم محمد الذي اعرب عن اشواقه ومحبته والفراغ الذي تركه...بهذا اندرج بمشروع الحياة الجديد راضيا بما حوله من ظروف قاسية والتفت يمنه طالبا ماء ولكن اليوم لايوجد ماء (Ro) لذا يستوجب ان يرسلوا واردهم الى الزبير ليشتروا خزان ٢٠ لتراً بثمن الف وربع دينار ... وبعد التنقيب في غرف الضباط عثروا على الماء في غرفة مقدم فراس فأطفأ الظمأ وأجرى تمرينا على قبوله وان كانت نفسه تتمرد عن شربه احيانا ...صدرت التعليمات اليه مهمة تدريب السرية الثانية بعد العرضات ولكنه قدم الاعتذار عن العرض الصباحي بسبب الحالة الصحية مصطحبا التقارير الطبية... وبعد التداول مع امر السرية الذي كان طيبا حصلت الموافقة على التفرغ للعمل في التوجيه السياسي ...لاسيما انه حاصل على البكلوريوس في علم الاجتماع ... وبعد وقت قصير دخل ملازم اول عبدالامير ملقيا تحيته وهامسا :

- سيدي العزيز اطلب اليك ان لاتتورط في التوجيه السياسي

- لماذا؟

- مسؤوليته كبيرة

- وهل انت تعلمني بالمسؤولية؟

- لاعفوا سيدي لااقصد

- من يعمل في التوجيه الان؟

- أنا سيدي

- ألم تكن أنت ضابط الأمن بالفوج؟

- نعم

- اذا لماذا؟

- لاشيء عفوا ... عفوا...

انصرف عبدالامير وخلف تساؤلات لديه- ياترى لماذا يصر هذا الشاب على الامساك بزمام التوجيه السياسي - هل هو ذات امكانية ومهنية وخبرة ونزاهة بحيث لايتمكن غيره ادارة المنصب؟ .. ام هناك شيء آخر خلف الكواليس؟ .

سارت الامور كما طلب مقدم فراس وبدأ عمله الدؤوب في التوجيه وقد اثبت جدارته في الاحتفاليات والمناسبات الرسمية الا ان عبدالامير بقى محتقنا على الرغم من مرحه الظاهري الا انه يخفي خلف نظراته وتصرفاته

لؤما شاحب الاوصاف يبثه بين الحين والاخر...الجنود المتسرحون يحتاجون الى التواقيع في خلاصة الخدمة ضابط الامن- المساعد- ضابط التوجيه السياسي - وقد عمد ابراهيم ان يساعد الجميع لاسيما تلك الظروف الصعبة التي يتعرضون لها بهذا المكان الصحراوي البائس .. فلا يؤخر جنديا واحداً ولو بضع دقائق حتى ينجز له مايريد .. الا ان هناك معضلة كبيرة في محطات التواقيع الباقيه فلا بد ان ياخذ وقتا طويلا ..

انه كان يتجسس بهدوء عن تمسك عبدالامير بالمناصب فجاء الجواب الشافي يوم سأل احد جنود الفوج وهويحمل ملف التسريح ؟..

- اراك غاضباً ابو خليل؟

- لاسيدي لاشيء

- قل مابك ؟

- لدينا مشكلة كبيره فانت لا تتأخر عندك المعاملات اما ضابط الامن وغيره فلابد من ضريبة تدفع او جزية مقابل التوقيع .

- هينَ - هينَ ان شاء الله ... نبحث الموضوع مع الضباط ..

خرج الجندي بعد اتمام مراجعة الاوراق وهو يحدق بحجم مأساته التي ظهرت اثارها في قسمات وجهه المتعرجة وهو يرفع اكفه الى السماء قائلا اللهم وفق نقيب ابراهيم وارضَ عنه فرد في نفسه

- رب اوزعني ان اشكر نعمتك التي انعمت علي وان اعمل صالحا ترضاه....

كان يحب الخير للجميع فكلما وقع خصام بين زميلين الا كان الرجل الثالث في تقريب وجهات النظر واصلاحهم وقد حظى بمحبة الضباط كلهم الاّ الفتى الاسمرالذي يشعر على الدوام بعدم الراحة من قبله"ضابط الامن" ... ولكن حجم الفساد في الجيش اكبر من حجم إبراهيم وتوجهاته ..وتمر ساعتان من الدوام وفي وقت الاستراحة انثال الضباط الى غرفته ومن بينهم عبدالامير ...سر بقدومهم وهم يدخلون اذ اعتاد ان لا يتقاطع مع احد وكل له حجمه وصورته التي يستحقها ... وبعد وقت قصير من احتساء الشاي دخل جندي طويل اسمر مبتسم ممتلئ القامة مفتول العضلات يرتدي الزيتوني يحمل ملفه ووضعه على الطاولة الخشبيه امامه قائلا : سيدي هذه كنيتي العسكرية ..

– اهلا بك وسحبها وراح ينظر بمفرداتها بصمت وتأن ولم يمض وقت طويل حتى انجزها ...

حدق رائد عبدالسلام اليه معجبا بتفانيه واهتمامه قائلا :

– أنراك نسيتنا؟ نحن ضيوفك ..

– لا أبدا ولكن هؤلاء الفقراء المساكين هم احوج منكم قليلا سأنتهي وعاد الى الصمت يتابع مابدأ به بين الاوراق ..وبعد ذلك سلم الملف الى الجندي بابتسامه ((موفق ياأخي اتمنى لك حياة مدنية سعيده بعيدا عنا! ... وبادر الجندي بابتسامة :

– اشكرك سيدي ..

– ولكني اراك تاخرت فمنذ اسبوعين اراك تحمل هذه الاوراق

– سكت قليلا بين الخوف والخجل وهو ينظر الى عبدالامير .. كانت لدى ملازم اول عبدالامير

– فغضب عبدالامير قائلا ماذا تقصد؟

– لاشيء سيدي هو سؤال وجواب

صمت الجميع وادى الجندي تحيته هاما بالخروج عند عتبة الباب فصاح عبدالامير بابتسامة خجلة ونظرات لاتخفى تذمرها ولكنك لم تعطِ حق ضابط التوجيه السياسي..

– التفت بحنق واي حق ذاك الذي تقصده يا .."عبدالامير .."

– فدخل رائد عبدالسلام بحكمة "مصلاوية" لاشيء يقصد هدية الفرح بمناسبة التسريح..

– بعنف لا.. ليس لنا هدايا وهذا واجبنا

– يقصد عصير الفرح ولو صندوق " راوخ "

– لا اذهب ياولدي حتى العصير مرفوض .. والتفت الى الرائد عبدالسلام ((ماهذا الابتزاز وماهذه الطريقة التي تتعاملون بها مع هؤلاء الجنود هل جاؤوا لخدمة الوطن ام لخدمتكم؟..اصابهم الخجل فبادر احدهم نحن نمزح اردنا ان نسمع رايك لا اكثر....

انتهى المشهد بشد خفي واستأذن الضباط بالخروج وهم يحملون غيظا قاهرا تجاه زميلهم ... كما انه قد مسح وجهه " استغفر الله العظيم " ... كيف

تسير الدنيا انها على وشك النهاية ماهؤلاء الذين يغمسون انفسهم في طاعون السحت والحرام ... يبدو انهم متفقون جميعا على نهب الرعية بأي طريقة ... فبدل ان يعينوهم – يتجبروا عليهم .. اللهم استر .. اللهم عفوك ..

جلس يفكر في المصير الأخير ، وماستؤول اليه حياته والآخرون وهذا البشر المنقطع في ابط الصحراء القاحلة الدامعة من عين الرمال ...

دخل ملازم محمد:

– مرحبا سيدي اراك غير مرتاح وتفكر؟

– لاشيء اوهام واحلام

– ماذا تقصد ؟

– ياأخي انا جئت متعبا من الواقع الذي كنت أعيشه فوقعت بواقع امر وأدهى بوقت نبيع ضمائرنا وكرامتنا ووطننا دون أن نحاسب أنفسنا ولو مرة واحدة...

– سيدي ماذا حدث ؟

– كل يوم اكتشف شيئا جديدا بهذه النفوس المريضة اقصد بعض الضباط وهم ينزلون الى الحضيض – يطلبون الهبات والهدايا من الجنود

– ضحك كثيرا حتى احمرت وجنتاه ودمعت عيناه ؟

– ما يضحكك؟

- بروح النكتة والاستفزاز هذه ثقافة طبيعية داخل الجيش فمن اين يصرف الضابط ماليا اذا لم يعتمد على اخيه الجندي البطل ... الباسل فالرواتب لاتكفي وحتى لايهرب الجندي ولا الضابط من الجيش بات مشروعا ،نزول الجنود مقابل الاستفادة...

- ومن يقاتل امريكا وحلفاء الشر؟

- الرمل يقاتل ...

- هل انت تسخر؟

- لا والله كلامك صحيح ولكن ليس كل الضباط فالكثير منهم معدومون ماديا وهذه الطريقة الوحيدة التي يتمكنوا فيها من الاستمرار...

- الله واكبر (اقرأ على ٦ كانون وتاريخه السلام)

وتمضي الشهور بين النزول والالتحاق في حياته ويتعرض الى زوبعة من المشاحنات الخفية اذ ان المثالية او التقرب من المثالية او بمجرد الحديث عنها تزعج الكثير .. وان الحديث عن الامانة والاخلاص ضرب خيال لايمكن تصديقه او على الاقل تصوره ...

في واحدة من صباحيات الشتاء الباردة يرسل آمر الكتيبة الى نقيب ابراهيم ويوجه بضرورة متابعة اعمال التوجيه السياسي فضلاً عن ممارسة واجباته الاخرى بدءا من العرضات والواجبات بغض النظر عن الحالة المرضية - المسألة انتهت بردود لاتريح الطرفين وشعر الآمر بالكره تجاهه وبات بلاشك شعور متبادل ..

عقد النية في اليوم الثاني على الخروج الى ساحة العرض الصباحي وقد اصطفت السرايا مع إشراقة الشمس والضباط يرتدون الزيتوني وعصي التبختر امام السرايا ،استذكر يوما من ايام الكلية العسكرية قبل سنوات يوم كانوا اشداء وكيف كانت الكراديس منتظمة وقيافتها موحدة ولمعان اسلحتهم امام إشراقة الشمس كأنهم جسد واحد عند الحركة والسكون...

قارن ذلك بجنود السرايا اليوم وهم متعبون والمرضى يجتمعون عند حافة العرضات... تم تقديم الموجود وتفرقوا الى اعمالهم ،كان عليه ساعات بتقديم درس في التعبية العسكرية تعاليم معركة الحضيرة والفصيل وفي الساعة التدريبية الثانية وفي حين هو يطلق اوامر الاستراحة والاستعداد...تباغته سيارة "لاندكروز" بالدخول الى ساحة العرض الصباحي من جهة الغرب وبسرعة فائقة وتقف امام السرية ،يعطي حركة الاستراحة ويتجه الى السيارة وينزل منها العقيد الركن خالد شحمان سائرا بخطى بطيئة حتى اقترب..

- يعطي حركة والاستعداد ثم ينحرف متأبطا العصا مقدما نفسه / رتبته واسمه

- رد التحية ببرود وتذمر ويباشر بالسؤال اين الآمر

- اعتقد انه مجاز سيدي منذ امس

- اين س١ ، س٣

- ذهب بهم مقدم فراس الى ميدان الرمي للتدريب

- واين فصيل العجلات

- عذرا سيدي أسئلتك فيها تفاصيل دقيقة اسأل مساعد آمر الفوج فانا غير مسؤول عن كل ذلك..

العقيد الركن خالد يعود الى السيارة ثم يلتفت اليه ... اذا آمرك ينزل لاحس ولاخبر ...بسيطة - بسيطة

هذا الطلسم لم يفهم منه شيئا ابدا...

تدخل السيارة الى العرضات وذلك خارج الضوابط العسكرية ويقولون انها مكان مقدس حسب العرف انتهاك لحرمة الجيش ، ثم ان المساعد وحاشية الآمر موجودة وبالامكان السؤال عما يشاء كونه ضابط ركن حركات في الفرقة ... وماذا يعني بسيطة ... بسيطة هل نحن طلاب ابتدائية أو ثانوية..مازال الجنود وقوفاً وابراهيم سارحاً في غيث التناقضات من تصرف هؤلاء... استرسل نفسه عائدا الى وضعه الطبيعي مع سريته واكمل درس اليوم...ثم الانسحاب ... ومباشرة عمله في التوجيه بمراجعة بعض المصادر السياسية والاجتماعية ومتابعة الحانوت وقضايا اخرى تهم الفوج...

قرر ان يبتعد عن مكان وحدته العسكرية عصرا وبصحبة ملازم اول محمد ذاك الزميل الذي لم يحصل على بديل غيره ... وعند مرتفع شمال المعسكر وقفا سوية كل يشكو همومه لأخيه وقررا استطراد المواضيع العاطفية والغرام ... نظرا الى بعضهما

- يامحمد هل انت متزوج؟

- كلا فانا احب ولا اعرف نهاية الحب

- وما قصة حبك؟

- كنت طالبا في الثانوية تحديدا في الخامس العلمي وكنت احد اعضاء اتحاد الطلبة المتميزين دراسياً وكانت معنا طالبة جميلة جدا اسمها "كوثر حسن" وهي منافستي من الناحية العلمية والأدبية وتكررت نظراتي اليها وتبتسم لي فشعرت انها جزء من وجودي ....

في احد الايام كان لدينا مهرجان في المحافظة نعد له في مركز الشباب وقد جلست هي في المقعد الامامي وانا خلفها ولأنني اعرف سنذهب سوية كتبت لها جل اشواقي ومحبتي وفي الطريق استللت الورقة من جيبي خفية عن زميلي الذي بجانبي ولمس كتف كوثر بهدوء فالتفتت ألي فدسيت الورقة بكفها أملا أن تخفيها وتقرأها في البيت ... وقد تصرفت بخبث وحركة مقصودة لتنتبه زميلتها التي بجانبها وراحت تقرأ كلماتي وبعض أبيات شعر قد نظمتها وبنظرةٍ ساخرة غار جسدي تحت الارض وهي تشير بإصبعها وعلى مسمع من جميع الزملاء : انا احب واحد مثلك؟ - من انت حتى احبك ؟

ثارت ثائرتي وغضبت غضبا شديدا - لا تنظري اليَّ يا قليلة الادب وانا لا اسمح لنفسي ان اقبل انسانة مثلك يا غبية وبالوقت ذاته اسرق نظري الى وجهها فاجدها تبتسم.. دون اكتراث راح الزملاء يضحكون من الموقف ... وانا معتد بنفسي وشبابي وقصائدي ومشاركاتي وعائلتي التي يعرف مقامها الجميع.

دام الخصام الى السنة القادمة في السادس العلمي ولكنها على الدوام ترمقني نظرتها بعينيها السوداوين وجبينها الابيض كطلعة البدر وصلتني رسالة منها معتذرة مفاده(والله اني احبك كذلك واعتز بك ولكني اردت ان اعرضك للحرج)وبعد التخرج وبمحاولات كثيرة باءت بالفشل اذ لم يقسم لي الحظ حياة معها...

- مازلت تحبها..؟

- ومازالت تسكن هذا الفؤاد .. وكلما تذكرت تألمت وضحكت امام تقريعها الفج..

صمت محمد عن الكلام حتى تفجرت عيناه بالدموع... عادا الى المعسكر بعد ان صليا صلاة المغرب على ذلك المرتفع..

اذ جن الليل بالظلام وكل ذهب الى غايته.... وغاية ابراهيم لم تتحقق بعد في مجتمع تهالك وحطمته الاهوال والحرب المدمرة..وفي طريق العودة ... وعقب الصمت بينهما .. قال ابراهيم "هكذا حكمة الاقدار يجتمع بني البشر غرباء ويتفرقوا اصدقاء" فالطريق شائك وطويل والحياة حطام كعظام هذه الاليات الملقاة على جانب الساتر ...اياك صديقي ان تنسى يوما فيه التقينا فقد لا نلتقي مرة اخرى فانحت الذكريات فوق الصخور لكي لا تمحها عاديات الزمن..

(٤)

الطريق مغلق ... وخسائري فادحة في عالم غليظ يقتل بلا حربة أو سكين.. وكيف يعيش الإنسان بلا حب فكل الأشياء التي ترغب أن تكون قريبة

منك وتشاركك الحياة لا بد ان تحبهاانتهت الليلة سمرا مستمعا الى قصائد محمد في الغزل والوعظ والحكمة وحب الوطن .. وهو يلقيها بحركات ساخنة متفاعلا مع كلماتها راقصا بيده السمراء حتى تنهمر دموعه كعين ماء صافية في ابط جبل شاهق....يالها من ليلة ضاجة بأسى السنين العجاف محملة بغيث غضير يرطب ارض الحطام بامل كسيح قد لايقوى ان يقوم على عكازه باحيان كثيرة.. يبادر محمد بعد وصلته السنفونية هل تعرف كم أحبك وكم انقذتني من الفراغ؟ لقد كانت مشاعري في جمود واحاسيسي معدمة وقنوطي كبير من الغيث في موسم الامطار ،فأصبحت ملاذا آمنا في محنتي يوم لايحب الناس السماع ومعرفة المعاني يوم هجروا الكتاب والاحساس بالاخرين ،وباتوا باشد الحاجة ان يقتلوا الجمال قبل الولادة ،افكار فرعونية ،تسلطية ،قاهرة لانهم في منأي عن الحقيقة ،عن حقيقة وجودهم في صنع الحياة بالسلام والفرح والسرور والمؤاخاة والنكوص عن الشر والخديعة ،كل يحلم ان يجمع المال ويأكل كل ما امامه وخلفه من الخبز غير آبه لغيره ولو عاش مشردا ،جائعا ،ضائعا ...كل المفاهيم والعناوين تغيرت في عقولهم ، انهم مهاجرون ،مغادرون وقد لايعودون تارة اخرى... الذي يسرني دمعك المهيأ للمطر في كل وقت ... لقد وجدتك شراعاً اسير خلفه وسمعك صاغ لمعاناتي وماكتب فقد كنت احكي كل ذلك للريح والرمل والطير المهاجر والشمس التي تشرف للافول...ً كان النعاس يتسلل الى الجفون وهم يحاربون ببقايا مايملكون من قصص وحكايات ولكنه اعلن انتصاره بلا شك ...

****

الصبح تنفس من جديد واستيقظ الجميع على "الروتين" المعتاد في كل مرة ...الآمر يخرج بقيافته سائرا متبخترا ببدلته وهندامه المرتب ويسترق نظراته الى الضباط ،وبلا شك هو يتأكد من وجود ابراهيم ام لا ...كانت الارض مليئة بالحزن وكل الضاحكين هنا هم مجرد دمى توقيت سرعان ماتنتهي الى الوجوم ، يتمتم الضباط بينهم بشان مفاتحة الامر بنزول وجبة الاجازات وبين ذلك الهمس دس ابراهيم انفه في الموضوع بفضول :

انا ساناقش الآمر في الموضوع وذلك مطلب الجنود مني بالامس لتاخرهم الى صلاة الظهر اذ ان يوم النزول هذا يحسب ضمن الاجازة واندفع:

- سيدي نحن بحاجة الى توقيع نماذج النزول بوقت مبكر ليتسنى استثمار الوقت للوصول آخر النهار وكما تعلم المسافة بعيدة ...

- نظر بعين طغى البياض على سوادها وهو يمسك سيجارته بين سبابته والوسطى"طبعا خارج ساحة العرض"

– وهل أنت تحاسبني؟

- أحاسبك لا ابداً ولكن هذا اليوم ضمن الإجازة والجنود مازالوا هنا

_ بعد الفطور الصباحي يأخذون النماذج وهم لا يختلفون عني شيئاً.

_ ولكنك تسافر في الطائرة بنصف ساعة تكون في بغداد.

_ بغضب شديد : كفى.. كفى.. ولماذا لا يذهبوا في الطائرة .

- فقراء لا.. لايملكون الأموال.. ليس لديهم سوى الراتب وياخذون مصرفهم الإضافي من أهاليهم..

_ الكلام معك لا ينفع .. أنت جئتني بهم آخر!

انتهى العرض الصباحي ، إبراهيم عاد إلى غرفته شارحا ماحدث مع انه بدا عليه تأثر واضح بالموقف قاصدا الآمر بهدوء وبعد حوار معه جاء بنماذج الاجازات للجنود... يبدو ان الجنود وادعاءهم باخذ الرشاوى بقصة صحيحة فمن اين له ذهاب وأياب في الطائرة.. وهو يمن عليهم بالاجازة كانها من بيت أبيه وهي حق مشروع في العرف العسكري او على الاقل الجانب الانساني في الحياة...

هكذا تمر الأيام بكل قسوتها ولايمكن تفادي أخطارها فهو يعش في زاوية خانقة تتطلب قبول جحيم المعاناة على شكلها ولونها بدون اكراث لانه بلا قرار ولاسلطة وعلى الدوام يكرر مع نفسه موضوع العقد الاربعة التي تعيش معه بلا انتهاء .. بعد هذه الزوبعة المزعجة غادر الزبير ومنه الى البصرة يتطلع الى معالمها وفي مرآب البصرة اندفع جندي تظهر على سمرة وجهه علامات التعب....شفاه متيبسة وعيون غائرة ووجه مجعد كآنية من الفافون طال استخدامها ،،،يمشي الهوينا مادا يده كالمتسولين المحترفين يرتدي المثلث الاحمر يعني بحرس جمهوري ووصل الى ابرهيم طالباً (مبلغا من المال)) فسأله :

-كيف تتسول وانت ترتدي الزيتوني ؟

-لا املك مالاً للالتحاق .

-وهل طلبت من الاخرين؟

- نعم فقد جمعت مبلغاً يساعدني ؟

- بحنق ،هل انت جندي ام متسول؟

هرب راكضاً بين الناس الامر عجيب كم بات يستسهل ذلك الموضوع ... يالخيبتي يالخسارتي ايها الوطن ... جيش يذكر التاريخ صولات رجاله يتحول فجأة الى تدليس وضياع وخنوع ..وذل بائن في سيما الوجوه تزعزع كل شيء الدين ، الرجولة ،القيم والتقاليد.. تجول في البصرة مستذكرا السياب...

مطر- مطر -مطر

بالعشبة أنهمر ...

الماء في الجرار والغروب في الشجر...

كان يحمل كتاباً لأجمل قصائد السياب وراح سارحاً في كلماته التي تمجد العراق واهله..تعال ياسياب انظر مهازل الزمن ماذا فعل وماذا سيفعل ؟

ويعود الى الفوج بصور لاتقل ألما عما اخذ منها ويساله محمد:

- نراك في مزاج صعب .. ؟قليل الكلام الا تقل لنا مايجري لك؟

يبتسم – الحمدلله في اتم حال .. والخير كثير

(ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا)

اننا في محرقة العمر او طاحونة الايام غير المسجلة لدى احد

– لامانع من كل مايجري ، تتذكر سيدي عقيد ركن خالد شحمان ضابط الركن الذي زارك في العرضات؟

● – نعم أتذكر.

– لقد استدعى جميع ضباط الوجبة المجازين مع الآمر!

–لماذا ؟

– تبين ان حصته لم تصل!

– تقصد الحصة التموينية؟

– أنفجرضاحكاً – حتى احمر وجهه!

– لا حصه الاحتياط!

– ماذا ؟

– نعم لدينا سبعون جندياً من الاحتياط مواليد ١٩٦٤ يدفعون مبلغاً جزيه عن عدم الدوام خلال شهر الاحتياط وتوزع المبالغ على الضباط ذات العلاقة..!

– يا للفضيحة ....!

– نعم ولأن حصته لم تصل جاء غاضباً على الآمر

– الى هذه الدرجة وصلت أخلاقهم – سيسقط السقف على رؤسنا لان الضمائر قد اصبحت رماداً من ذنوب الفساد ...

يا لخيبتك يا ابراهيم!

يالبؤسك..!

يالشقائك..!

لن تقوم لنا قائمة

عم الصمت الى بضع دقائق ... لقد رايت هؤلاء الجنود وقد ابيضت رؤسهم ونزلت ثلوجها الى الاذقان وخارت قواهم وقدموا للوطن عمر الورد في معركة القادسية .. ألا يكفي تلك العذابات واستغلالهم ... لايمكنهم تحمل التعرض الى ذل الجيش الذي كان عزا في يوم ما .فيشتروا الكرامة بالاموال ...وراحت تمر الايام تترا ويصبح لابراهيم الخلص من الاصدقاء .. وفي الوقت ذاته زبونا معروفا لدى المنصة القريبة التي تبعد نصف كيلومتر عن المعسكر فعصر كل يوم يذهب هناك ... والمنصة هي رابية قد غشاها العشب مربعة الاطوال تطل على مساحة من الارض الجرداء تتناثر فوقها بقايا ملابس عسكرية وقطع من اقنعة الوقاية وأحذية عسكرية ممزقة تدل بشكل او بآخر انها كانت مخصصة للمظاهرات العسكرية وتحكي تأريخ زمن ولّى منذ عقدين او اكثر من الزمن ومن جهة الامام يرقي عليها سلم من الكونكريت عدد(٦)بايات نزولا الى الارض تجاورها اكوام السكراب من المعدات والاليات التي ظلت ذكرى عن حرب القادسية تلك المعركة الطاحنة التي حصدت الارواح من الشباب الذين كانوا يحلمون بالحياة

وجمالها كانوا مثلنا يضحكون ويبكون ويعشقون ويكتبون ولاباس ان يموتوا بمغامرة غير مدفوعة الثمن...كل يوم يجلس على السلم ويصحبته مفكرة الذكريات التي رافقته على مدار خدمته يكتب ما يجول بنفسه يدير نظره تلقاء سفوان ،الكويت... وفي حينٍ هو يسبح في هذا الملكوت وموج الاقدار والافكار تخرج قطة حمراء من اكوام السكراب تنظر اليه وهو يكتب وتبقى على مدة اقامته ثم تختفي...وتظهر وتختفي فقال لها..أيتها القطة هل تعرفين همومي ... بعدي ... وشوقي هل تملكين مثل اوجاعي أتحبين وتكرهين... هل محكوم عليك العيش بهذا المكان المخيف ...مكان فيه دعوة إلى الماضي والمآسي والموتى والعظام والدماء والقنابر والهاونات والطائرات -- نعم الموتى الذين غادروا الحياة وخلفوا هذه الانقاض لتكون مأوى لك ، لا ينافسك احد سوى هذا الوجع الذي يكنه صدري ويصفق بجناحيه كطائر ذبيح في العراء..يصيح خلفها اقتربي ... تصرخ بمواء متعب وتمد قدميها وتوسد راسها وتنظر بعينين ذابلتين بصفرة صافية.. كأنها ترد:

انا مثلك حزني ووحدتي وغربتي وعيشي أنا أخاف من الكلاب... أخاف الموت .. أنام واستيقظ تحت هذه الانقاض فهي رحمتي من الاخطار ... واتلصص الازبال خلف الساتر آخذ طعامي ثم اعود ... نادى خلفها وغادرت في ظلمات الحديد... اغلق سجله على صوت المؤذن (الله اكبر الله اكبر) لينشرالظلام سرباله بحاجبه الاسود.. نهض وصلى داعيا بعمق شديد سائلا الله ان يصلح الدين والدنيا...هذه الايام على شدة وطئتها ... وصعوبتها الا انه كان يشعر بعين قلبه انه بات قريبا من وجه السماء قريبا في الدعاء واكثر صلة واكثر صدقا واكثر طمأنينة وان الايام القادمة سيكون فيها فرج يليق بهذه الدموع الصافية التي يمطرها بخشية وأطمئنان ، وأغطش الظلام

عباءته السوداء ، حتى ساد الوجل الى قلبه– فانخرط في الظلام متسللا الى الثغور التي اضيئت لتطرد العتمة التي حولها ،بوقت كان قد وصل من صومعة عبادته الى القيل والقال ... فيسأله الزملاء .. أين تذهب كل يوم نحن نفتقدك عصر كل يوم فيجيب: لا شيء هنا قريب منكم لن اهرب من الخدمة يا اصدقاء... ضحكوا وذاب في كيانهم دون ان يشعرهم انه رافض متمرد في ذاته على ذلك الواقع المأساوي .

قرر مع زميله محمد ان يبدءا منهاجا لزيارة البصرة –البصرة القديمة– جيكور ومقبرة الزبير... وفي احد الايام الشتائية خرجا سوية بسيارة محمد الشخصية ، متوجهين الى سوق البصرة وتم تأجير كاميرا "فوتو" لرسم الذكريات التي تؤرخ للزمن ووصلا الى جيكور حيث حياة بدر شاكر السياب...انها منطقة زراعية وطرق ملتوية وقناطر وبويب ...ذلك الحلم والصحبة مع السياب ... وبعد اسئلة هنا وهناك وصلا داره ... البناء عند حافة الشارع المعبد ... وعند المدخل استقبلهم شخص كهل ذو لحيه كثة بيضاء... وبعد التحية افهماه انهما جاءا زائرين

– اهلا وسهلا بكم

دخلا الفناء ... وراح يتحدث لهم عن هذه الدار التي ضمت السياب وعائلته ابويه واعمامه وفي واحدة من الحجر وقف ذلك الرجل قائلا هنا ولد السياب هنا صرخ وتربى ، هنا كان ينام ، هنا كان يكتب ويقرأ.. ومشى الى الخارج هل ترون هذه الغرف المتقابلة كانوا جميعا يخرجون يتناولون وجبة العشاء سوية بهذه الباحة الوسطية... العم شاكر... وعبد الرزاق وبدر وعمه والعمة كريمة والعم مرزوق ،حتى ذرفت دموعه باكيا واخرج منديله

المرقع بالقدم ماسحا اثار دموعه ... مستدركا لم يبق أحد سوى ذكرياتهم وها انا ارمم الدار لاعادة اصلاحها من جديد ..وبقى يؤرخ لهم تاريخ العائلة وتوادعا على أمل اللقاء..وعادا الى معقل حياتهما في "الدريهمية" تحت سطوة الأوامر العسكرية والعقول التي فرغت بأحيان كثيرة من الشعور بالحياة وإنسانيتها بل لم يحسنوا حتى الألفاظ التي تطلقها ألسنتهم في الحديث مع الاخرين ...محمد ذلك الشاب الأسمر إعجابه يكبر ويشعر بان ابراهيم كرمز ما من الطراز الاول وبات يقتدى به ويستقي كثيراً من ارائه حتى انه اصلحه مع احد زملائه بخصام في العمل فقال:

- عرفت الكثير من الشمال والوسط والجنوب الا اني لم اجد مثلك خلقا

- وما عليكم في ذلك زيادة فانتم اهل الفضل لانكم تحسنون الظن بالآخرين

الأوضاع السياسية في العراق تبدو مرتبكة ... التهديد الأمريكي يتصاعد بغلظته والعناد العراقي والمكابرة تلعب دورا في إثارة مشاعر المجتمع بكافة أطيافه للوقوف بوجه الحملة الإعلامية الأمريكية واسعة النطاق ...العراق خرج للتو من معركة خاسرة غير محسوبة ،الدخول العسكري الى الكويت والتبعات التي خلفها صعبة وقاسية من حرب الى حرب الى حصار اقتصادي حصد الارواح والبنى التحتية....المطلب الامريكي واضح ومفاده بتنحي القيادة العراقية عن السلطة وعكس ذلك سيكون الثمن هو العراق بأسره ... كانت القيادة تراهن بأنموذج عسكري محطم نفسيا وعسكريا اذ ان المخاض صعب للغاية فلم تتمكن الوحدات العسكرية ان تعيد نفسها فهي تصارع الموقف خوفا ونفاقا في احيان كثيرة .. فالاليات قد خسرتها والارواح قد هلكت والمعنويات قد تحطمت ... فبأي شيء تقاتل بعد الانهيار وعلى

قول احد المنظرين (الميت انسان ناقص ولكن الانسان المهزوم هو الذي يعول عليه في بثت الرهب)) نعم هذا ماحصل.... امريكا تطالب الرئيس صدام حسين بالتنحي وهو يراهن بمعنويات منهارة ونفوس باتت تعاني المرض والحرمان ....

آمرفوج مش/٩ عقيد سرحان ماجد بظرف من التهديد الامريكي .. يطلب اجازة مرضية ويتوكل عنه مقدم باسم شجاع معاونا لامرة الفوج.. كان رجلا رقيقا انسانيا تقف الدموع في محاجر عينيه باحيان كثيرة ،كان عاطفيا يميل بشكل وآخر إلى الخضوع لتلك العاطفة – رجل يحب العلاقات العاطفية بل يعشق النساء حد الشروع بالبحث المستمر عنهن على الرغم من عمره ومسؤوليته فكثير ماكان يرتبط بتلك العلاقات وعند وصول الموضوع الى تفاصيل الزواج تجده يهرب لان زوجته كما كان يروي غيورة بافراط... فيبدأ ينظم قصائده على الورق-

باسم شجاع كان يحب ابراهيم واصبحت بينهما صداقة ود واحترام لا سيما انهما من عشاق الادب عكس ذلك الاسود آمر الفوج الذي تجد العقد في جبهته السوداء متظاهرا بالوطنية الزائفة... باسم يحب استغلال الجنود بدعوى الحاجة المادية ... وابراهيم يختلف عنه في هذا الموضوع و عصامي الا انه لابد ان يتماشى مع الظرف الراهن لانه المسؤول الان فتغيير المفاهيم صعبة للغاية..نقيب ابراهيم كانت تربطه علاقة صداقة حميمة مع وعد راضى الذي يمتلك روح النكتة والضحك بإفراط والكرم وهو من أهالي النجف الاشرف وهو ضابط إداري وقد دعاه الى وجبة عشاء في شارع الجزائر في مطعم الجزائر بالبصرة.. كانت الأضواء منيرة وصعدا الى الطابق العلوي ، تميز المكان بالروعة والجمال والتحفيات واسماك الزينة والطاولة

الخشبية الملونة والكراسي المريحة والاضوية المبالغ فيها حتى انك لتشعر بانك في عالم اخر مع موسيقى هادئة جدا ... ودار الحوار بينهما وقال وعد:

- انا احبك واحب ان تكون بجانبي وتساعدني واساعدك ...

- انا معك على طول اخوك وصديقك.

- اجدك متعباً وتفكر بعض الأحيان بعمق.

- تنفس الصعداء والله المكان وبعده والأشخاص وتصرفاتهم يشعراني بالغربة.

- كل الجيش هكذا فنحن صابرون ان شاء الله .. واعتقد لن تتكرر رجال الأمس بالأمانة والصدق والشجاعة فقد روى أخي ان هناك ملازم اول احمد من الانبار ومن القوات الخاصة كان اذا جاءت سيارة الثلج في القاطع الامامي للحرب وضع الجنود في الساتر وبدأ يقسم الثلج بكفه التي يبست من التدريب والقوة والفتوة وذات مرة قد احتاجوا ضابطا يعبر ارض الحرام ويأتي بعنصر من العدو يستفادون منه في المعلومات الاستخبارية فكان ذلك الضابط هو الفدائي الاول وقد ذهب وبعد نصف ساعة جاء بملازم ثان من القطعات الايرانية ورماه امام ضابط الاستخبارات في وقت كان القصف كثيفا جدا... وقد استشهدعندما تواجه الجمعان في السلاح الابيض وكان لايثني ضربة لأحد حتى قذف دماً من فمه... كان الجنود يلوذون به لشجاعته في المواقف الحرجة.. فجاءته اطلاقة في راسه فسقط على ركبتيه وقال الحمد لله رب العالمين ابراهيم يتأمل المشهد في وجه وعد وكيف يتفاعل مع الاحداث وشهامة هذا البطل الغيورويصيبه الاحباط ويكتفي

بالصمت دون تعليق ، هل الى هذا الحد نحب صانعي البطولات ونحن نركض خلف الذل والمهانة الى هذا الحد نشعر بالانفعال في باحة الدم الحمراء التي تسقي ظمأ الرمال..هنا نفقد الرجال ... وهناك نكتب عنهم .. واحيانا نبكي ولكن ياترى هل من دروس تنفع ضياعنا فتنقذنا من هذا المصاب... ترى هل كان ذلك الضابط له عيال وزوجة ... ودار وامنيات واحلام هل كان راغبا بالاستمرار مع اصحابه واهله ام مشتاقا الى الهجرة المبكرة للموت.. الفضاء يشعرهما بالاستياء- وعد كان يطمح ان يكون شبيها بهذا البطل... بعد برهة من الصمت اكد في نهاية حديثه ان الجنود والضباط قد بكوا جميعهم لفقده قائلين لم يبق احد نلوذ به .

آه... من احلام الصبا والشباب التي تنكسر كالعود اليابس فلا يجبرها طبيب او مداو... آه منها كيف تذهب مع الريح لتضيع في واد سحيق ...مسح ابراهيم عينيه بمنديله ثم شرب قليلا من الماء ... وبادر زميله بقوله مالي اراك على الدوام حزينا وتفكر..

- لا شيء اتعبني التفكير في المصير لانه مرتبط بالراعي ونحن القطيع اينما يسير نحن امامه او خلفه لافرق ..

- ماذا تقصد ؟

- اقصد كان في يوم الاستعراض لفصائل الكلية العسكرية قبل سنوات في الصباح كنت ابكي بلا تحفظ حين تبرق الحراب على الشمس امام المنصة مع نشيد(لاحت رؤوس الحراب)ولكن اليوم تغير كل شيء فانت تتحدث لي عن المطحنة التي اخذت في بركانها احب الناس ،طوفان احرق اليابس والاخضر من الطرفين ولكن لربما ذلك من اجل تثبيت الكراسي على

مكانها او الدفاع عن قضية مشروعة ،تغير كل شيء ...الزمان والمكان... ووجهة الريح ودهاء الغرب.

– الطريق الى فهمك صعب ولا اعرف ما تريد ياصديقي..

–لايهم ذلك انت تفهمني ولكن الاوجاع الكثيرة لاتدلك على مكان الالم. تناولا وجبة العشاء ونزلا الى سيارتهما وتوجها الى معقلهما اومعتقليّهما ،كان الصمت يطبق عليهما فقد كانت لحظات متأنية للتفكير والاسترخاء في متسع الضجر القاصم للشعور.

محمد هيأ عدداً من القصائد التي كتبها لسمر المساء سوية مع زميله وحال دخوله بدأ يلقي كلمته التي تقطر اوجاعا لتزيد من شحنات الالم التي تجري في العروق ..لم ينبس بكلمة وساد وقت من النظر المتبادل وانفجرا بضحك غريب ربما يكون مجهول المصدر فبادر ابراهيم هاربا من كل هذا سائلا:

–هل ستتزوج يا محمد

– الطريق مغلق وخسائري فادحة في عالم لا يفهمني ولاافهمه ولا يعرفني ولااعرفه ... عالم غليظ يقتل بلا حربه او سكين ولكن:

– أنت هل خضت تجربة غرام

– يبتسم وكيف يعيش الإنسان بلا حب فكل الأشياء التي ترغب ان تكون قريبة منك وتشاركك الحياة لابد ان تحبها .. غاية الاستمرار دون ملل ..

– وجنابك هل جربت الهوى

- والماثل امامك قد جرب مرة وانتهى ففي ظهيرة صيف حار كان في قريتنا عرسٌ لأحد اقربائنا وكنت مدعوا فيه وما ان دخلت فضاء بيتهم الكبير وعلى غير موعد واذا بفتاة جميلة جدا حسنها قمر المنتصف وعيناها السود ترمي سهامها ردت تحيتها على قدر حسنها الأخاذ ...ولكن المولود قد مات اول الطريق حين سافرت بعد عام خارج الحدود ... وبقيت انا وقلمي ورسائلي اكتب الى ان وافاها الاجل في سجل الذكريات ... يالتعاستي .... يالحزني.... مازلت افتش عنها كلما قلبت سجلات حياتي المتخمة بالعتاب... المكتضة بالوجع وختام قصتي قول الشاعر:

حسناء تمشي بين الحشائش والربا

اغرتني يوما فانتهيت مشـــردا

نهض محمد يصفق بيديه ويصيح

- (برافو)(برافو) لم اكن اتوقع انك قد مررت بهذه المأساة وحسبي الوحيد ولكن((حشر مع الناس عيد)).

(٥)

هموم امريكا وعلوجها تحقيق مصالحها باي مكان وباي ثمن لسيادة القطب الاوحد ولعل العراق احد الضحايا جراء غطرستها..الوطن قبل الروح لانه مقر راحتك ((ذلك اسمى ماكان يحمله ابراهيم سعدون بين خافقيه ، ولكن ماكان يؤلمه ان الوطن لدى الكثيرين مجرد سطور فوق ورق اومجرد كلمات يطلقها اللسان... بلا ادنى مسؤولية ...التهديد الامريكي وجحفلها غيم اسود يلوح في الافق... السماء تنذر بحرب قادمة والانذار يطرق الابواب... الاراء السياسية متضاربة ... والاعلام يبذر سموم البارود قبل ان تثور اطلاقة واحدة... وكل خائن يهيء نفسه للخيانة والهروب... وكل غيور يستعد للموت والتضحية بنفسه وماله...يقلب بالصفحات المرة على تردد الاخبار ذات الايقاع السريع تطرق اسماعه مع زملائه بانهم امام خيار اخير وهو الصدام والحرب واخرين يضحكون بهدوء انهم سيغادرون الى اهلهم حال نشوبها ... لا سيما ان ذويهم وبيوتهم قريبة اذ لاقبل لهم بالمواجهة... في الصباح ، ، تصل قصاصه (ورق صفراء فاقع لونها لاتسر الناظرين) من آمر الفوج العقيد سرحان ماجد الى المقدم باسم شجاع معاونه نصها(ارجو ارسال ثلثمائة الف دينار من نثرية الكتيبة ...)..رد المعاون بغضب شديد :

●(نعلت والديك)... الجو محروق وانت مازالت عيونك وراء النثرية

ومزق الورقة ورماها في سلة المهملات... مضى شهر من اجازته بشان العملية الجراحية وقد ظهر في التلفاز باجتماع الامراء في بغداد يعطي موقفا عن الفوج واستعداده بالجنود وآلاليات للمواجهة مع ان اكثر من نصفها عاطلة ((عجيب امور غريب قضية))؟؟

رن الهاتف ...

- الو... ضابط الركن... في الفرقة... ارسال آمر السرية الثانية مع موقف السرية الساعة الثامنة مساءاً ...

ولانه على مقربة مما يجري من احداث سياسية ساخنة وعسكرية بالوقت ذاته نظر المعاون بحيرة كبيرة .. قائلاً:

- ابراهيم تهيء نفسك مكان آمر السرية مع الموقف الخاص بها...

- ولكن لا معرفة لي بشيء عنها لاني اعمل منذ وقت طويل في التوجيه السياسي

- لادري رتب امورك مع مقدم فراس احمد آمر السرية الاولى الذي نقل للتو عنها ولديه معلومات كافية...

موقف صعب جدا... فهل يكذب كما فعل آمر الفوج ويعطي معلومات مزيفة لم يره وارتكابه ذنبا لايغتفر بحق الوطن وحق الجنود... وبادر سيدي هل بالامكان ان ترسل مقدم فراس وهو يعرف كل التفاصيل...

- لا ... لا يمكن لانه لديه سريته ، ويعرفونه حق المعرفة ولربما تتحركون في واجب سريع فهل يترك سريته ويعمل بالنيابة عنكم وماذا نقول للفرقة اذا اكتشفوا هذا ..غادر المكان وراح يجمع شتات السرية مواقف حول موجودها وتفاصيل ضباطها وآلياتها واسلحتها والاعتدة ودخل الى المشجب وحمل بندقية كلاشنكوف نصف اخمص روسي الصنع كانت مدامة حديثا وحدق بعمق الى فرضتها والشعيرة وسدد الى شاخص نصفي من

ورق(رسم لشخص نصفي يستعمل في التدريب) يمثل باتجاه راسه فبادر حرس المشجب:

- سيدي الى منّ تسدد

- ابتسم محدقا الى الشاخص طبعا وسر في نفسه "من يستحق ذلك هو آمر الفوج الذي ترك الفوج بهذا المأزق الصعب انها ريح الخيانة التي تزكم الانفس وتمتم مع نفسه بعض الكلمات المبهمة... الا انه يرى انه في موقف صعب للغاية فقائد الفرقة رجل احمق وربما يتعرض الى كلام لا يحتمل...الشمس آلت الى المغيب خلف التلال ... الارض جرداء والهدوء يعم المكان"الهدوء يسبق العاصفة"... الجميع في توجس وهم يجلسون امام شاشات التلفاز والاخبار التي تتابع لحظات الصراع الكبير بين قطب الارض والعراق ... توجه بعد ذلك في عجلة ((ايفا)) التي اشتغلت بهمة جنود السرية الذين دفعوها بايديهم ، وهو ينظر حجم المأساة في المواجهة...عند مقر الفوج اعطى خبرا الى مقدم باسم شجاع وامن الاتصال مع احد الضباط الكبار لاجراء اللقاء ومعرفة التفاصيل قبل مواجهة قائد الفرقة ... غادرالمكان قائلا :

●(الهي تعلم مافي نفسي ولا اعلم مافي نفسك اقر بضعفي واقر بقوتك وكرمك... اللهم اسألك ان تجنبني كل امر مالم اكن اهلا له ... وأسألك الفصل في امري هذا..ربنا لا تحملنا مالا طاقة لنا به .... انك على ماتشاء قدير)

كن سره ذلك دون ان يطلع عليه احد سوى الله... وصعد الى العجلة التي تنفث زفيرغازها الابيض الخانق الذي يوضح حجم التعب الذي مر عليها

خلال خدمتها...وصل المكان البديل مع السائق الذي كان يضحك ملء بطنه من سخرية الاقدار تبين فيما بعد ان الذي يضحكه عدم وجود اضوية في العجلة قائلا:

- سيدي الى اين طريقنا بهذا الليل الاظلم..؟

- الى المقر البديل للفرقة..

شاهدعدداً من العجلات الواقفة في الباب الخارجي والوجوه تملؤها الظنون والحذر والريبة ... اومأ عسكري مناديا:

- تفضلوا الى هنا ادخلوا الى الغرفة ، كانت صغيرة بسقف (جينكو) واثاث متواضع ويجلس فيها العميد الركن سلطان حميد نايف .. هذا ماقرأه على لوحة التعريف الخشبية التي وضعت امامه..رحب بهم وجلس الا انه لم يتسن له ان يحدثهم في شيء لان الاتصالات المتوالية على خمسة هواتف وضعت امامه.. توضح لك بشكل جلي حجم المسؤولية وحجم المشكلة القادمة التي سيتعرض لها العراق... وابراهيم ينتظر بشغف خبرا يريح نفسه من عملية التوريط وكرر الترحاب.. قائلا:

- اعذروني الموقف السياسي صعب والموقف العسكري اصعب .. وتناول الهاتف متصلا الى الفرقة.. ولكنه حال انهاء المكالمة بدا عليه الانزعاج وكانه تعرض لانتقاد لاذع او تقريع.. والتفت...اخواني يمكنكم المغادرة بعد شرب الشاي لقد أجل اللقاء قائد الفرقة الى وقت اخر فشعر ابراهيم بالارتياح .. وعاد الى مقر الفوج قائلا الحمد لله رب العالمين فاخبرهم بذلك الامر...

جميع الضباط يجلسون يترقبون امام التلفاز... الامر صعب .. امريكا اعطت سقفا زمنيا لقيادة العراق باتخاذ موقف يدل على نيتها للسلام بل وتسليم البلد باسره دون حرب مع ان الحرب وشيكة وعلى الابواب... بعض الجنود بدأوا بالفرار... التحضيرات العسكرية لسبل المواجهة ضعيفة...المعنويات تنهار شيئا فشيئا..بعد يومين صدرت الاوامر بانذار(ج) – ايقاف الاجازات وتوزيع المهام على الوحدات العسكرية ... لكن آمر الفوج ليس له خبرا يوحي بعودته ...الليلة صعبة ، الجو بارد مصبوغ بمغبر باللون الرصاصي الاوامر تصدر بحفر الخنادق وملئها بالنفط والكاز وايقادها ليرتفع الدخان الاسود مشوها جبين الشمس وزرقة السماء الهادئة املا في تضليل الرؤية على الطائرات المقاتلة التي تقصف القطاعات بعد اعلان ساعة الصفر...معاون امرالفوج مش /٩ يرسل الى ابراهيم وهو يجلس الى مكتبه الذي غطاه التراب قائلا:

– اخي العزيز اني اعتمد عليك والموقف حرج للغاية وها.. امريكا قد جاءت بشرارها الاصفر وقد انتخبوا سريتكم للحركة غدا الساعة الرابعة صباحا الى (الشعيبة) لأسناد وتنفيذ بعض الواجبات مع قائد الفرقة

– ولكن اين آمر السرية

– مجاز سياتي غدا او بعده ولربما لاياتي

– حسنا ان شاء الله سارسل الى ن ض حكيم عبد الزهرة يساعدكم في الحركة

وبعد غد مكلف مع مفرزة بواجب خاص عند الحدود الكويتية ... كان حكيم في منتصف العقد الرابع ولكنه قد اتقن الاستجابة للاوامر العسكرية ومهنة الحرب لا سيما ان له تاريخ في هذا المضمار...يبادر ابراهيم:

- ولكنه الرجل الوحيد الذي بالامكان الاعتماد عليه

- حسنا يكون معك حتى تصل السرية في مكانها ويتم سحبه بعد ذلك وابداله بشخص اخر يرافقك في المهام

- ولكن لا توجد بطارية تشغيل في عجلة السرية

- ابتسم... وكيف ستقاتلون امريكا

"اخطأ من ظن ان الريح الصفراء ينبت خلفها الربيع ، بدون ادنى شك لاتترك الا خريفا شحيحا وخرابا ابديا"

- ضاحكا بسخرية أسال سرحان ماجد...

تناول الجهاز اللاسلكي الراكال متصلا اليه وبضع دقائق وجاء بكل قوته يهز الارض من قرع اقدامه واصراره مؤديا تحيته العسكرية .. قائلا:

●نعم سيدي ماذا تريد؟.

- تاخذ عجلة السيارة ((سكانيا)) الخاصة بالسرية الاولى حسب توجيهات معاون آمرالفوج وتنظم عفش سريتكم مع الاسلحة وحسب هذه القائمة هذه

- حاضر - تأمر امر سيدي - كما تريد

– وعليك ان لا تفاجئ الجنود لان بعضهم ربما يترك المعسكر خوفا .. وطمئنهم ان الموقف سهل ان شاء الله

– باذن الله ... وبلهجة الجنوب(آنه والجنود فدوة للوطن....)

ابراهيم لم يتمكن من الاستراحة والهدوء فعقب صلاة العشاء خرج بنفسه الى مجريات الامور كانت الليلة قاتمة باردة – نحسة توحي بان القادم سيكون صعبا.

ولكن اوحى من خلال ملامحه وتصرفاته ومزاحه مع الجنود ان الوضع العام مستقر وطبيعي واننا لسنا متوجهين الى حرب بل الى واجب نقضي به يوم او يومين..

وقف في جنح الظلام على مقربة منهم وهم يضعون امتعتهم مستمعا اليهم وهم يتكلمون...

– الحرب غدا واقعة لا محال وستموتون جميعا...الحرب تقودها امريكا ... ولا قبل لنا بها...

نحن حطب النار وصراع الرؤساء ،الافضل نهرب في المساء يبادر احدهم بمزاح

- كلنا فدا ماعدا سامر الذي جهز نفسه للزواج ماذا سيفعل؟

الآخر

– يقدم اعتذاراً رسمياً للخطيبة

ويتفجر الجميع بالضحك...

يبادر نقيب ابراهيم

●عيب على الرجال تهرب من ساحة الحرب ياشباب فيصمت الجميع دون ادنى كلام ..
يصرخ ن ض حكيم ..

●اقطعوا الكلام غدا النهوض مبكراً

.....

بعد انتهاء المهمة دخل ابراهيم اليهم وسلم عليهم مرة اخرى وتكلم معهم وافادهم ببعض المعلومات المشجعة .. كان عددهم يتجاوز الخمسين... واوصاهم بالثبات لان التاريخ لا يرحم احدا ابدا..عاد الى غرفته التي تنيرها الاضواء البديلة الضئيلة بعد انطفاء التيار الكهربائي للتو ... وابدل ملابسه وامتد فوق السرير الحديدي ولكنه هذا اليوم لم يتمكن من ان يقرا شيئا بسبب الاضاءة اولا ولمزاجه المتعب ثانيا...العواصف يتحرك ساكنها بخطوات جنونية... انها رملية ضجرة تجتاح المعسكر ، يضطر للخروج امام الغرفة ومن اشراقة الضياء الخافت راى محمدا متاملا:

- ها محمد انت هنا؟

- نعم هنا العصف يحزنني

- انا كذلك وكأن هنا شياً سيحدث

- توكل على الله... سأذهب للنوم لانه لدي واجب في غد

محمد ليس كعادته فهو مكتئبا الى حد ما ولكن عواطفه ومشاريعه في الزواج كانت على الدوام تنتهي الى الفشل وهي جزء من معاناته الكبرى .....

اغلق الباب متاملا العواصف المخيفة الثقيلة في وطأتها – تلك الاصوات الصافرة من جحور الغرف وثقوبها التي فتقتها القوارض التي اعتادت ان تتغرب وتعاني بؤس المكان وشقاوة الريح الصارخة دافعة الابواب والشبابيك التي لاتغلق الا باثقال من حديد ،الصرير يتواصل دون الهدوء والسكون ،عيناه تابى النوم وبين الحين والاخر يتسلل يتابع غضبة الريح ...نزل في ذاكرته الاسفنجية الشاعر محمود سامي البارودي يوم منفاه :

شفني وجدي وابلاني الشهر

وتغشتني سمادير الكدر

فسواد الليل ما ان ينقضي

وبياض الصبح ما ان ينتظر

بين حيطان وباب موصد

كلما حركه السجان صر

كان محقاً البارودي ان يسطر اوجاعه فوق الورق وان يحرق مساحاتها بالحنين الاسود ،وان لايرحم الفراغات بين السطور بل يسقيها من وجده بالدموع....اناديك يامحمود من هنا السجان عندي غائب والريح والظلمة الحمقاء تصارع افكاري الازلية ...انا ضائع مازلت ابحث عن نفسي .. عن

ذاتي .. ربما ... ربما ...تصفق الريح بجناحيها تصدر صوتا يهزمنا... فمازلنا في حلم الطفولة الاول او حلم الشباب المهاجر او نجد الوطن الضائع بين دفات الحروب ...الريح والتراب يبعثر كل الاشياء في الخارج... حديد ... بلاستك ... سقوف الغرف ... البراميل ... كل شيء يتحول الى اشباح ... تلول تراب كالقبور اصوات جنٍ تجتاح المكان ... الريح تطارد البنايات البائسة .. الظلمة تجر ابراهيم الى تلك الايام الخوالي التي كان فيها اول عمر الشباب والقوة في مأمن حياته ... اهله ... اطفاله ... اصدقاؤه ... بقايا اوراقه المتناثرة في سجلات مكتبته ... كل شيء تغير المكان .. الزمان والاصدقاء الارض .. السماء ... العواصف والرمال المتحركة كموج البحار ... الغرفة المتواضعة .. الماء .. واشياء اخرى اشد وقعا وضراوة ...جمع كل التناقضات في هذه الاثناء لكنه لم يتمكن ان يصل الى الحلول..تغمض جفناه من السهر .. مرغمة وتودع تحتها حكايات الحب والغزل... حكايات الالم المر ... حكايات الاخطاء.. وبساطة التفكير... المصير المجهول وعند اول الفجر يسمع اصوات التكبير وزخات المطر النازلة بشدة من السماء... والخرير الذي يقطر بين الالواح والحديد داخل غرفته وتحديدا فوق جسده حتى ابتل جنبه الايمن... فاضطر الى التحول الى مساحة اخرى ولكن يبدو ان الخير قد عم اجزاء غرفته لقد كانت الامطار عقب كل ذلك العصف اشارة الى شيء ما للاطمئنان ولكن الرمال الظمئة قد شربت الماء النازل بسرعة ....نهض الى الوضوء والصلاة والدعاء بالفرج ... واذا بحكيم سائرا ويشد حزامه وبيريته ذات النسرالاسود منتصبا كالتمثال الشامخ مع الجنود عند السيارة ...لم يمض وقت طويل وقد خرج ... صباح الخير... كيف احوالكم... ان شاء الله بخير

- حكيم يرد السلام

- سيدي لم يبق سوى خمسة عشر جنديا

- اين ذهبوا

- يبدو انهم هربوا

- يصمت- يحدث ضميره- يالخيبتنا... يالهزيمتنا .... يالتذمرنا....

- حسنا اصعدوا

توجه بهم مبكرا الى (الشعيبة) وكثيرا ماكان يسمع عنها من ابيه واخوته لكنه لم يرها ..((سكراب الشعيبة)) تلك تسمية شائعة في العراق...وصل الجمع عند اول الفجر... وقد خطب بهم ببعض كلمات شاحذا هممهم:

●ان هذا اليوم سيبقى تاريخاً يكتب لنا ولكم ... وهؤلاء الذين تركونا غياب عن الواجب... غياب عن التاريخ وعن الموقف... غياب عن الدين...فهذا اليوم يختلف عن غيره لان امريكا هي القادمة ... ستحرق الاخضر بسعر اليابس وتحيله ركاما اسود... فالانسان يعيش لمرة واحدة (فأما حياة تسر الصديق واما ممات يغيض العدا).. انها الحرب يا اخوتي فاما ان نموت معا او نحيا وانا اخوكم ولست بافضل منكم ... ونسأل الله النصر على اعدائنا ... وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم...والان توجهوا الى حفر ملاجئكم... وكما ترون هي محفورة وجاهزة مجرد ترميمها وتنظيفها وتغطيتها وغشها لكي لا تستمكن من قبل الاعداء اثناء هجوم الطيران .....انها ارض رقد تحت تربتها الكثير وجرح الكثير .... كان يشزر بنظره الى تلك الارض الفسيحة يستجلب دفاتر ذكريات لم تمر بباله سابقا ولكن احتفظ بها دون ان يطلع احدا عليها ...بدا العمل بعد

توزيعهم لاجراء عملية الترميم لتلك الملاجئ التي كانت في يوم ما لابائهم واجدادهم في الحرب العراقية الايرانية...ها قد عادوا للمسيرة نفسها...لك الله يا عراق الحروب ابراهيم اختار لنفسه ملجئا كبيرا يسع جثتين هامدتين كما زعم لجنوده ووضع الشيلمان فوقه والحديد.. وبعد عمل متواصل في تلك الارض التي اشرأب الملح في اعلاها بنداوتها وطراوتها وطينها (الحريَ) كما يقولون او (النزيزة) انجزت المهمة وتم غشها بشكل كامل وغير معيب من الناحية العسكرية.

تصلح هذه الارض ان تضم عظام العدد الضئيل المتبقي من السرية الثانية التي جاءت لاسناد الفرقة ... عدد قليل جدا... تختفي خلفه مسؤوليات جمة... فمن المسؤول عن ذلك؟ ...آمر الفوج الذي لم يعد من اجازته المزعومة... ام معاونه ام مساعده ام بقية الضباط الموزعون في واجبات بالوحدات الاخرى...؟

معاون امرالفوج /٩ ياتي بعد الظهر على وجبة الغداء الخاصة بالجنود يناشدهم بالثبات على الرغم من علمه ان العدد الاكبر قد غادر ساحة الحرب المرتقبة منذ المساء ... الحزن... الخوف... واضح على وجهه يحاول ان يخفيه ولكن ابراهيم يقرأ ماخلف كواليسه السمراء .لقد تعاطف ابراهيم مع معيته وعاهدوه على عدم مغادرة المكان مطلقا... كانت وجبتهم تمناً مع المرق الاحمر الذي قلما يأكلونه مع صمون الجيش المدور اليابس الذي يحتاج لاسنان حديدية لتقطيعه ...اليوم الاخير من التهديد الامريكي... بعد الظهر يصل الرائد اكرم جراح احد ابناء محافظة ميسان الذي امتاز بالخشونة وسمارة الوجه الداكنة والشجاعة وعدم الاكتراث لصعوبة المواقف مهما كان ..

جاء آمرا وقتيا للسرية الثانية...بدأ (اكرم- ابراهيم) رحلة الترتيب ليوم غد الهجوم الامريكي...

امريكا التي استوى لديها الصالح والطالح .... الاسود والابيض هموم امريكا وجحفلها تحقيق مصالحها باي مكان وباي ثمن لسيادة القطب الاوحد ولعل العراق احد الضحايا جراء غطرستها..

(٦)

المعركة غير متكافئة .. امريكا وحلفاؤها تصهر الحديد على الجلود لتصنع مجدا موهوما كفةالميزان منحنية .. ياخسارة ارضك ياوطن تطؤها اقدام الغزاة والسم نشربه قسرا ...الحب والوفاء للوطن لايكون كافيا لتحقيق النصرابراهيم يتسلل عصرا الى احد الاقرباء والمعارف في البصره يودع كل اشيائه ويكتب وصيته الاخيرة الى ابيه واهله ... وقف في حيرته .. ترى ماذا يكتب ولربما ازف الرحيل ... نهاية المطاف قد أمسك بالقلم كاتبا تحياته وسلاماته واشواقه التي لاتحملها صدور المحبين ولاتقوى ان تنقلها الريح ... ذاكرا كل احبته واخوته واصدقائه ...ولعل اعظم عبرة قد وقفت لديه حين تصور أمه ذلك القلب الكسير والعيون الدامعة وهي تحمل عكازها وتودعه مع والده ... ترى ماذا يقول لها واي مفردات ممكن ان تنعشها فتوفي بذلك الموقف ... لقد كتب لها مايكنه صدره حتى دمعت عيناه فوق الورق ... معتذرا انه قد وصل الى المحطة التي قد لايعود منها ولم يتمكن من ان يبرها كما فرض الله..زوجته واطفاله الاربعة – ترى ماذا يقول واي شيء يكتب ..؟لقد اوصى بهما عند والديه بالرعاية فلا غيرهما يحن لدمعهم او طلباتهم ...الوقت قصير والعبارات كثر والاحزان تتوالى وامريكا تجر قواتها عند خط الشروع... يالحزني ... يالتعاستي ... هل سيبتلع هؤلاء البلاد هل سيذلون العباد ...؟

سلم الورقة الى العم خضير .. فامتنع ان يمسكها ... قائلا :

– أأحمل موتك لاسلمه الى ابيك ...أأحمل بقاياك وانثرها دما ونارا فوق عائلتك؟

أاحمل رحيلك الى المنفى البعيد واخبرهم به؟...لا ياولدي ...ارجوك .... ارجوك ... ذلك صعب علي جدايطأطيء راسه وتنفجر عيونه بالدموع ... العم خضير يصمت وتنتشر دموعه اسرابها فوق لحيته الكثة البيضاء ...ثم يستعيد قوته ياعم خضير – خذ لاتخف ان الله موجود فخذ وصيتي هذه وسلملي على الجميع ... وان شاء الله عائدون ... عائدون .اخذ الورقة وكفه يرتجف خوفا فلعل ذلك اخر بريد بل آخر نهاية يودع بها بسمة هذا الفتى لينقلها دمعا واسى وذكريات....قدم الطعام اكل قليلا من السمكة التي سقفت على الطريقة البصرية وشرب الشاي ونهض بملابس وعدة الحرب ..طالبا ايصاله الى وحدته فبادره :

– ألا تقضي هذا المساء عندنا وفي الصباح ساذهب بك مبكرا..؟

– لا ابدا لابد من الذهاب الان

اعد الحاج خضير نفسه وسيارته القديمة لايصاله ... خطاه مثقلة وهموم تجرح ببقايا جسده الخاوي وقسمات الوجه المجعدة ونظره القريب ويده المرتجفة وفي الطريق الى الزبيرتحدث قائلا:

– ياابن اخي انت لافرق بينك وبين اولادي شيئا واني اخاف عليك لقد حملتني مالا اطيق واشربتني شرابا مر المذاق ، ولعل هذه الورقة ماهي الا سيفاً فوق رقبتي ولكن اسأل الله وبحق رسوله وآل بيته واصحابه ان يحفظك ويخرجني من محنتي بكل هدوء:

- ياعم توكل على الله واخرج من هذه الدائرة المغلقة ودع الامور تسير ولاتكثر حساباتك وخوفك فالمكتوب على الجبين تراه العين لامحال كما يقولون... والحياة والموت بيده سبحانه وهو على كل شيء قدير ..

وصلا هناك في ارض ليس فيها نور يدل على وجود بشر يسكن هنا ..عمي توقف هنا وصلت

- لاشيء هنا

- انا اعرف المكان منذ الصباح قد اختبرته جيدا

- حسنا

تصافحا في السيارة ونزل (ابراهيم) تحفه راحة حين وضع وصيته في مكانها لتبليغ اهله اذا ارتمت به مقادير الهلاك الى الاخرة ومشى وكف الظلام يلاحق خطاه من كل جانب في ارض القبور التي صاح منها صوت من انت ..؟

- نقيب ابراهيم ... ابراهيم

- اهلا وسهلا سيدي

وعلى حافة ملجئه يقف ويندفع اليه ن ض حكم

- سيدي اهلا وسهلا بك الجنود الـ(١٥) كلهم موجودون مع الرائد اكرم جراح

- اهلا وسهلا بك عساكم بحفظ الله ورعايته

نزل عند مدخل الملجأ منحدرا الى الاسفل .. يشبه القبر الى حد ما في كل تفاصيله

– فيرد رائد اكرم – يامرحبا – يامرحبا – شرفت المكان – ادخل – ادخل – هذا جناح سكن (سويت) فيه جميع الخدمات واطلق تحيته بابتسامة اختفت في النور الخافت الذي وضع في احد زوايا الملجأ .. جلس على سريره الحديدي مقابلا لسرير اكرم جراح ...كان المكان ضيقاً مليئاً بالاغراض لكليهما .. بنادق عدد اثنين مع مخازن ،اعتدة وجعب .. طبلة حديد يتربع فوقها قدح ماء حقائب شخصية فيها ملابسهما وسجلاتهما تعود للسرية مع سلاح امر السرية الغائب والمنقول قبل عدة اشهر..

لم يكن يرغب ان يخلع حذاءه العسكري فبين الحين والاخر يخرج يتابع الحراسات ويغازل السماء التي تلجلج في نجوم متحركة ... في الحقيقة هي طائرات رصد قد اطلقت لمتابعة الموقف العسكري على الارض .. طائرات امريكية ومتحالفة معها ...

اكرم يبتسم ..

●اعتقد ان الحرب ستكون خاسرة لاننا غير مستعدين للمواجهة لامكاناتنا البسيطة وموقف الدول العربية التي تخشى على نفسها من الدمار وكما ترى قد منحت الارض لاعدائنا ... ولكن فلرب مغلوب هوى ثم ارتقى كريم يضع في كفه الايمن مذياعه الاحمر يقلب به لسماع اخر الاخبار ...

الوقت يسير نحو الانتهاء لبضع ساعات وصدام حسين على عناده .. يرفض التخلي عن السلطه في العراق..الرئيس الامريكي قد جهز جيشه الجرار من اتجاه ام قصر للدخول الى البصرة.. الطائرات تستعد في الساعة الرابعة للهجوم العسكري..الساعة الرابعة من صباح هذا اليوم ستعلن الحرب على العراق برا وبحرا وجوا ...تذكر حديثا لرجل ستيني قبل عام من هذا التاريخ مفاده :ان امريكا ستغزو العراق وتسقطه بشرعية دولية او بلا شرعية لانها الخصم والحكم والعالم باسرة في كفها ،فليس المهمة امامهم ازاحة صدام بل الطمع في النفط لتامين مستقبل امريكا السياسي والاقتصادي والعسكري وستبث الرعب وتفكك النسيج الاجتماعي وتثبط الهمم وتقوض الاخلاق وبالوقت نفسه هي تخاف على مستقبل امريكا وان اسكات دولة مثل العراق هدف لانه جمجمة العرب ولابد ان تحطمه بكل الطرق وكافة الوسائل... فاذا اخطأ صدام في احتلال الكويت التي هي جزء من العراق وانه كفر بقبلة الشرعية الدولية كما يزعمون فهي ستكفر بقوانين الارض والسماء...وستملأ الارض ارهابا وقتلا باسم القانون الدولي والامم المتحدة فكل من يعترض طريقها يعد ارهابيا وتطبق بحقه كل القوانين والاعراف الدولية ويصبح منتهكا لحقوق الانسان..انها حرب صليبية وحرب على الاسلام كما قالها بوش... وستثبت الايام صدق ماقول...

- ماذا بوسعنا ان نعمل ياصديقي والحرب في الابواب ....؟

- نستعد لها ولو كلفتنا انفسنا

- وانا كذلك ياابن ميسان الغيور

خلع ابراهيم حذاءه ليريح قدميه وامتد على ظهره لبعض الوقت ولكن تشويش تردد الموجات الصوتيه لمذياع اكرم لم يسمح له بالنوم فبين الحين والاخر تاتي التصريحات والتراشق بها بين العراق وامريكا وبريطانيا وفرنسا ...لاشك اننا نلوذ بادعية صوفية زاهدة لاسيما ان اي شخص قبل الموت يكون صادقا امينا الى حدّ كبير وتكون نابعة من القلب متوجهين بها الى البارئ عز وجل لرفع الغمة عن هذه الامة ... مستذكرين دعاء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في بدر (اللهم ان تهلك هذه العصابة فأنك لا تعبد في الارض ابدا) ...خرج الاثنان بعد منتصف الليل الثقيل في تفقد الجنود بدا كل شيء على مايرام ... وعادا الى الملجأ الترابي الذي ينث ذرات الرمال فوقهما بين الحين والاخر ..ابراهيم اصطحب علاجه معه عند العودة من البصرة لحاجته الماسة اليه ..الصمت يطبق على المكان .. انها قبور متناثره هنا وهناك يسكنها بشر احياء ... انها مقبرة الاحياء وتساق الى جحيم الحرب ...اسراب البعوض تستحل المكان وطنينها وهجومها على اجساد الساكنين يوضح بلاشك تأريخ المكان وعدم صلاحيته ... حتى لتجد ماء الملح يدفع نفسه برطوبة لزجة في المكان والرائحة المنبعثة منه تزكم الانف بل هي اللحن لأسراب البعوض وهي تمارس عملياتها الهمجية بارهاب وعنف بشكل لايختلف تماما عن ذلك الجحفل القادم من اقصى الارض الى هنا بعد سويعات قلائل ...رائحة الاجساد اندمجت تماما مع رائحة الملح المنبعثة من الارض ... الاحلام تتسرب من مواقعها الى المجهول .. الطفولة الجميلة وبراءتها .. الشباب الذي سار مبكرا يدفن في المملحة الآن ...شواطئ العمر وزهر الربيع يحترقان على نار هادئه ليس لاحد خبر بذلك ... لقد استذكر ابراهيم المرحوم الشهيد م اول ابراهيم حسن ناصروهو يصف كل ذلك في روايته الوحيدة شواطئ الملح شواطئ الدم قبل عقد

ونصف من الزمن ..ياله من رجل يتحسس الالام ببصيرة اخرى تختلف عما يراها بنو البشر...

لافرق بيننا وبينه وبين احلامه التي سكتت مبكرا .... ها نحن بعد ثمانية عشر عاما نكرر اوجاعه ونستنسخها ها .. يابراهيم .. هل تعرفه كيف غادر الحياة زميلك وترك ارثا من الوجع الذي يقطر دما ..؟

يقلب جسده ناظرا الى الخاكي المرقط بالاوساخ والتراب الذي يرتديه اكرم الذي يتحدث عن اطفاله وزوجته وعائلته واصدقائه .. اللحظات تمر مسرعة وثقيلة في وطن اثقلته الحروب فمازال الوقت قريبا بيننا وبين حرب الخليج التي اخذت منا مااخذت ...امريكا اللعينة تأخذنا باسم الامم المتحده والقانون الدولي والارهاب ... وكأنها الوصية على الارض من نصبها لذلك لاادري ..؟ استل سجله الاسود ... يكتب لحظاته المرة التي تخنقها المشاعر الوجدانية باحكام فلا تخرج الا وهي تقطر أساها دما نازفا موجعاً..

اكرم يلتفت اليه قائلاً :

- ألا يمل قلمك من الكتابة؟ .. ماذا تريد من كل هذا؟

- لاشيء سوى الذكريات- الذكريات فقط لاغير فربما ستسير بنا القافلة الى النهاية فيبقى خلفنا مايؤرخ حياتنا ويمتع غيرنا في القراءه فالكلمة والتاريخ لدي اغلى من الذهب ...

- ياصديقي لربما تقبر هذه الكلمات معك هنا فلا يطلع عليها احد

- ولربما تبقى انت حيا وتأخذها فتقرأها او توصلها الى من بعدنا

– تموت ياصديقي وارثك لي ... كم جميل ان تورثني كلماتك لاحتفظ بها ولكنك تؤذيني كثيرا .. فانا احبك كثيرا كثيرا ...

– الاحبة يجتمعون على مائدة الحب ان توافقت افكارهم وصفاتهم ولكنهم يتفرقون مرغمين باحيان كثيرة ومن دواعي ذلك ... الموت ايها الحبيب..

صمت اكرم مستنجدا ببقايا صبره ... وواضعا مذياعه على اذنه اليسرى متجاهلا ماقاله زميله ولكن قطرات من دمعه الصافي قد وقفت كبركة في محاجر عينيه ...

- يالتعاسة ... وماذا يقول الجنود الان ... هل هم كذلك يطردهم الحزن؟ ...
- لايحزنني ان نموت فالعراق يرخص له كل شيء ..

– ولكن الخوض في معركة خاسرة ومعروفة سلفا صعب للغاية ،الساعه الثانية بعد منتصف الليل .. الساعة الرابعة اعلان بدء الهجوم وهمّ اكرم يربط احزمته وخوذته ويخرج الى الجنود... ثم يعود بسرعة ..

مازال بيننا وبين الهجوم ساعتان .. فلا نعرف هل سيبدأ القصف الجوي التمهيدي ثم الهجوم البري واسع النطاق

– لا سيكون الهجوم مواكباً مع الانزالات الجوية وقطع الطرق وضرب البنى التحتية ..

– لاتحزن ان الله معنا ...

سكون يعم البصرة باجمعها – ظلام دامس – اطفاء الكهرباء في محافظات العراق وبدء اشعال شقوق النفط والكازوايل كجزء من عملية تشويش الرؤيا "اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمد رسول الله ... عليها نحيا وعليها نموت اللهم قد جاءت امريكا بشرها وانت ارحم الراحمين"هذا ماردده ابراهيم بهدوء... لم يبق سوى نصف ساعة والفضاء مشحون بالتصريحات السياسية والاعلامية والنفاق والثرثرة وبات العرب عبر قنواتهم واذاعاتهم ببغاء للغرب ...لقد احسنت امريكا ومن معها في ادارة حرب الاعلام بكل وسائله بقصف عقول الجماهير باكملها عبر المحطات المنتشره في اصقاع الارض ...العراق يستعد لحرب كبرى وتم تطويع كل قطاعاته للمواجهة والرهان ولكن ...اكرم مازال يتابع الاخبار هنا وهناك ... اذاعة رويترز(الساعة الرابعه وصدام حسين على عناده ... الرئيس الامريكي يعلن بدء الهجوم البري والجوي والبحري على العراق)

نهضا متوجهين الى الجنود ... وعلى مواضعهم وبحركات سريعة ...

– الهجوم قد بدأ للتو استعدوا لاوقت لدينا بدأ الزحف الامريكي ... علما انكم جزء كبير من الجيش العراقي بهذه الارض ،وحمل الجميع اسلحتهم.. ودخلا الموضع – وهم يترقبون بحذر وبدأت اصوات الصواريخ المرعبة تنزل بقوة على الارض التي طالما عانقت هذا الرعد والصقيع الاصطناعي على مدى اعوام طوال ... المواضع تحث رمالها بعد كل ضربة واخرى على الاجساد انها واهنة وبالامكان ان ترتمي بحديدها على ساكنيها ...انه قصف جوي متتابع ... المقاومة الارضية للجو تطلق جمراتها الحمراء ولكنها تعود خائبة ولكن المسافات شاسعة لايمكن ان تبلغ اهدافها ...

التدمير كما تنقل الاخبار عام شامل بغداد – بصرة – ناصرية – عمارة – ديالى – صلاح الدين – الانبار ووو.....كل ارض الوطن الاذاعات العربية والعراقية نقلت في باديء الهجوم بطولات الجيش العراقي في التصدي للعدو وتكبيده خسائر جسيمة لاسيما انه قد خاض معارك ضروس قد خرج منها منتصرا ..

(الاف القنابل تنهال على بغداد) – كيف تهان العروسة في ليلة زفافها كيف تخرب بناياتها وطرقها ... ابو نؤاس – الكرادة – الكاظمية– الخلاني– شارع الرشيد – الكاظمية بغداد الجديدة ..

نعم هكذا تبث الاخبار وتصدق النواظير – آلاف القنابل والصواريخ نازلة من سجيل امريكا – انها حقوق الانسان كما تدعي تنال من النائمين في بيوتهم الامنة الاطفال – النساء – الشيوخ – الموظفين – البنايات – المصارف – المدارس كل شيء مباح في قانون امريكا ...انفلق الفجر والمساجد تكبر الله اكبر – ولكن ارادة الله قد حقت برضاه ولاراد لاحد من قضائه .

ادى صلاته وهو يرتعد خشوعا اللهم قد جاؤوا وهم لايعجزونك...كان الرمل والتراب ورائحة الملح تملأ جسده الاسمر وشعره المغبر اشرقت الشمس وجاءت عجلة الارزاق (ايفا) اوصلت الصمون ولكنها لو اطفئ محركها فهيهات ان تشتغل تارة اخرى لان البطارية قديمة والمحرك بآخر عمره...واهل الضمائرالمباعة يعطون مواقف كاذبة ... خوفا احيانا وتبجحا امام القادة..

الصمون الذي وصل كارزاق للجنود يابسا وقديما ..

اشرقت الشمس والجميع مهيؤون للمواجهة ...اي مواجهة ونحن في زمن حرب النجوم ... يالهي آلة الحرب الجديدة في السماء ونحن نحمل سلاح (كلاشنكوف عيار ٦٢/٧ ملم)أي مقارنة هذه (تظالمنا فيما بيننا وضاع الحق فحجب الله اجابة الدعاء)

الساعة التاسعة صباحا والاخبار تصل من اخواننا ان الحرب طاحنة بين الجيش العراقي والقوات الامريكية الداخلة من ام قصر جيش يختبىء بدباباته في الارض ...ترى هل يستمر الصمود ثم النصر ..

الساعة التاسعة وعشرة دقائق صباحا يصل مقدم ربيع لفته – آمر السرية الثانية ليحل مكان الرائد اكرم جراح .. ثم التعارف عند باب الملجأ ،مرتديا الزيتوني وفي التعبئة العسكرية يتوجب عليه ارتداء الخاكي الصحراوي ليتماشى مع طبيعة المنطقة ... ابدل ملابسه ولكن عليه علامات من الهلع والخوف والريبة والانكسار والذل تبادلا اطراف الحديث وبدا عليه عدم الانسجام مع زميليه ...

وفي حين هو جالس على حافة الملجأ والا بصوت المدفعية الثقلية ترتعد من الارض الى السماء .. فقفز من مكانه خائفا حتى ان يديه ارتفعت عن ابطيه .. يبتسم رائد اكرم وينظر بسخرية الى ابراهيم ..

– اثبت سيدي مابك ..؟

– لاشيء ....وبدا على قسمات وجهه علامات خجل وبؤس وهزيمة

وبهذا الموقف طلب اليه تناول وجبة الفطور ولكنه رفض قائلا :

- لااعرف كيف لكم ان تتذوقوا الطعام وتشربون الشاي ..

- وهل نموت جوعا لاننا في ساحة حرب ((الجيوش تزحف على بطونها))

****

لم تصل ارزاق بعد ذلك او أي مسؤول يتابع الموضوع في ادارة التواصل ..وفي غضون ساعة وصلت دراجة هوائية وعليها معتمد البريد طالبا ن ض حكيم عبد الزهرة للالتحاق الى واجبه باتجاه الكويت وناداه نقيب ابراهيم بعد ان شرح الموضوع لآمر السرية .. وصل اليه راكضا وهو يحمل سلاحه

- نعم سيدي ماتريد؟

- طلبوك الى واجبك الخاص

- نعم سيدي اسلم سلاحي الى المشجب واحمل عدتي ..

- وهو كذلك

بعد وقت قصير جاء مودعاً الضباط بحرارة ظاناً انه لاملتقى بعد اليوم قائلا : استودعكم الله واعذروني وابروا ذمتي معكم فلربما لن اعود ..

الدموع تنزل بهدوء فوق سمار وجهه ولكنه يتحدث بكل كبرياء ان العراق باعناقنا ولانحيد ابداً ..

بصمت يستذكر ابراهيم كيف كان يلقي حكيم قصائده في الاحتفالات الوطنية التي كان ينظمها وكيف كان ذا همة وحب لوطنه بل وشجاعة ولعل هذه اللحظات الحاسمة هي التي تثبت بها مواقف الرجال

●(الله خير حافظا وهو ارحم الراحمين) استودعك الله وحفظك من كل مكروه وعاش اصرارك وقوتك وصلابتك

لم يزل اكرم وابراهيم يقفان بلا زعزعة مما يجري ولكن الصمت والحيرة تبدو على شفاه المقدم ربيع لفته الذي ابيضت شفتاه واصفر لونه وهو يمسح بوجهه .. ثم يقول ((الموت طريقنا الا انني في كل معركة اخسر احد افراد عائلتي فاخي الاكبر استشهد في القادسية والاوسط في حرب الخليج حيث كنت معه وقدر الله لي ان اعود ماشيا على الاقدام من الكويت حتى البصرة لم يبق الاّ انا العائل لثلاث عوائل ... فمن لهم بعدي ...

وامي المعاقة ، وابي الشيخ الكبير وزوجات اخوتي واطفالهم وعائلتي الشخصية ..ويبادر ابراهيم لاعليك فاالله الولي على الجميع وكلنا معك فهذه الارض هي التي تستحق اكثر من الجميع .

القصف الجوي الامريكي كثيف واعمده الدخان تغطي البصرة باكملها حتى ان عين الشمس قد بدت فاتحة منكسرة ومقر المخابره يقصف ويجرح آمرها ويستشهد خمسة جنود وتدمير البناية....الموقف حرج وليس لديهم اي اتصال مع المسؤولين ومع ادارة الحرب ومحاور الدخول والخروج فبادر رائد اكرم الى آمر السرية بالانسحاب عن هذا المكان فهو منقطع تماما وليس هناك اي اتصال ولربما يقطع جسر الزبير ونبقى فريسة في فك الشيطان ..

امطار من المنشورات تنزل من الطائرات على الارض تفوق عدد القنابل العنقودية والصواريخ وتم توجيه الجنود بجمعها وتسليمها الى مقر السرية ... كلما اصبح لديهم مجموعة منها جاؤوا بها ..

((النفط حصة ابنائكم فلا تحرقوه))

((سلم نفسك بالقاء السلاح والاستدارة الى الخلف ورفع اليدين لحين وصول قوات التحرير))

((لاتقاوم لانك ستموت حتما ولكن السلام خير لك))

((على الوحدات العسكرية ان ترفع علما ابيض وتعلن استسلامها وعجلاتها تستدير الى الخلف))

ومن هذا القبيل كثير ((انها حرب نفسية)) على القطعات العسكرية من اجل الهزيمة .. وقد استخدمت الحرب بالصور المختلفة التي تحاكي ابن العراق امراة ترتدي النقاب وزوجها يرتدي الدشداشة والعقال والابن الطفل يمشي معهم يحمل هدايا "لاتحرقوا النفط انه حصة اطفالكم ..

نعم السماء تمطر قنابل وصواريخ ومنشورات والجندي ينتظران ينزل امامه الجندي الامريكي ليقاتله ولكن لاشيء فهي امنيات فارغة لان النجوم ترمي شررها وانت لاتراها بالعين المجردة ..

الجو بات ساخنا على الرغم من ان آذار وما فيه من برودة نسبية ولكن الجميع يتمنون ان يسمعوا ماجرى لبغداد ومن حولها ...

مقدم ربيع لفتة امر السرية .. اصدر اوامره بالتحرك الى داخل المدينة لامكانية المشاركة في الدفاع عن مدينة البصرة بدل ان يذهب الجميع اسرى مع ان هذا ليس رايه لانه في الداخل رجل شاحب مهزوم...

نائب ضابط مرتضى صالح بديل ن ض حكيم عبدالزهرة باشر مهامه في السرية ، السيارة وضعت على مرتفع عال من الكثبان الرملية لامكانية تشغيلها مع انها هدف واضح واهن..

الطائرات الامريكية تحلق بارتفاع واطئ وترمي بالمنشورات ..وتطلق اصواتا من الاعلى

- ((لانريد قتلكم ... لانريد قتلكم ..))

حقيقة مرة للغاية لمسها بيده ابراهيم لكن دون جدوى .. الجنود الاليات – الارض – السماء ..

((المعركة غير متكافئة ... امريكا وحلفاؤها على الشر ينتفضون على فرسان الامس من السماء ... ليصنعوا مجدا موهوما ..))

فيا ليت الميزان معتدل وياخسارة الارض ان تدوسها اقدام الغزاة ...

اننا نشرب السم مرغمين عليه ... آه لو كان بارادتنا لتناثر الرمل جمرا يحترق بوجه الغزاة ...

الحب والوفاء للوطن لايكون كافيا لتحقيق النصر...

(٧)

سنموت اذن وتبقى تلك النصوص حدائق حزن ابدية.... فالوطن لاتغاليه اثمان او جواهر ...الجنود يدفعون الـ (ايفا) لتشتغل بصعوبة تعلن لجميع الحضور انها لا طاقة لها في الحروب انها تحتاج الى الاستراحة في مقاهي العاطلين "سكراب الشعيبة"...

الموقف يشتد ضراوة – الارض يتساقط عليها الشرر الاسود...المداخن من كل جانب العجلات العسكرية تمر مسرعة من هناك وهناك كما ان هنا وجوهاً لاتعرف اعداء ام اصدقاء ..وعلى حركة العجلات المتعبة التي تغامر تحت حضن السماء المفتوح المثخن بالبارود والدخان والامال الضائعة وصواريخ ((سكود و باتريوت و ارض ارض و ارض جو و النمساوي و اسماء كثيرة ربما لم تمر على مسامعنا – تطلق من ارضنا ضد اعدائنا ومنهم الينا لتحقيق الفجيعة واحراز اكبر الخسائر..جسر الزبير ، في محنة اذ يطوي صدره ليستقبل بوادر الظلام القادمة ويعيد التاريخ نفسه يوم حطمته الحروب واعيته منذ ثلاث عقود من الزمن ،انه يتربع فوق الماء يحكي للقادمين قصص وروايات يطول سردها ، يتصدع من جنباته ويبث شكايته الى الماء الذي تنعكس جميع الصور على مرآته المغبرة المخدشة بل المنكسرة من شظايا وشهب تتساقط باذرعها البيضاء والحمراء والصفراء والخضراء لافرق كلها موجعة ،كلها تجرح وتدمي وتقتل ثم رويدا تنطفأ..

فوقه جمع غفير جيش جرار يهرول تارة ويقف في اخرى الساحة خضراء وخاكية تتوارى في نهايات بعيدة خلف المرتفعات والكثبان الترابية...المشهد دون ادنى شك صورة تحت المجهر للذود عن رقعة الارض وانقاذها من المحنة

، المشكلة في الموضوع ان الاعمال العسكرية غيرمتداخلة اومنتظمة بوقت لايمكن عدها ضمن المفهوم التعبوي الصرف.

ولعل كتيبة الهندسة تمارس مهامها لقطع جسر الزبير بصناديق متفجرات خضراء اللون مع انه هناك قطعات عراقية تقاتل خلفه ونحن ضمنها ، الا ان وصول السرية الثانية بوقت مبكر اعطاها فرصة لعبور الجسر ومواصلة تنفيذ المهام التي صدرت الى مقدم ركن عمار حافظ والذي تولى مهمة لغم الجسر وتدميره قبل عبور القطعات العسكرية الامريكية ،رائد اكرم جراح تولى مهمة التنفيذ معه ومجموعة من الجنود قائلا :انت وجنودك بامرتي يارائد اكرم

- شزرا ينظر ولكن هل تعلم اين كنا منذ يومين

- لا والله ...

- وكيف تقطع الجسر وخلفه قطعات في ام قصر تقاتل بعنف وشجاعه ضد القوات الزاحفة..

- هذه اوامر الفرقة ... هيا معي سنكمل المشوار ونزلا في منحدر الى اسفل الجسر ...مااسهل الانحدار فوق حبات الحصى والظن ان الصعود صعبا للغاية...هكذا دون ان ندرك تتدحرج الاماني بفتور الى مصيرها الاخير ...

بدأ الجنود يحملون صناديق الموت وانزالها اسفل الجسر لتدميره قبل بلوغه من القطعات الزاحفة ...

ابراهيم يجول في خاطره ((ياترى هل ان قطع الجسر وتناثر الحديد والتبليط والاحجار والرمل والصخور سيحسم الموقف او ما الفرق لوظل مهيمنا فوق تابوت الماء الذي يرد منه الفقير والحقير والامير والصغير بل وحتى الكلاب السائبة – يالها من محنة صعبة وانت توقد جذوة النار تحت اعضاء بلدك لتجعله اداة تمنع الاشرار ان يستخدموها والوصول ،انها مجرد مسكنات لاتختلف عن زرق ابرة "فولتارين" آلآم او كبسول "كفلكس" لان الموقف اكبر من كل هذا اندفع الى المقدم ودخل نقاشا حادا بهذا الشان فاجابه لاعليك من هذا الموضوع انا المسؤول وانت لاتفهم خطط القيادة

– واي قيادة هذه التي تتكلم عنها اننا لم نر قيادة مطلقا فمنذ امس لم يصلنا خبر او امر او توجيه او نداء وقطع الجسر لن يوقف الزحف لان الطيران كالغربان النائحة فوق ميت كاد ان يلفظ آخر انفاسه ،عمليات الانزال خلفنا وجسر الزبير وامثاله ماهي الا معابر بسيطة وقطعها يؤثر علينا اولا قبل اعدائنا انتهت المشاجرة والمشادة الكلامية بسحب نفسه من الموضوع ..

استمر العمل في ظرف من المجازفة واللعب في ورق الحظ يانصيب ...القوات العراقية في مسرح مكشوف عرضة للنار والحديد ،التي لم تضرب سوى في مناطق متفرقة وبشكل موجع وبلاشك انها حرب نفسية وحرب استنزاف ،الوقت يمضي والاجواء مليئة بعلامات الاستفهام الوجوه ،الاشخاص ،الارض ،الاصوات الصاعدة الى السماء ..

بهدوء يمشي مقدم حاتم كاظم قائلا: انا احبك يابراهيم .. هل تذهب معي

– الى اين ؟

- الى اهلنا في الناصرية

- بشدة لا .. لا .. لا كيف ذلك

- المعركة خاسرة وسنذهب انا و.....و

- حرام عليكم بهذه الطريقة هل انتم اعز من هؤلاء الجنود والضباط والعراق اجمع ما الفرق بينك وبين مقدم ركن عمار حافظ الذي يركض مع جنوده يحمل الصناديق ،رد بضحكة خبيثة وساخرة عاكسها الخجل ان ينفذ اوامر باطلة لاتسمن ولاتغني من جوع وعلى الرغم من اعتراضي على تنفيذه الاوامر الا انه جاد وصادق ...

- انا امزح معك اردت ان ارى موقفك

لم يبتعد الوقت وقد اختفى من الساحة تماما ...

حلت صلاة العصر واختلط التكبير بغضب ودخان وحرب وصراخ واوامر ... خلية نحل غير منظمة مجهولة التوجيه والتنظيم ...

راح يؤدي صلاته فوق الرمال البصرية برسائل محمومة مثبتا نيته بركود وسجود لرب العالمين واستغاثة مفجوعة باعز مايملك ... اللهم فرق بيننا وبين القوم الظالمين..وما ان انتهى وقف ناظرا الى جهة اليسارواذا بضابط برتبة عميد ركن قد اصفر لونه متعبا من الهموم يفتح اجفانه بقوة يتامل ابراهيم وهو يفرغ مما هو فيه وكأن لسان حاله يقول:

- لقد حق امر الله فينا فصلاتك تجزى عنك انت لا عنا ، قم جر خطاك الى الوراء ، ثم ورفع يده بالسلام...

المشهد صعب للغاية والجميع يرى ويسمع بعض السيطرات المدنية الشعبية من الشباب يقرعون على اسطوانة من "دهن الراعي" الفارغة راقصون دون ادنى شعور بحجم مايجري في هذا الوقت ، لانعلم فرحا ام سخرية واحدهم قد خلع قميصه الزيتوني ورفعه اعلى ويدبك بشدة على الشارع ويضحك ... كرر العميد الركن نظره وكانه يقول من هنا بدات الهزيمة والانهيار ،من هنا ضاع الوطن وحرقت الامنيات وتخلى الحريص عن المسؤولية فليس هناك من يعينه ... ياالخيبتنا ... وجبننا وخذلاننا اليوم من هذا الموقف العصيب الذي يمزقنا قبل ان نواجه جنديا امريكيا واحدا ....تحركت القوة العسكرية ... الى ساحة سعد بامرة المقدم ربيع لفته ذلك الرجل الطويل النحيف الابيض ... الغائب في بدلته العسكرية ... المنهار في تواضعه المرتبك ..في ساحة سعد...غابت الشمس بأسوأ مارأت العين في تاريخها ،ايذانا بمصاب ساخط شامل وان الظلام سيكون سرمديا ولاكاشف له الا الله ،فلعل تعظم وتكبر كل الاشياء الصغيرة التي يغطيها شفق الشمس الاحمر الملوث بالسخام ،التلال ،النخيل ،اليوكالبتوس الذي يصارع الريح حتى تبدو متجبرة تشارك الفضاء خيمة الحزن المجهول ... المدرسة الابتدائية كانت الملاذ الامن لابراهيم مع مجموعة جنود ،كان الجو بارداً وقد لاذ البعض خلف الجدران لان ابواب الصفوف موصدة بل اضطر بعضهم الى دخول المرافق الصحية المفتوحة هربا من البرد.. ويطلبون الطعام من الاهالي الذين اكرموا الزائرين المتخاذلين ،كم كانت زيارة مذلة حقا ...اذ كانوا يلوذون بنا يوما وها نحن كالعجزة في عرى الظلام ... هذه المرة فقد جاءت عكسية لان فرسان الحرب قد تقطعت بهم الاسباب واستاذنهم الى احد بيوت زميل قديم له لعله ينقذهم ببعض لقيمات الطعام ....

المزاج عكر ووحشة الظلام وومیض القصف متواصل هنا وهناك ... المباني والمؤسسات والمدارس والمباني المهجورة توحي بنتائج الحرب وويلاتها...امسية لم تكن في فندق خمسة نجوم يقدم فيه اشهى الماكولات او سماع موسيقى هادئة تسترخي لها الاجساد والاذهان ... انها اصوات كرهتها الاحجار والاشجار والطرقات والمياه والحيوان والانسان ، والجنود والناس اجمعون انها صولات متكررة على مدى سنوات طوال واصبح الجميع لهم تجربة بهذا الشان ، السماء تشتعل بالبرق والرعد ورائحة الموت تأخذنا الى مديات ظلمها القاهر وجبروتها الذي يذوب له الحديد – يا ترى ما اقترفنا من ذنوب...؟ على اي شيء نحاسب بهذه الشدة والعنف ...؟

يحدث نفسه :أمريكا بكل قوتها ومن والاها جاءت لاقتسام الخيرات وانتهاك الحرمات والارض والعرض فما هو الرادع أم ان.. ذنوبنا الدنيئة وحدها اسرتنا بظلامها لنتقاسم العزاء ستمتد الى اعوام اشد ظلمة وبؤسا وشقاء وسنخضع لها مرغمين ،هذه الليلة تفرق الاخوة الذين اجتمعوا ذات يوم وقالوا كلمتهم باننا ضد الاعداء والايادي مجتمعة ولكن يبدو سقطت الاسطورة القائلة:

اصابع كف المرء في العدِ خمسة وفي مقبض السيف واحد

ربما سنتفرق شيعا وطوائف وتتحول الارض الى حمام دم ....

الموقف يحتاج الى القائد المسؤول عن ذلك دنيا وآخرة والدمى المتحركة من الجنود والضباط بانتظار من يسأل ويوجه الاوامر وينقذ المأزق .. حتى الكلاب لم تنم هذه الليلة فعويلها بين الازقة قد افزع وارعب الاطفال اذ يستغشون تحت الفراش ويصموا اذانهم – لله درك يابصرة كم كان حملك

ثقيل – حرب ثمان سنوات ،انت ساتر للرصاص بكل اشكاله .. وحرب الخليج وانت كذلك وهذه الثالثة تطرق الابواب وتحبس الناس عن جميع اعمالهم ولربما تكون اخطر من الماضي ...الاخبار عبر القنوات الفضائية والاذاعات تمجد موقف القطعات العراقية في قواطع متفرقة.. كذب من قال ان الطيران لايحسم حربا قد لعب دورا كبيرا في حسم الصعوبات الجسام التي تواجه القطعات ولازالت قطعاتنا التي كانت على تماس في ام قصر قد ادت دورا قتاليا مميزا ... ولكنها باتت مقطوعة من الخلف لا اسناد لها لاسباب كثيرة.. فلق الصباح شق حاجبه .. ركب ابراهيم سيارة لاحد زملائه المقربين يبحث في الحي عن شمل الاخوة الذين تفرقوا .. لم يتوقع ان يلتقي نقيب سامح ، فرح كثيرا وسأله :

– اين قضيت ليلك ياصديقي ؟

– في هذه المدرسة ومعي اربعة جنود

– كذلك انا ياصديقي ، واين اخبار الفوج معاونا وآمري سرايا؟

– هيا نبحث عنهم في البصرة

– ركبا سوية بوجوه يملؤها التعب والعبس وبادر سامح:

– امس لم يدمر جسر الزبير

– لماذا؟

– لان مقدم ركن عمار وقبل التنفيذ قد تعرض الى انذار من الطيران بترك المكان فورا وهو في موضعه ولكنه اصر التنفيذ ولكن دون جدوى وتبين ان

السلك الكهربائي الموصل الى المفجر قد تم قطعه بالاشعة من الطائرة ولااحد يعرفه اين اصبح ،فهناك اخبار تؤكد استشهاده واخرى انها مازال حيا او في الاسر وبين جميع الاحتمالات فهو تارك خلفه دموع عائلة لاتجف وترقب بالعودة من جبهة القتال وربما ام تتضرع في جوف المساء ان يعود سالما ولكنه في النهاية قد نال الشهادة وتبين ان جثته ملقاة ليومين على مقربة من الحيانية في البصرة...يالها من ظروف صعبة واحداث مثيرة ...

ذهبا الى احد الضباط فوجدا اغلب الضباط هناك يخيم فوقهم حزن كثيف (مقدم فراس احمد – ملازم اول محمد ...وحميد وخالد وسعود وامجد) عند احد زملائهم وقد تناولوا وجبة الغداء واستأذنهم بعدم البقاء هنا لان الاعداء قد دخلوا الاحياء وبالامكان ان يقصفوا البيت ظنا انها فرقة حربية او مقر عسكري بديل...

ابراهيم يقف واين الذهاب ياخوان ومازلنا لم نواجه جنود امريكا سوى رشقات هنا وهناك ويعمّ الصمت وسط خيبة كبيرة ....

وملازم اول محمد يطأطيء راسه والدموع تمطر من عينيه تاركين المكان بأسى فادح...ابراهيم وسامح عادا الى المدرسة ،واتفقا بشأن مساعده الجنود المقيمين هناك وافترقا على امل تنظيم امورهم يوم غد...

انصرف ابراهيم لتسليم سيارة زميله وعند وصوله امام الدار خرج اليه قاسما ان يبيت الليلة لديهم..ومع امتناعه الا انه اصرّ على عيش امسية ضاجة ،طائرات في السماء ومدرعات تدخل الاحياء القريبة من الجسر ساحقة كل ما امامها سيارات وحاويات اوساخ وارصفة عبرت فوقها دون

استئذان اهلها او شعور بمدى فجيعة مايفعلون ولعل ذلك اول الغيث اول المطر الاسود يوحي حجم العنجهية الامريكية وآلة الدمار القادمة ...

وفي الصباح توجه الى سامح ماراً بثلاث مدرعات عراقية قد احترقت على مرآه ومسامعه امس .. اذ وقف ضابط برتبة مقدم مع ن ض معه وجنديين قائلا:

– اخوتي قد دخل الكفر على جسر الزبير وهذا عيب علينا هيا نقود الدبابات الثلاث انا وانتما نضرب السيطرة التي امامنا على الجسر ، والله يشهد اننا في سبيله

دمعت عيناه حين سمع كلامه الغاضب المنفجر من ثنايا روحه التي ضاق بها ذرعا ذلك الفضاء الفسيح وتمنى ان يكون احدهم ... بدأت الدبابات ترمي والطائرات تنذرهم دون توقف فوجهت عليهم ضربات موجعة من الاعلى قد حولت دباباتهم ومن فيها جثثا متفحمة...

واصل مسيره الى زميله واخبره ان فوجهم نقل الى (هور ابو عجل) وضرورة الانتقال فورا مع ضباط معنا مع ان الجنود اخذهم ملازم اول محمد منذ امس بسيارة مدنية (اجرة) ...فاي الم وسخط واي وجع ينتابهم وهم يسلكون طريقا لايعرفون عواقبه ولايحملون حتى اسلحة شخصية سوى مسدسات ٨ مل..

الطريق ينذر بالخطورة ولكنهم اصروا التحرك نحو المقر الجديد برغم المشاهد الصعبة وربما يكون الموت بانتظارهم فهم مجبرون على الالتحاق باخوانهم

التوقفات كثيرة نتيجة القصف الكثيف ،الوحشي فلم تسلم اعمده الكهرباء (١١) الف من الضرب والسقوط على الارض الثكنات العسكرية والدور السكنية الفارهة التي يظنون انها تعود لمسؤولين كبار في الدولة ..ارهاق ووجل ومحن ولحظات صعبة وبين مسافة واخرى ينزلون بسيارتهم عن الشارع العام لضراوة الموقف وشدته ...

المشهد يوحي بحركة الناس وهم ينتقلون راكضين بين البيوت واطفال يصطرخون والبعض في مواضع قريبة من البيوت واخرون يرتدون لفافات حول انوفهم خشية السموم التي سمعوا او تنبؤوا ان العدو سيلقيها عليهم ،وارتباك تلك العجائز التي تضم الصغار في جنباتهن باكيات ،دوي الصواريخ النازلة قوي جدا يوحي لك غضبة يوم مطير رعد وبرق ومطر اسود ...الصمت يطبق على الزملاء الاربعة الا ببعض كلمات وتعليقات – هنا سقط صاروخان – هنا احرقت محولة كهربائية – احترقت مزرعة الحنطة والشعير – هناك عجلة عسكرية تلتهمها النيران – عشر طائرات بالفضاء و...و....انزال على الطريق ... الجوع ياخذ مأخذه منهم والتعب والافكار وحجم الدمار وهوله اجتاح ماتبقى من الارادة حتى دخلوا بسيارتهم المدنية مدخل هور ابي عجل لتحسب المسافة الطويلة وعلى جانبي الطريق تمتد ارض سبخة يعتليها القصب الكثيف وخاصة من جهة اليسار اذ هناك مجاميع من الفلاحين يعملون بجد وظهورهم تنطوي على بطونهم بعيدين عما يجري من احداث ،فلربما صعوبة حياتهم وهم في قلب المياه الآسنة والاسماك وبساطة الحياة لم تعطهم فرصة بالتفكيروالاهتمام بهذه الحرب او لانهم اعتادوا على ذلك فلاتعني لهم شيئا...

قاربت الشمس المغيب لتلقي اخر تحاياها مسلمة الى الشفق الاحمر ..

احد الضباط قائلا:

– ياجماعة انتم تسيرون في منطقة نجهلها تماما فقد نذهب الى غير رجعة لذا اشير عليكم بالمرور على احد الافواج القريبة من الطريق

وما ان نظرت اعينهم باب النظام على جهة اليمين حتى صاح

– هنا مروا هنا

ودخلوا بسيارتهم فلم يعترضهم احد حتى مقر الضباط الذي برز منه ثلاثة ضباط ... وبعد التحية سالهم ابراهيم –

- هل وصل لديكم الفوج /٩ اعادة هيكلة..
باستغراب..

- لا ابدا ولم نسمع بذلك ونحن من الفرقة(١٨) وانتم من أي فرقة
–ابتسامة يائسة من البصرة

- ومالاوضاع في البصرة

– بهدوء بخير والحمدلله ... وفي خاطره يسال واين الجنود يبدو انهم غادروا المعسكر... خرجوا بتذمر كبير كيف العوده الى البصرة وسط الاجواء المشحونة وها قد حل الغروب والطريق اصبح اشد صعوبة ..كان قرار ابراهيم العودة على الرغم من ان الطريق لاتوجد فيه سيارة واحدة والقصف بمحاذاة الطريق

سامح .. – لا نذهب الى بغداد – وكما ترون الطريق غير آمن وسيارتنا مدنية والقصف كثيف واتفق الجميع على ذلك الامر

– ثمة فكرة كبيرة تدور في ذهنه " بغداد" مع انه غير مقتنع فلربما يكون الامر اصعب ولكن راي زملائه الاربعة غلب على رايه اذ تقدموا باجتهاداتهم المقنعة كانت رحلة شاقة فالسماء بين الحين والاخر تنزل بغضبها على الارض وان اعداد الطائرات يتزايد والاوجاع والافكار والمخاوف تخترق القلوب...كان الصمت يعم ولا يسمع الا حفيف الهواء المواجه لسرعتها وهي تندفع الى اللاهدى واللامصير وكان الوقود باخر قطراته فلربما ينفذ وتتوقف الرحلة عن الاستمرار والمخاطر تكون اكثر فجيعة ،كانوا ينظرون بقوة باحثين عن محطة للحصول عليه لامكانية بلوغ الغاية او لافرق اللاغاية...وعلى مسافة خمسين كيلو متراً ،وعلى جهة اليسار وقف امام المحطة رجل ذا شيبة توجهوا نحوه بسرعة والسؤال

– ياعم نحن بأمس الحاجة الى الوقود فهذا الليل قادم ولم يبق لدينا مايكفي لرحلتنا

- نظرة خبيثة والسيجارة في يده الى اين رحلتكم ؟
- الى بغداد
- لايوجد لدينا ماتريد يا استاذ
- نرجوك ولو عشرون لترا

اقتادهم الى الداخل وملأها قائلا

– بالخدمة اكملوا رحلتكم يا اصدقائي

كان يشعر الجميع بنظرات وحركات ومقاصد هذا الرجل العامل ، المتفلسف بعباراته وهو يريد ان يقول :

– هكذا هزيمة الجيش افضل ، بل وهزيمتكم..

.. ويمضي قطار العمر مسرعا ، بصوت مدو بالفلاة ،وقوده سنوات تحترق رمادا اسود تبدده الريح بالفضاء ،ومحطات الانتظار تذاكر من أسى عبر مضيقات ومنعطفات وجبال شاهقة.....بل ومساحات شاسعة بالوحشة ،أدنى مافيها غربة وبرد وحرارة ورفاق تبتلعهم لعنة الرمال القاحلة ،لاشيء سوى صوت مبحوح يتلاشى شيئا فشيئا بالأفق البعيد.....

نكتشف بعد هذا إن تلك السنوات لم تكن شيئا مذكورا ،وإنها مجرد أكذوبة أزلية نعيد حطامها عبر المحطات ونسير شيئا فشيئا إلى النسيان

.....نعم انه النسيان ذلك الإحساس من الداء والدواء بالوقت ذاته فمرة يعي ذاكرتنا وأفكارنا ويصهرها تواجدا وشوقا وفي أخرى نعمته باللاشيء نذكره فنركب متن القافلة من جديد نواصل المسير لنحرق ماتبقى من وقود لبلوغ آخر محطة لنسدل ستار اللاعودة و اللانظر و اللاتذكر بل اللاشيء.....؟؟

مساء بغداد على غير عادته الوجوم والظلام والاحلام والسقام والفجيعة والسخام لااحد في الطرق ، والمقاهي مغلقة والمطاعم اعلنت رمضان في غير وقته ،مساؤها عتمة واشباح ،البنايات متجبرة وكبيرة لاتدلل الا انها وحوش غاب كاسرة ...الطرقات كانها نياسم لقطاعي طرق ،كل شيء بات ازليا ليوم كنا به وكانوا...اخوة يوسف تفرقوا حال وصولهم النهضة في بغداد

اذ هي مكان الانطلاق اينما شئت ، انهم في سكرة من امرهم والخطوات متعبة والضجيج وصوت الصواريخ وخلو الطرقات من البشر والسيارات مدعاة للريبة سوى سيطرات للجيش هنا وهناك والكل في ترقب .. وبين حيرة تصارعه يقف هل يقتحم هذا الليل عائدا الى البصرة بمفرده ام يبيت في الطريق ام يواصل الرحلة الى اهله مسافة (ميلين)...استقر الامر المواصلة ثم العودة الى البصرة تحت اي ظرف كان ،كان بحاجه الى ان يذوق الطعام و يشرب الماء ....سيطرات منتشرة باماكن مختلفة ،متوجسون مما يجري حتى اصواتهم وكلماتهم متكورة بخفاء تحت القماصل العسكرية ذات القبعة الكبيرة المحشوة بالفرو ،كل ذلك يتلاءم وزحام المدينة الغارق مع حياة شبه معدومة .. كما ان هناك اشخاصا يحملون بنادقهم والقسم الآخر قتال اعزل .. واخرون يحملون عصيهم يهشون بها على الطريق وليس لهم مآرب اخرى...وصل بساعة متاخرة في الصباح واسئلة كثر تنثال على ابراهيم من هنا وهناك بشان الموقف في البصرة ويجيب بمرارة الحمدلله كل شيء على ما اراد .. فهو لايحب ان يبوح بالحقيقة المرة التي رآها وما تعرض لها...حقيقة الشؤوم والخيبة والطوفان وأعد نفسه بعد لقاء اهله الحار المرطب بالدمع والبكاء متوجها في الغبش اللاحق الى حيث اتى والتقى عند احد قناطر القرية بأحد اصدقائه وهي آخر نقطة يفرق بها عيون الناس المنتظرة للمجهول فاعطاه دعاءا وقال:

- كرره ياصديقي لعلنا نراك مره اخرى سالما غانما ...

وطلب اليه البقاء لان الموقف لربما يحسم .. فاجاب بشدة

– لا..لا..لا.. وداعا صديقي الطريق تملؤه المخاطر اذ تظله الطائرات بالنار والحديد والانزالات مستمرة هنا وهناك وبعد صور واشكال كثر ، دخل البصرة عصرا وكان الوضع مختلف تماما عن ذي قبل وراح يبحث عن وحدته التي تشرذمت ولاعلم عنها شيئا... وكلما سأل احدا اجابه لااعلم ... والتقى احد معارفه فطلب اليه العودة الى بغداد .. رفض بشدة قائلا :

– ابراهيم وصل الان وتحمل كل المخاطر ليعرف مصير زملائه ويرجع ... لا .. لا

وداعا واستمر في التقصي ووقف في مكان آمن ونزل من سيارته ،ونظر الى احد البيوت التي عسكر بها الجنود فاندفع اليهم ... وسال الحرس من هنا:

– ضابط الامن وبعض الجنود

– وهل تعرف مكان فوج مشاة / ٩ اين مكانه

– لا .. لا .. نحن جئنا من الناصرية كقوات اسناد ولكن لم نجد احدا في المكان الذي حدد لنا ..

مازال يحدق في المكان ونظره يرتفع مع السماء ليتابع حركة الطيران الامريكي الذي يقترب ويبتعد والصرير يكاد ان يذهب بطبلة الاذن وعلى اشراقة الشمس اخذ خطواته الى ساحبة طويلة وضعت في سوق الخضار وضع على ظهرها صاروخ طويل وضخم وتم تكفينه عن الانظار بمشمع كبير فمد يده على جسده الصقيل محدثا اياه:

– لم انت نائمة ايتها النار في جوفه .. الا يكفي فصلاة العصر قد حانت الا تتوضئي فالغربان يرقصون على دمانا .. فاجاب :

– اهلي ماتوا توا ودماؤهم قد غطت الطرقات وانا حر لمن يملكني ويطلقني .. فدمعت عيناه وودعه .. قاد سيارته يتنقل الى الخراب والانقاض التي تملأ الشوارع ولكن لم يعرف لهم طريقا واستذكر المرحوم ابراهيم حسن ناصر ببعض كلمات قالها في البصرة قبل ثمانية عشر عاما في روايته شواطئ الدم شواطيء الملح(الحرب إعصار من نار وحديد تجتاح الأرض لكنها تبدأ من عقول القادة وينتهي في أجساد الجنود ،في قلوب الأمهات وفي دموع الأرامل)...ياه.. يالها من مقولة عنيفة تؤرخ مداد الزمن وتخلد الاشخاص وتعطي حجم الوجع اللامتناهي.

عاد الى صديقه البصري واستقبله بحرارة كبيرة :

– الحمد لله على سلامتك

– اي سلامه تلك ياصديقي ..؟ لاسلامة لنا بعد اليوم

– سحبه واجلسه غدا سنخرج نبحث عن وحدتك ولكن اين غيابك كان

– في بغداد

– وكيف بغداد؟

– الحديث عنها مجروح فدع كل شيء...وكل شيء موجع ..عموما عاث الصداع بي

- لحظة سأقدم لك الطعام وآتي لك بحبة باراسيتول مع قدح شاي ...

وبعد وقت قصير

دخل عليه بطبق تتوسطه سمكة (بني) مسقوفه بعناية كبيرة

- هل انت على موعد بي

- لا كنت اتوقع سيزورني صديق عزيز فانتظرت لاني لااحب الانفراد في الطعام

- ولكن سألتني عن بغداد فهي تسقف مثل هذه السمكة بالطريقة الامريكية والنار تحيطها من كل جانب...

- الا تعطينا فرصة للنسيان

- وكيف ننسى وانت تسمع الصواريخ ترمى دون ادنى انسانية او رحمة

تناولا قليلا من الطعام ... وقضى ليله ابراهيم يتقلب على سريره الساخن واول الصباح خرجا سوية يبحثان عن وحدته فوجدا بعد عناء على طريق الشلامجة ..نعم الشلامجة تلك الارض التي ابتلعت في رملها عشرات بل مئات من البشر كانوا مثلنا يأكلون ويشربون ويحلمون ، ولهم زوجات وحبيبات وملاعب صبا ومزارع وحقول ونوادي يرتادون اليها ...لاشيء كل ذلك الماضي ارض مقفرة استقبله ملازم هاشم صلاح

- اهلا سيدي

- كيف حالك ؟

- وانت كيف حالك ..؟ الحمدلله على السلامة

- كان وجه هاشم متعبا للغاية وقد تقشر من الملوحة ..

فساله

- كيف اجتمعتم هنا ...؟

- اجتمعنا هنا تحت ظل هذه الخيم والاشجار مع بعض الجنود..

- وهل سيحسم الموقف

- لا ابدا فالارزاق من بيوت الجنود القريبين او من السوق

- ومن معك

- ثلاثة ضباط

- وهل لديكم اوامر او اتصالات؟

لا طبعا ،،، فالجوع آذانا وملابسنا اتسخت ووضعنا صعب للغاية ولكن جاءت مكرمة (١٠٠) الف دينار ولكنها متاخرة ولاقيمة لها ... باقون هنا بلا عمل وليس لدينا احد نلجأ اليه ... والحمد لله

انسحب بائسا ضجرا .فاشار اليه صديقه هيا بنا فلو اصررت على البقاء هنا ياصديقي هل ستنقذ الموقف.. ودع المكان بذات الجرح المثخن باساه وراح يمتع ناظره باخر لحظات البنايات والطرق والمحال والمجاميع الراكضة من شدة القصف كان الصمت يغالبه حتى وقف عند احد الطرق الداخلة الى

المدينة كان مغلقا انها بناية ذات طابقين قد انهارت في الطريق ..يقال مقر للمخابرات العراقية ... الاحجار والطابوق والاثاث والبشر امتزجت سوية كلهم من تراب وآدم من تراب ، وخرج من المكان بطرق فرعية ذات مطبات كثيرة والى شط العرب حيث يتنصب السياب فنظر مرددا مطلع القصيدة التي كتبت على المنصة :

الشمس اجمل في بلادي

من سواها والظلام

حتى الظلام هناك اجمل

فهو يحتضن العراق

طأطأ راسه وهو يسمع هدير المدافع والصواريخ .. تنزل بغضبها فالتفت صديقه

- يا ابراهيم هيا سنموت هنا

- في اي مكان سنموت هنا هناك او نحيا لافرق .. فهذا السياب ميتا يحب العراق ويمجده ونحن في ظلام الاحتلال القادم خسرت الرهان واشعر اننا جميعا خونة الارض والماء والهواء .. وكل عناصر الطبيعة .

- وما الذي تستطيع أن تفعله ؟

السيطرات الامريكية وحلفاؤها دخلت حي المهندسين - الحيانية يفتشون وطرقات اخرى تدخل جموع من الجنود يرتدون الملابس المدنية... انهم

يتنازلون رغما عنهم عن الوطن والوطنية واسلحتهم باتت عكازا يتوكأ عليها كالعجائز ..

الى هنا حصل الانهيار الكامل للمنظومة العسكرية وحصلت بعض المواجهات داخل البصرة القديمة واشتام بعض الاهالي من فوق السطوح باتجاه السيطرات الامريكية ولكن الرد اقسى واقسى وفي ساحة سعد كان ينتصب هاون (١٢٠) مل وقد قطع الى نصفين بضربة جوية ... وافاد احد الاهالي ان رجلا ستينيا قد كف ثوبه الى حزامه ورمى به حتى نال الشهادة ...

- إنا لله وأنا اليه راجعون ..

المشاهد كثر كان يدونها ابراهيم ولكن الكلمات التي تنهال فوقه لايمكن ان تفي بحجم المصاب ...

آه ... كم كان الموقف صعبا وهو يخاطر بحياة الجميع الى مستقبل مجهول اظلم لن تحمد عقباه...

هل انه الجبن قاد الى الهزيمة ام الغطرسة والتهكم في قراءة الوضع الراهن السياسي منها والعسكري على حد سواء .

سنموت اذن وتبقى تلك النصوص حديقة الحزن التي

يأوى اليها السائحون ... الغالي والنفيس

الذي لايعرف ثمنه سوى من احب الوطن وعبر

عنه بأرقى مشاعر الوجدان. سنموت اذن وتبقى تلك الاحداث اطلال حزن ابدية ويبقى الوطن لاتغاليه اثمان او جواهر...

الجندي الامريكي لافرق لديه بين الصغار والكبار والشيوخ ... العداله في الذل متساوية.

المدرعات الامريكية اصبحت واقع حال لامهرب منه صفحة اخرى يمارسها الاحتلال انها صفحة السلب والنهب ...

ماأصعب الشعور الذي جال في خاطره وهو يعاتب السماء بنظراته الصامتة وتأوهاتة المريرة ،مرة يمسح عيونه بشدة او يمسد لحيته بأسف ويجلس على الكرسي واخرى ينهض او يتجول بحريته ويستذكر محركا يده باستهزاء وابتسامات يصطنعها لنفسه لاخر مشهد يوم وقف لدى العجلة العسكرية (ايفا) التي نقلتهم في ساحة سعد وهرع اليها صاعدا في حوضها باحثا عن السلاح بالصناديق الخشبية الزيتونية المحملة فوجدها فارغة فشعر بغثيان وهزيمة ماكرة

نزل الى الارض يدور حولها مستسلما للهوان الحقيقي ..انه شخص مدني يعاني الوحدة والغربة والضياع وكل شيء لديه مبعثر ،افكاره وملابسه واصدقاؤه وطعامه وشرابه ....

الصمت ابلغ من الكلام ذلك ديدنه وسلوكه الجديد ،غار نشاطه واملة وحيويته واملة في الاصلاح ،لا احد في البصرة يرتدي ملابسا عسكرية .. نعم اختفى (الزيتوني) (الخاكي) كل شيء ضاع غار في الارض تسامى الى السماء ... الوطن والرجال والجيش و (٦) كانون قبرتاريخها في ليلة وضحاها ...اشبه بمتسول سأم الشوارع والممرات والبيوت المرصعة

بالاطلاقات والمواد المنزلية المبعثرة والارصفة المتهالكة والناس المصابون بالذعر ...

الشوارع تزدحم في الهواء الساكن ... النهب في اموال الدولة ،اموال الشعب على الاصح ،المؤسسات والدوائر و الجامعات كل شيء يوحي بالنهاية ...المرض يدب الى جسده النحيل حتى انه لازم الفراش لدى صديقه ...كل صباح تطرق المفاجأت ظلمها فأصرالخروج للتبضع من هموم الوقت الزائل محتضنا الخيبات...شعر انه الخائن الوحيد وكأنه بامكانه ان يرد جيوش الارض اجمعها الا انه هكذا ولته الحياة عاجزا...

كم انه متطرف على نفسه ألا ان شعوره يجتاح تقاسيم وجهه ويزيدها أيلاما وكانه بين الملايين الذي ناله عار الدنيا والآخرة....ياله من شعور قاس ذاب له الجسد نحولا وخواءا ومسكنة ....

مرة اخرى تطوف عيناه باستغراق الى السماء توحي عتابا مزدوجا بين الدنيا والآخرة...ها قد وصل الامريكان فما بوسعك ان تفعل ...او تصنع ..تحيا او تموت لافرق او تعيش كالمجانين بلا ادنى شعور ليرفع القلم ..ياه.. كيف يحصل ذلك وانت بكامل قواك العقلية والبدنية ...

المجانين الخونة هؤلاء العابثون باموال الشعب ... سرقة وتحطيم وحرق الاشياء الجميلة ...ويمشي فوق الارض داخلا مع السراق الى الدوائر والكليات يمارسون كل اشكال الانحلال لكن السؤال من يحميهم ؟؟

انها المدرعات الامريكية ... التي وقفت عند مدخل الجامعة في ساحة سعد وهي تمد مدافعها بشكل متقابل والكتل البشرية تعبر من بين خراطيمها

الخاكية والجنود الامريكان ينظرون بعيون ساخرة.... همجية شعواء جاؤا لتثويرها وتذكيتها فهم اهل لها ، المشهد كبير وعظيم وهو يزج نفسه بين هؤلاء العابثين وينظر بغضب شديد نحو ذلك الجندي الذي يجلس على برج الدبابة ويرتدي القلنسوة وعدة الحرب بل عدة الكره والبغض والتي يحملها من اسياده يومئ للداخلين والخارجين بيديه دعاية للنصر ...ايحسب الناس انه كالطيور تدخل خماصا وتخرج بطانا ،يحملون السحت بل ويأكلونه كل شيء فما تركوا عدة او ادوات تنفع او لاتنفع يعرفوها او لايعرفوها الا حملوها الى المزاد العلني بفتوى شرعنوها لانفسهم

صديقه يمسك بكتفه ضاغطا الابهام امش يا اخي هل تريد ان يمسكوك ويعذبوك واذا علموا انك ضابط فربما ستموت ...كان مصرا ان يدخل الى الدهاليز والكهوف التي صنعها الناس ويسير متوجسا في مساحيق زجاج النوافذ والابواب وحاسبات المختبرات لم يسلم شيئا من الضرب والحطام او السرقة ...

(الشورجة) او(مريدي) تفتح بجانب سياج الجامعة.. الجرح عميق لاضماد له والحل الامثل ان يغادر المكان لانه كاد ان ينفجر من المشاهد التي رآها...

عند الباب الخارجي وعلى بعد نصف كيلو مترا راى مجموعة اشخاص يحفرون في الرمل سألهم بفضول ماذا تفعلون؟

– ندفن بقايا رجال سقطوا امس في مواجهة الامريكان " قدم وشيء من رأس ودماء" ..ولكن الغريب اني وجدت في ملابس احدهم هوية سورية

– ياللغرابة – العراقيون وعصابات غير معلومة المصدر يسرقون وهؤلاء الرجال ماتوا في عز شبابهم ..

لم يبق شيء بيده غير بقايا من حطام ...لاامل له سوى العودة الى بغداد ...هكذا اصبحت الارض والسماء ملك الغرباء ،الغزاة ،والناس عبيد يخشون غضبة سيدهم ترى هل تستمر العجلة هكذا ام ستنقلب عكسيا لااعتقد الناس عطشى للخراب والعبودية....

الفضائيات تعلن منذ يومين نهاية الهجوم والاستقرار وتوقف عمليات التحرير المزعومة... ساحة الفردوس تشهد سقوط تمثال الرئيس العراقي ،درس جديد يعطيك تاريخا حقيقيا في بدء صفحة(عراقيون في وطأة الاحتلال) وماذا بعد ذلك ...؟

الليل يسدل ظلامه فوق البصرة ... ظلام المحنة الكبرى بعد ايام كان يشعر بها ضعفاء النفوس بالنشوة والفخر وان كانت مصطنعة ...مسك القلم ليكتب عبر مذكراته بعض كلمات تختلج ،تمطر أسى الفضاء ...

تبعثرني بقاياك فوق ذاكرتي

تتعثر خطاي المتوجسة فوق أشواك الانتظار

تغور كألق الصباح الراعش في جنح الظلام

كموت الشمس بين الغيوم الكثيفة

تبعثرني...

تجرني...

من حلم الطفولة الجميل

من نزغ الشباب المعطر بالندى

تأخذني من ثيابي...

كفرة طير بإغصان الشجر

كرقص طفل بريء على أنغام عود

.....

صدى نداؤك من بعيد

يهرب خلف مسافات ضياعي

يلوح أمسك البارود في وجع معتق

لاشيء غير النهاية

وحدها تصفق اكفها ومواويل

حبي المفتون عند منحدر التلال

تبحر فيك تبحث عنك

تجدف مشاوير عمري خلف أمواج الهزيمة

...تقبرها

في سكونك ...في هطول أمطارك

التي يفوح عطرها بمديات

روحي الضيقة....

بين الحقول الذابلة

والحدائق الزاخرة بالألوان

والقصائد والذكريات

وقصاصات ورق زائفة

حلم من ورق تمزق في أمطارك

في رياحك العاتية

في أكاذيب واعدة

في ولادة ليس لها بداية..

وخاتمة ليس فيها سطر نهاية

شعور بالبرد والانكماش والانطواء والقلق وعدم الطمأنينة ،كان باشد حاجة الى السكون والفتور مما هو فيه – كان النعاس سلطانا ولكنه المرة الاولى التي كان فيها عبدا ذليلا لايتمكن من عينيه لساعات طوال – نام

لبعض وقت واذا هو يسبح في فردوس الشباب ارض خضراء واشجار تلامس زرقة السماء وشقائق النعمان تصبغ الارض بالوان ساحرة تمتد الى الافق ونجوم تتلألأ وانهر صافية بمائها وثمار كأنها جنة الاحلام – وفتاة متاودة على نسائم هواء ربيعي حالم طولها نبعة ريحان ،وجه قمري وعيون سوداء تطلق سهاما قاتلات وصوتا دافئا وملابس لم يكن قد رآها من قبل نادته:

– ابراهيم – ابراهيم ففزع:

– نعم ما تريدين ياحورية ...؟ الا تتركيني من الوجع ..؟ يكفي تلاحقيني فانا بت عجوزا لا اقوى الغواية والهوى

انا حطام .. او بقايا من حطام

شعرك الاصفر سعف النخيل في مهب الريح

كفى جراحا ... كفى سكاكينا تغرسينها

انا غاد لن اعود...لن اعود

ثم غطس كالمريض في نومه واذا بثعبان تلدغه... ففزع من نومه مرة اخرى... وبقى مستيقظا حتى بداية الفجر وصلى ، وعدَ نفسه للرحيل ... واعترضه صديقه الحميم الا ان قراره انتهى ... احتضنه صديقه باكيا:

– يا اخي اخشى عليك الطريق ، اخشى ان اكون سببا في قتلك ...

– لا ياصديقي لااعرف شيئا عما يجري في بغداد ... انا سأغادر فربما الاخطار تخنقني فلا احتمل اكثر مما انا فيه...

رمى اليه بمفتاح سيارته واقسم له ان يأخذها لان المرآب ليس فيه سيارات للوصول الى بغداد...اخذ ها والدموع الغزيرة تنزل بين جرح الوطن وهموم القادم في لجة الاخطار ، جسد نحيل اعتاد على الصبر الجميل في محنة لاتكاد بلوغ النهاية – برودة الجو تجتاح انفاسه وهو يزفرها بعنف انها خانقة لانها متجانسة كرها برائحة البارود الاسود والغازات السامة...

ربما يرى نفسه بات مواطنا من الدرجة العاشرة ... لحيتة الكثاء وشعره المنثور وملبسه المدني المتواضع ...غادربوداع مر وهو يمسح قطرات صافية على وجهه ليضع اولى خطواته على محطة تعبئة الوقود القريبة ثم فوضى عارمة يسيطر عليها شاب في العشرين من العمر.. يبيع خزانات عشرين لترا بمبلغ سبعة الاف دينار ...وجه شرير مجرم بالفطرة كما يقولون ملابس رثة... وجه يغطيه السواد وفيه اصابات جروح قديمة فوق العين وتحتها وفي لحيته واعلى راسه الذي تتدلى منه "قذلة"طويلة تصل الى اطراف انفه تذكر ابراهيم جنديا يشبهه كان يسمونه "كنبرونه"ولايدري لم هذه التسمية ربما مرتبطة "بعرف القنبرة"ذلك الطائر الصغير الذي ياتي في موسم الحصاد للتكاثر بوضع بيوضه في اكداس الحنطة والشعير قبح ووساخة تعم ملابسه ربما لم يغتسل منذ زمن طويل...لارحمن على وجهه كما يقولون ... يصيح بصوت عال يتطاول على القادمين ...كان مضطرا للتعامل والشراء لان الطريق طويل ... فبادره:

– احتاج (٣) جلكان ولكن السعر غال ..

– نظر بعيونه الدقيقة الغائرة في الاجفان (خوالي ناصرية) احرق المحطة بما فيها بعود ثقاب ولااعطي اقل من عشرة الاف دينار .. الاستجابة برضا

وخضوع وبساطة اذ لاوقت للنزاع والخصام لان الفوضى عارمة وهي فرصة كبيرة لهؤلاء في غياب الدولة والقانون وهذا مبتغى الديمقراطية والتحرر الجديد؟؟

توجه الى بغداد متوكلا على الحي القيوم بالتيسير بعد الرضا بما فرضه الصعلوك الصغير ...الحركة في الطريق قد دبت من جديد بعد السكون واول المواقف الصعبة في رحلته سيطرة امريكية(دبابة مع ثلاثة جنود) ، الجندي الامريكي يقف وسط الطريق وقبض كفه باتجاه السيارة (Stop - stop) واشار بالنزول ...

لم يكن يعرف ابراهيم حركة قبضة اليد لان المشوار بدأ توا...

الجندي ضخم وطويل القامة ويرتدي الخوذة وعدة من الامام والخلف وحراب ومسدس فوق الركبة ... فقال في نفسه أهذا (حمار ام حصان) الذي يحمل هذه العدة مع السلاح ...

قال لابراهيم (Open the box)

- فتح الصندوق فوجد خزانات البانزين ...

What is this?

Its gasoline , I need it because of there is no oil station in the way and the street is very long.

What is yuor Job ؟

Iam (Teacher)

ابتسم الجندي مكرا وابراهيم يتفجر غضبا وسخطا لهذه اللحظات وهي الاولى من نوعها ولكنه اعتقد ببساطة ان الموقف لن يمتد سنوات طوال ...

تحرك بسرعة من المكان اذ ان الجنود ركضوا باتجاهه وأنه فريسة دسمة اقتنصها زميلهم .. هو مازال في دوامة وهم او حلم لم يكد يصحو منه ظانا ان كل ذلك لن يدوم اسابيع وتعود الامور الى شكلها الطبيعي ربما كان في سكرة مؤقتة سيصحو بعد وقت قريب ....القوات المحتلة انتشرت بكثافة على طول طريق (ناصرية – بصرة) فلا نجد مسافة كيلومتر واحداً الا وهم يثنون الركب على الارض ويسددون اسلحتهم على المارة وهو يردد بنفسه(ياليتنا متنا قبل هذا وكنا نسيا منسيا...) الخطر محدق بين رتل عسكري في الناصرية التي دخلها ابراهيم وماكان له ان رآها ،(الفرهود) يمتد بفوضى عارمة هنا يتشاجرون ،يصرخون ،يتضاربون بالايادي والاخرى بالحديد ومنبهات السيارات الداخلة والخارجة بشكل عشوائي بل البعض يحمل السلاح ويرمي في الهواء واطفال تسيل الدماء من وجوههم وهم يدفعون العربات المحملة بانواع شتى من مواد يصعب تمييزها بوقت هذا ،،، ووسط كل هذا جماعات اخرى تضحك وتتطاير اوراق الدولارات الامريكية من احضانهم ،انهم يخرجون من مكان قريب لمصرف الرشيد لافرق بين من يحمل اكياس الباقلاء او الباميا او الباذنجان ومايحتضن هؤلاء... على حافة الطريق" ثلاجات و مجمدات و تلفزيونات و كتب

جامعية و حاسبات – وبابخس الاثمان اذن العملية ليست في البصرة فحسب بل ان العراق قد نهب بشكل علني وتحت الوصاية الدولية ..

شعر بالتعب والارهاق على طول المسافة الممتدة لثمانية ساعات متواصلة الى بغداد .. كل المشاهد تغيرت وتبدو آثار الحرب والدمار على كل شيء – المنازل والطرق و الوجوه و الارصفة والبكاء والاذعان لنوبة من الشهيق والزفير خير طريق للتعبير عما يجول بخاطره لاشيء لبغداد سوى همس (عتابك يقتلني ويفجعني ويحيلني الى ضياع طفل خلف امه في متاهات الزحام... فوجهك مطلي بالتراب ... وقترة الحزن تفيض اوجاعا وانينا ... ها انا قادم من وجع الى وجع اكبر)الناس في بغداد سكارى وماهم بسكارى ... الطريق السريع قد غص (بالفرهود)الذي لايختلف عن وصف ماجرى في الناصرية ، الارصفة مبعثرة وثقوب الرصاص في الابواب والشبابيك ووشم الحرب يرسم صورته في ادق الاشياء الحصى والتراب والطيور والشجر ..

بوابة بغداد مرح اشراقتنا وراحتنا ببلوغ حلم طفولتنا وفتوتنا في باب المعظم ،وساحة الميدان ،والرشيد والشرقي وعتاب الحب والغرام والكلمات والمزاح في الحدائق الى ساعة متاخرة من المساء ونحن نطوف في حضرة مساجدها ذات القبب الخضراء والمزينة واجهاتها بمختلف الالوان وخاصة في شهر رمضان اذ نعشق تلك الاصوات التي تتصافح في السماء باجمل القراءات يااللحسرة . قد تربع الاوغاد بدباباتهم على المدخل وقطعوا الدخول والخروج فلا زائرين يمرون وسط ذاك الهدوء مستبشرين بمنائر الكاظم عليه السلام والجميع مهاجرون وخائفون من السخط القادم ---جثث متناثرة هنا وهناك وجماعات يدفنون بها في جنبات الطرق انها مجهولة العائدية يؤمنونها في الارض الى اجل غير مسمى...

من اين الخروج؟ لايدري. وقف تسيطر عليه وحشة غريبة وغيمة الفجيعة جعلته بلا راي ينظر يمينا ويسارا ،ومن جهة اليمين يندفع شابا

- ياعم الى اين تريد؟
- الى صلاح الدين- كركوك-موصل
- طريق واحد فقط (الشعب - ديالى - خالص) وعليك ان تسرع قبل ان يحل المساء فان الشمس قد اقترب موعد غروبها اذ تحل مواجهات غير معلومة المكان والمصدر..

دون ان يطيل تحرك هاربا من المكان الى حيث قال له ،الحياة تشبه مقبرة لايسكنها الا الجان ... دموع السماء ترسل توسلاتها بحرارة والارض تلفظ بفمها الممرغ كل الجثث الحية والميتة .. والجنود الامريكان والحلفاء كما يقولون يرتدون ملابسهم وعدتهم العسكرية التي لم نألفها وتصرفاتهم الحيوانية التي لاتنم عن امريكا التي كنا نسمع بها وبثقافتها ...آليات محترقة ... و آليات تحترق ... بنايات ساقطة على الارض ..سيارات طرقت على الارض بالمدرعات ... انها قوه قاهرة لم يتسن لاحد في الكلام عما يجري ...

معركة المطار هي ذلك الدرس العظيم والكبير الذي لقنه الابطال للامريكان واشارت التقارير انها حسمت بالاسلحة المحرمة دوليا لصالح القوات الغازية عفوا (المحررة) يالضياعنا وخيبتنا ....لاشك ان الجماهير في العراق قد تفرقت على هذه المرارة بين مؤيد ورافض .. فالمؤيد للاحتلال لابد ان له مصالحة قاصرة والرافض لابد له مبرراته الخاصة كذلك .. وفي كلتا الحالتين فان الاحتلال لايؤيده عاقل او غيور..

مدينة البرتقال تجدل ضفائر سعفها بالدخان كذلك ولكن خابت الاسطورة (ثلثين الطك لهل ديالى) سبات يقبع بالناس في دهاليز خافرة تحت الارض تحت السقوف لافرق انهم موتى ولكنهم احياء...

سيطرات عديدة وبتفتيش دقيق وطلب الهوية ... وبمساعدة مترجم جاء معهم فوق الدبابة يتمكن الناس من التفاهم وعبور الخوانق النارية التي صنعوها ...المشاهد لاتختلف كثيرا في محافظة ديالى عما يحدث في بغداد وغيرها...

وقت متآخر من النهار يصل ابراهيم سكنه سامراء- الاطراف ويستقبله اهله بالدموع واخبروه انه أخر شخص قدم الى المنطقة ...واجاب الى نفسه بل انا آخر مهزوم من معركة تم تسليم البلاد الى الابد ...كان مزاجه متعبا فلم يتحدث لهم عن المأساة والهموم التي مر بها مع كثير من العراقيين ...

زاره العمام والاخوال والاصدقاء ... وكلهم قالوا ((الحمدلله على السلامة)) وهو يشكر وفي ذاته حديث ضميره يقول (اي سلامة هذه التي تطلبوها لي ولكم ... لاسلامة بعد الآن فالليل قد اغطش عليكم السلامة ... فهيهات ان تروا راحة بعد يومنا هذا ..)

انه التاريخ الذي لن يرحمنا ... وقد جنينا على اهلنا وابنائنا وبناتنا ويكلمه اخوه

- مالي اراك صامتا؟

- يفزع لاشيء اجد نفسي مرهقا بعض الشيء - فسأذهب للنوم ... اعتذر من الجميع ودخل الى غرفته ونظر الى الجدار واذا بصورته العسكرية مع

زملاءه وراح يحدثها"انتهى كل شي ولامكان لك بعد الآن على هذا الجدار ...انتهت مسؤوليتك ... ها قد وضعت الحرب اوزارها لصالحهم وعملائهم وجواسيسهم...غرفتك كما هي لم يتغير من وضعها شيء الاثاث الزهور الصور الجداريات انها تحكي الماضي الذي لن يعود"

بات ليلته بين عياله ولكنه يشعر بضيق خانق...استذكر زملاؤه الضباط ومن بينهم محمد –لا احد حوله باتوا تاريخا مطمورا في واد سحيق بل جثمانا مقبورا يواريه التراب يعوده كلما اشتاق النواح كأم ثكلى تلطم خدودها بين حين وآخر من عمق جرحها ...نعم كل الذين عرفهم مروا في زحام الحرب ... ثلاثة اشهر تمر بأقسى ساعاتها.. كان مدمنا على الصمت لايعرف ماذا يفعل ،يسمع الاخبار باستمرار ويأكل قليلا تمر موجات امنياته فوق مخيلته تنظر له ماسيفعله لو امتلك قوة ضاربة ولكن حين يعود يتأكد بانه حلم في يقظة بائسة لاامل لها سوى خزعبلات متهالكة تزول بالعودة الى الواقع بمحاذاة الخطوات الامريكية الجديدة في تجنيد الشرطة والجيش بعيدا عن الجيش السابق وحل لوزارة الدفاع ... لابأس كل شيء ممكن ... وماذا بعد .. يتحطم نفسياً يوما بعد أخر انه يشعر بالمرض واليأس والاحباط بل غير قادر على أي عمل سوى كتابة نصوص من الشعر ونصوص من القصص والذكريات ..والحقيقه المرة لم يدركها او يستوعبها بعد بل لانها احلام غريق بين امواج المحيطات...يا الهي اي آسى يراوده ...على هذا قرر ان يخرج الى الشارع العام ليرى ماذا يجري يومها شاهد الدبابات والمدرعات الامريكية تمر بسهولة ويسر في الطريق والجنود يلوّحون بايديهم علامة النصر وابراهيم يشعر لا احد مقصود بذلك سواه ؟؟؟

كان شديد الحزن وسيارته تجري بقلق لايختلف عن قلقه ،قريبا سيطرة امريكية اوقفهم الجندي بالطريقة ذاتها التي شاهدها يوم خروجه من البصرة ،قبض الكف باتجاهه فراح يسألهم عن طريق المترجم الذي اعد لهذا الغرض عن المنطقة وطبيعتها واشخاصها وهل فيها فدائيو صدام ؟

كانت الاسئلة غبية والاجابات غير مقنعة اذ لاعلاقة للمسؤول بمايطرح وبعد سلسلة من الاجراءات سأل المترجم ومن اين انت ؟

- من بغداد حي النضال

- ولماذا انت ملثم؟

- اخشى ان يعرفني احد

- ومن يعرفك ؟

- بعض اهالي بغداد قد نزحوا الى صلاح الدين وربما الصدفة تلعب دورها

- هل تشعر ان عملك هذا عيب او ذنب تقترفه؟

- نعم ... ولكن الدولار الاخضر..يغري

- هل الدولار اعز من العراق؟

- العراق ذهب مع الريح

- اتعرف ان الذي باع العراق فكر بالطريقة نفسها؟

– ابتسم المترجم بخبث بعد ان نزع اللثام وتأكد انهم ليسوا من اهالي بغداد ... على الرغم ان الحديث ازعجه.

الامريكي الاسود ابو (شوته) كما يسمونه يصرخ Go - Go

السيارة بهدوء تزحف في موكب السيطرة المذهل من الجنود والمعدات كل شيء تغير معالم الطريق والاشخاص ونفوس الناس والمعادلة مزعجة كثيرا وطاف بافكار كثيرة ودقات قلبه يمكن ان تحصى بلا ضغط فوق الشريان فهي تسمع مع الشهيق والزفير الذي يحرس تلك الخلجات ببؤس وشقاء...

وصل داره يلازمه الامساك عن الكلام وهرع اطفاله راكضين اليه يحلمون بقطع حلوى يحملها لهم او ملابس جديدة يتباهون بها امام اقرانهم لكن الوجوم يظله كغيمة ساخطة في موسم الامطار...مع كل هذا ابتسم قليلا حينما حيته زوجته وهي تحمل طبق الطعام المتواضع لكنه ينظر اليها بقلق وريبة وضجر ..

– لااشتهي شيئا ...يبدو جزما ان العملية الجراحية ستبقى مفتوحة... نعم تبقى مفتوحة

– كفى منغصات العيش ... لاتضحك .. لاتتكلم ... لاتبتسم.. ولاتأكل ... فحقنا عليك ان نعيش كما يعيش الناس

بهدوء استل نفسه من الفراش وخرج طالبا اليها تركه بالوقت الحالي لان المزاج متعب لكنه سرعان ماعاد داخلا واضطجع غارقا بنوم كالميت...

خطوات جديدة ونهج آخر بدأت به القوات الامريكية بالتفتيش والمداهمات الليلية ...كم كان يخشى إبراهيم ان يدخلوا داره بحثا عن الاسلحة ...لكنه لايملك سلاحا ... سوى شفاه القلم والقراءة المتواصلة (ربما يكسروا القلم ويحرقوا الاوراق والكتب)ان الاسلحة لدى الشعب جاءت من فرصة فتح الذخيرة العسكرية ونهبها من اماكنها الى البيوت او في الحقول الزراعية ... ومن البورصة التي فتحت في تكريت – سامراء – بلد – الدجيل.

استيقظ على ذات الهموم اغتسل وتناول قدحا من الشاي عازما المرور ببورصة الاسلحة يشاهد بيعها بكافة الاشكال والاحجام ... ينظر الى شاب في العقد الثاني وهو يتقلد شريط (BKC) واخر في عمر (١٠) سنوات يحمل بندقية واعتدة مختلفه واللطيف المحزن ان ذلك على مرآى من قبل القوات الامريكية وحلفائها الاجانب والعرب.. لقد كان (القجقجية) كما يسمونهم يصل عددهم بالعشرات او المئات وبلا مبالغة...

بورصة الاسلحة راحت تختفي من العلن الى السر يوم بدأت القوات تتعرض الى الضربات الموجعة التي يصفق لها الجميع الا الثعالب الماكرة... حتى ان دوي الرمي بالهاونات بات لايتوقف حتى الصباح ... ولكن الطيران راح يصول ويجول والمداهمات تنتشر بشكل فظيع وابراهيم – بدات حالته النفسيه تأخذ استقرارها الى حد ما وقبول الواقع الجديد بل والولادة والنهوض من الكبوة والشعور بضرورة المشاركة دون خوف لان هذا الوقت للصادق الامين لا للخؤن الذي سلّم كل شيء قبل المعركة ...

الاعتقالات هي الانموذج الجديد للدفاع عن الوجود الامريكي في قاعدة بلد والبكر في يثرب (وحليج الذيب) في الضلوعية ، الساحة بدأت تسخن حرارتها شيئا فشيئا ... انها صفعة عراقية لم تتوقعها القوات الغاشمة ...

توقعوها فقد شبت بوارقها بعارض كصريم الليل مدجون

بدأ يقهقه بأعلى صوته ويبتسم ويزغرد احيانا لانه يبتهج بهزائم الاوغاد في كل ليل يمر...حل العيد الاول ... ابراهيم يخرج بسيارته لشراء بعض الحاجيات ويعود في الساعة الثانية عشرة ظهرا بوقت قصير ينظر بمرآة سيارته واذا بالمدرعات تتبعه بسرعة فائقة.. توقف على مقربة من داره وحال وصول المدرعة الاولى تم اطلاق الرصاص على السيارة وتحطيم الزجاج ...كان الصوت مرعبا ومخيفا

لم يفهم شيئا. ما الذي يحدث ولم ير من هذا القبيل سابقا

يفتح الباب نازلا وينقض عليه الجندي الامريكي ضربا دونما اي تفاهم وصل المترجم وساله عن اسمه وعمله الحالي ...

- لاعمل لدي

وباشارة من المترجم قائلا:

- سيد "ماك" هذا المجرم - الارهابي

- اي مجرم اي ارهابي لايعرف شيئا عما حدث اقتادوه في حوض المدرعة وعصبت عيناه الى المجهول وبعد ساعة من الوقت وصلوا به الى المعسكر الامريكي ...

تعرض الى الركلات المتوالية على الوجه والصدر فلم يبق جزء الا ومسته ضرباتهم ،اليد مكبلة مع الارجل لافرق كلها اعضاء تعود لابراهيم سعدون المجرم كما اطلقوا... دخل الى مكان لايسمع به همسا ولايرى شيئا...فتح الجندي عصابته وتركه... القاعة طويلة ،الضياء ضئيل ينزل من شبابيك عالية ... يبادر له احد النزلاء ماالذي اتى بك:

- يقولون مجرم ارهابي

- وهل انت كذلك

- نعم لاني عراقي ... ياصديقي انا مريض ... ومتعب

- اصبر ... اصبر .... انا هنا منذ شهرين ولم يتم التحقيق معي

-اللهم صبرك على مصابنا الذي نحن فيه

توافد المعتقلون الى ضيفهم الجديد ولابد ان يكرموه فاعطوه الماء ... وبقايا طعام خزنوه في زواداتهم المخفية عن نظر الجنود...

الساعة العاشرة مساء...الجندي الحرس يجري التعداد مع ثلاثة جنود آخرين مع المترجم العراقي ... كلما نادى اسما ركله الجندي الامريكي بقدمه او ضربه بيده لافرق لديه بين الصغار والكبار والشيوخ العدالة في الذل متساوية

قضى شهرا كاملا تعرض لاصعب العقوبات الجسدية ففي احد الايام عاد من العقوبة من الساحة الخارجية يتقدم المعتقلين للدخول في عتبة الباب وفي حين هو مسترخ واذا بلكمة قوية على رئتيه افقدته الوعي وسقط على الارض موجهة من قبل الجندي الحرس اذ كان مختبئا خلف الباب

بداخل السجن والذي ضحك عاليا وصف بقية المعتقلين على الحائط رافعي ايديهم الى الاعلى ووجوههم ملصقة على الجدار ...

مازال مغشيا عليه ودعا الحراس على الوليمة بقهقهات عالية وبعد وقت ليس بالقليل غلق الباب بعنف سحب السلاسل والاقفال السوداء والصفراء ... قائلا : Good - Good اجتمع المعتقلون حول ابراهيم وضغطوا صدره ودلكوا أعلى كتفه حتى استعاد انفاسه بصعوبة شيئا فشيئا – غادر المكان بعد الشهر ... بدرس قاس لن ينساه مطلقا...لاصبر ينقذه مما هو فيه ...ولينظر ماذا تخبئ له الاقدار

(٩)

الوطن مباع والدم مباح والليل القادم اشد ظلمة واكثر يأسا

رغبة جامحة ان ينسى ابراهيم موقف اعتقاله مع خمسين آخرين ...في النهاية سيحلم وحلمه لايبتعد مطلقا عن الواقع الذي اصبح جزءا لايتجزأ من حياته ولصيقا لمخيلته المتعبة التي تسجل الاحداث لحظة بأخرى فأقل حرج ممكن ان يتعرض له عدم قدرته على حماية من جاء لزيارته وقد يكون عرضة للاعتقال كذلك ...ويتذكر تلك الحكمة القائلة "اذا كان صاحب البيت جبانا واللص جريئا فالبيت ضائع" هذا مايحصل معه لان المحيط خائف وراكع لسلطان الترسانة الحديدية وراضٍ بالخنوع والذل وهو يتشبث بلا جدوى وهكذا لعدد كبير من المناطق التي تنقل فيها مرغماً...

لقد فكر في طريقة يمكن من خلالها ان يقتل الوقت على اقل تقدير وينتهي من الفراغ ، مشروع عمل يسعفه من الوضع المزري وآلة الحرب المدمرة المحيطة بكل مكان، ذهب الى احد الاصدقاء للاستعانة به للبحث عن عمل يمكنه كسب لقمة العيش او باقل تقدير يكف ألسنة الواشين عنه ... وصل باعجوبة عقب مداهمة امريكية (لسعة العقرب) وهي مكملة لـ (زئير الاسد) و (الكف الحديدي) و(الكف الاسود)(قبضة الافعى) كم انهم حيوانات غاب رعناء واسماء ما انزل الله بها من سلطان يرهبوا بها مسامع واذواق العباد ولكن هكذا هم على الدوام ولعل المنازلة التي غرق بها العراق لاتاتي الا بمنازلة اشد جحيما واكثر تضحية وما يعزز ذلك (مايسلب بالقوة لايستعاد الا بالقوة)...

نعم ان المسكنة والرضا بحثالة الشعير رغيفا لايرتضيها الا العبيد... والعبودية لاتصلح الا لله انه مطر من العزيمة ينزل بسحابه فوق سطور مخيلته وهو يجر خطاه الواثقة الى الموت وفي حين هو كذلك رأى ورقة قد اتسخت على الرصيف فالتقطها بيده واذا مكتوب فيها "مارأيت شيئا يسوق الناس الى الحرية بعنف مثل الطغيان.فولتير...أعاد قراءتها مرة اخرى ، واخرى ، واخرى حتى ابتسم – يالسخرية القدر مابالك يافولتير تصادفني هنا هلا تعرف حجم ما انا فيه طوى الورقة بحركة سريعة قبيل المرور في سيطرة شرطة قريبة ووضعها في جيبه ثم جد في سيره لواذا من اعين المارة او المخبر او المصادر او السيطرات المفاجئة او نيران الارتال العسكرية ..

عند باب صديقه طرق الباب ... تخرج امه العجوز في العقد السابع من العمر

– تفضل امي

– انا ابراهيم جئت الى سالم بعمل

– انفجرت على المباشر بدمع غزير

– ماالقصة ياخالة؟

– امس اعتقله الامريكان بتهمة الارهاب ولا اعرف طريقه اين

بصمت

– يخرج بالسلامة ان شاء الله ... غادر المكان والخيبات تلاحقك اينما تحل ... هكذا يردد مع نفسه

دخل السوق البسيط ببنائه متأملا الوجوه التي يزدحم عند قسماتها الوجوم المفرط والاجساد ناحلة من كثرة الهموم وقسوة الحياة التي جارت عليهم هنا طماطم وبطاطا وخيار يجتمع الناس يجادلون في رقم الاسعار وعلى مسافة مئة متر قصاب يجلس على كرسي عتيق يعلق شاتين من الاغنام على عقلة من الخشب لايمرعليه احد ينتظر من يشتري ولكن دون جدوى وقف عنده ناظرا الى الجثث المعلقة "الميتة"المنحورة بالسكين كيف تحولت الى لحم مقلوب الراس الى الاسفل يحدث بهمس "هكذا نحن بلا راس ميتون كهذه الشاة نعم قتلونا بالنار واطفالنا وشيوخنا ومساكننا كم نحن مساكين – يالحسرتنا وبين الخطى المتأودة يمينا وشمالا واذا بصديق قديم كان معه في الجامعة – وقد نسي اسمه يندفع اليه:

– السلام عليكم كيف حالك يابراهيم

– عليك السلام

بدا على ابراهيم الحرج لانه نسي اسمه اذ خلت سنوات من الفراق ولاقى ما لاقى من ويلات لقد كان من اعز اصدقائه..ولكن الاحداث التي مرت قد اضاعت عليه كل شيء ... واحس صديقه بذلك قائلا انا (احمد طاهر) كنت معك في الجامعة

–نعم احمد ... احمد ... احمد واحتضنه اهلا وسهلا بك ياصديقي

– ارسى الشيب في مرفأ الشباب وبدأ رحتله معك

– وكيف لايبدأ وايامنا في رحلة عذاب

- ماتعمل لاشيء ابحث عن اي عمل

-ضحك .. اي عمل؟

- نعم اي عمل ...؟

- عميل مثلا...!

بابتسامة

- موافق مستدركا اتزانه لا يااخي ... ضحك الاثنان سوية.. فشعر بالارتياح

- وانت ماذا تعمل ...؟

- انا أعمل في منظمة للدفاع عن حقوق الانسان

- وماواجبكم

- رصد جميع الانتهاكات ومفاتحة الجهات ذات العلاقة داخل وخارج البلاد

- هل بالامكان ان اكون عضوا معكم؟ - وهل هناك مبالغ مالية لتيسير امور العمل؟

- نعم ولكنها قليلة لاتكفي حجم المهمة

- انا ابحث عنك منذ زمن وتناقشنا انا وسالم خليل بالموضوع قبل اعتقاله

- اعتقاله؟

- نعم مررت الى بيته واخبرتني والدته

- عموما ان شاء الله سيخرج قريبا ولكننا لن نتوقف غدا تكون في مقرالمنظمة وهذا العنوان بهذه الورقة

- حسنا الساعة (٩) صباحا ساكون عندك .

عاد ابراهيم وقد شعر ان جزءا من العناء سينتهي حينما يكون فاعلا في خدمة الناس والوطن ذلك الوطن الذي تمزق على الطريقة التي يراها الامريكان - الاستعمار الغربي بحلته الجديدة التي تروق للانتهازية وبائعي الضمير في سوق النخاسة - وقد لاتكون الحلول في متناول اليد ولو عملت ليلاً ونهاراً فالفرد الفاعل هو عين الحقيقة وكلما ازداد صفاؤها في الرصد فقئت لانها ربما نضيع بها مصالح اشخاص كثيرة وقد يعترض عليك اقرب الناس ...

كانت لغة ابراهيم في حديث مع الشمس مختلفة لان ماسمعه من زميله قد اعطاه فسحة امل اخرى بالعودة فالهزيمة الاولى كانت عندما كان مشتاقا ان يكون ضابطا في الجيش العراقي وتحقق ذلك ولكن الذي جاء من اجله تبين مجرد كذبة وتلقين لايختلف عن الميت الذي لايعلم حاله الا الله ...الشمس تقترب الى الافول ورف الحمام يمر باتجاه الشجر البعيد متواريا خلف بساتين غطاها السواد قبل ان تنشر الدنيا غلالتها بالمغيب لربما تكون الاحلام كاختفاء الطيور في المجهول - ها قد تكون يا ابراهيم كذلك فعد عدة الموت قبل الملابس التي تود ارتداءها...

قطع سلسلة افكاره مازحا مع اطفال القرية وهو يمر ماشيا بل متصابيا ويلعب معهم امام الدار في كرة صغيرة وهم يضحكون ،يقهقهون حين يسقط على الارض ثم ينهض مداعبا لهم ،لجلب السرور ..

الاذان صدح من الماذن بعد وقت قصير لينشر نفحات الهدوء اركان القرية عدا بعض اللافتات الحمراء والاصوات والمنبهات ايذانا بحظر تجوال او غير ذلك اذ كان غير مهتم بكل هذا او لايريد ان يسمع ،الصلاة حان موعدها ليغطس في رجاء عبد يؤول الى النهاية حتى فرغ الى العشاء على ضياء فانوس معتم لان الكهرباء ناءت بعيدا عن حياتهم وانقضى الليل كعادته الا انه يشعر بشيء من السعادة ،الصباح فرش بياضه في صحن السماء مرتعشا من يقظته طاردا الظلام وارتدى ملابسه المتواضعة (بنطال وقميص)

وتسال زوجته:

-الى اين انت ذاهب؟

- ساعمل في منظمة للدفاع عن حقوق الانسان

لم تعلق كثيرا لانها تشعر انها عاجزة امام قرارته الصارمة حتى تتهمه احيانا بالديكتاتورية ؟

- يبتسم لعل الله يفتح علينا خدمة الناس الجريحة

تناول الفطور وتوجه الى مقر المنظمة قاصدا المكان الذي حدد له ولكنه لم ينس انه يحمل في جيبه مقولة فولتير؟؟؟الشارع العام خال حتى ظن انه ثمة

حظر تجوال و ينظر يمينا وشمالا -الحمدلله اليوم لاوجود للامريكان على الطريق ...شيء من الاطمئنان وهو يدندن مع نفسه "بغداد والشعراء والصور..لم يمض وقت طويل حتى قابله رتل امريكي ثم تفجير عارم امامهم وبدأوا الرمي العشوائي؟؟ذلك من سوء حظه واستغرق في الدعاء طالبا النجاة والسلامة وخرج من المعركة سالما ،كان وصوله بعد مرور اربع ساعات ودخل الى زميله احمد معتذرا واثار التعب والارهاب تبدو جلية واضحة على ملامحه قائلا:

-الموضوع ليس في يدي فقد حصل ماحصل في الطريق امريكان وتفجير وتفتيش ...

- بسيطة لامشكلة اعتدنا على ذلك

نظر ابراهيم الى مكان وغرف المنظمة مكتب لرئيس المنظمة ودواليب ... وكاميرات تصوير وحاسبة وارشفة وفايلات منظمة وسجلات معدة لهذا الغرض ...

مع وجود بعض الاعضاء من الشباب والشابات ... واهم ماجلب تركيزه انهم يضحكون ويتمازحون ويشربون الشاي وان حياتهم شبه ان تكون طبيعية ..

ربما جاء من وحشة الخدمة العسكرية ورواسبها وارث القرى والاحتلال ومخلفاته وماتعرض له من ظروف صعبة جعلته حساسا حد الانتقاد اللاذع وكانه يتمنى ان يمارس الجميع طقوس الوجع الجاثم في مخيلته ، جلس على الكرسي الحديدي ماسحا وجهه قائلا :(الحمدلله .. لربما سأجد

شيئا من ابراهيم الذي ضاع في زحام الزمن وعناده – تم تعريفه على زملاء العمل وطبيعة المسؤولية ثم تقديمه لرئيس المنظمة وشرحَ موجزا عن اخلاصه وتفانيه فضلاً عن للمعلومات التي وافى بها مسؤولهم بمطالعة خاصة ...

بادر احمد بعد ان منحه فرصة للاطلاع على المنظمة وهيكليتها : ماذا تحب ان تعمل

-انا احب ان اعمل في رصد الانتهاكات

-انا موافق ... ولدينا كامرتين نوع (Sony) للتصوير الفيديوي وكاميرا فوتو ميركوري ...كان العمل سريعا ومتواصلا فلم يمض وقت طويل وقد صدرت له هوية (عربي – انكليزي) وضعها بجيبه يمكن المرور بها من خلال العثرات التي تملأ الطريق وربما تقتله فهي مجازفة ذات حدين واولى المهام التي اوكلت اليه تقرير مفصل مصور لبيت مدمر في ناحية(؟) من قبل رجال التحرير غادر المكان بوداع حار متاملا انه سيحقق انجازا تاريخيا كبيرا هكذا هو في كل مرة اعتاد ان يكون حقل تجارب...

عاد من حيث وصل بعد معاناة لاتختلف عن سابقتها ،حتى ان زوجته قالت له ماهذا البِشر الذي يعتريك الحمد لله انك تبتسم وبادرها اليوم بدأت العمل في منظمة حقوق الانسان وهذه الكاميرا زودوني بها لتصوير بعض التقارير ،فغرت فاها ماذا تريد ياابراهيم هل تريد ان تدخلنا في مشكلة كبيرة وماذا لوجدها الامريكان ستذهب "ستة باسود"

-لا.. نخفيها عند المساء وفي النهار ابرز لهم الهوية

- من يقرأ من يكتب

- موجة عارمة من الضحك لقد تذكرت قصة خرافية لجدي في العصور الغابرة

- بابتسامة عريضة "افيدنا افادك الله "

- عاود ضاحكا ثم ابتسامة"عقد ابناء آوى مع مجموعة من كلاب السلق اتفاقا مكتوبا بورقة مفادها ان لايتم الاعتداء فيما بينهم واحترام قوانين الغابة ولعل المستفيد من الموضوع "ابناء آوى " لانهم مشردون خائفون جبناء على الدوام وفي صبيحة اليوم التالي شعر ابناء آوى براحة تامة يتنقلون على مشرق الشمس بيوم بارد ولكن السلق لم يحتمل ذلك فهرعوا باكملهم خلفهم فهربوا وفي شدة الركض يلتفت احدهم الى المسؤول عنهم اخرج اوراقك "ابو الحصين"ويقصد الاتفاقية فرد عليه – من يقرأ من يكتب

فاذا كانت السوداء مثل البيضاء غدا الميدان سوق "الفرة" اي اذا السلق الاسود كالابيض في الركض فغدا نذبح وجلودنا تباع في سوق "الفراوي"

هنا انفجرت زوجته بموجة اخرى من الضحك لم تكد تصمت لحظة حتى تنفجر من جديد بعد قليل يعاود الجدل بغيوم ضجر تخبث صفو الخواطر وتزيد القلق...

***

في اليوم التالي توجه الى مكان الحادث والتقط صورا مميزة مع تقريرقل نظيره مع انه للمرة الاولى يكلف بمهمة كهذه ولكن الجرة لم تسلم كل مرة فقد

واجهته سيطرة على مقربة من المكان ... Stop - Stop المترجم يندفع بسرعة

-هويتك

- سحب البطاقة التعريفية الخاصة به

- ماهذه الكاميرا

- تعود لمنظمة للدفاع عن حقوق الانسان وانا احد اعضائها

- نظرة ساخرة ومن قال لك

- عفوا انها منظمة رسمية

- اين الباج الخاص بها

-سحبه من المحفظة ودسه بيديه

- ها واضح واضح ...

هات الكاميرا.. وراح يقلب بها امام العريف جون كما قال ...

تظهر صورة لبيت محطم مع السياج الخارجي واثاث وابواب ملقاة على الارض وغرفة اخشاب صاج

جون - يفتح عينيّه بقوة ثم يغلقها (What) والمترجم ينظر الى ابراهيم بحقارة شديدة ماهذا البيت ماهذا الخراب؟

– انه بيتنا قرر ابي ان يرفعه ويعيد بناءه لانه صغير لايكفي العائلة ،ولكن المترجم

لم يقتنع وشرح للعريف جون ثم يستدرك جون:

– اعتقد انه مراسل الجزيرة يرد بسرعة

– لاعلاقة لي في الجزيرة انها منظمة حقوق الانسان ...

اوقف في الشارع العام لوحده وتم مناداة الضابط ... الذي يقود المفرزة وخلال ثواني وصلت المسرفة التي تقله ... نزل ضاحكا .... الجزيرة ... الجزيرة اخذ الكاميرا وراح يقلب كذلك .. وبعد صمت ... حدث نفسه ابراهيم ...لاتصدق نفسك ستنتهي معاناتك فهؤلاء القردة والخنازير – العلوج كما قال الصحاف لايرضون ان تضحك عليهم انهم يدققون ويحصون واصبحوا كخلية نحل ولكنهم لايمنحوا احدا شهدا بل الحنظل والمرارات والوجع هو ديدنهم ... كانت رائحة المكان نتنة جدا وهم يحملون مشروبهم ويرتدون ملابسا وعددا لم يرها في حياتهم العسكرية ... بادر الضابط ... ذا الوجه الاحمر الذي لايختلف في الشكل والمضمون عن الجنود رافعا يده بضربة خفيفة وابتسامة سائلا:

– هل تعرف احدا من الارهابيين ...سنكافئك

– انا رجل مثقف ومتعلم ولاعلاقة لي بهذا الفعل ...

– هل تعرف كيف يصنعون العبوات الناسفة ؟

بصمت وغضب كبير ... وبخوف وحذر ...

- اي عبوات ناسفة ...؟ لا علاقة لي ولااعرف احدا ابدا ..

يلقي الكاميرا اليه باستهزاء ...

قائلا (crazy) أي مجنون؟

المترجم:

- من هو المجنون

هو ووالده الذي يهدم الدار ويعيدها

لم يسيطر على نفسه وقد تغلغل الخوف الى داخله واستذكر الاعتقال الاول وهاهو يعاني المطب الاخر.. ويقول ((غبي انت ياحضرة الضابط لانك بالامس كنت البديل عن ابي في جعل هذه الدار انقاضا .. آه لو تعلم ان هذا فعلك المصور ستنزل بكل امريكا وسخافتها سألقى في السجن عدد سنين .. ابتسم قليلا ..

دفع عريف جون على صدره :

- Go - Go ركب سيارته واندفع مع الريح غضبا ماسكا الكاميرا في اليد اليمنى واعطى امر(Delete)على تلك الصور لان ثمَّة سيطرة بانتظاره على مسافة (٣٠٠) مترا التي اجتازها بلا تفتيش مع انه غير متوقع الوقت سيمر بسلام ...كتب تقريرا مفصلا بالموضوع .. في اليوم الثاني اوضح الاجراءات المشددة للامريكان بدأت ثمة تقارير اخرى تكتب عن المنطقة لاسيما ان الامريكان قد فتحوا افاق التعامل مع الاخرين بغية كسب ودهم والحصول على معلومات تقنع التحرك دون الوقوع في خسائر اكثر ...

ابراهيم لم يثنه كل هذا فقد زاد اصراره وتفانيه بهذه المهمة ظانا انه يتمكن ان يدافع بشكل او بأخر عن الحيف الذي وقع على اهله ... استمر داخلا من المنظمة وخارجا بشكل يميزه عن الجميع ويدخل في مؤتمرات خاصة بحقوق الانسان داخل وخارج المحافظة ... وفي احد ايام رمضان المبارك واذا هو مستلق في بيته يقرأ في الاتفاقية الدولية لمناهضة التعذيب وبعض الكتب والمجلات الخاصة بهذا الشأن يدخل عليه احد الزملاء قائلا :

- السلام عليك كيف حالك

- عليك السلام في الحقيقة انا متعب

- اذن انهض بسرعة ثمة كارثة كبرى في ناحية يثرب

- ماذا؟

- كارثة وماهذه ان شاء الله

- مفرزة تقتل ستة افراد وتحرقهم بالجحيم...

وقف ..

- لا اله الا الله محمد رسول الله ... الهي ... الهي ... نحن على بابك فالطف بحالنا ...

- استل كاميرتك وسجل تقريرك كالسابق عن الحادث واسبابه فقد اعجب الرئيس بماكتبته في الايام السابقة واذا امكن ان تواجه مسؤولا امريكيا لعله يعطيك تفاصيل اكثر عن الحادث؟

ارتدى ملابسه وخرج من بيته مسرعا لعله يتمكن من ان يعرف المكان والزمان والاسباب وحال التوجه في طريقه من سامراء الى بلد واجهته الكثير من السيطرات الامريكية التي تبعث الريبة بالحواجز والرمي في الهواء وعشرات من افراد الحرس الوطني العراقي الذين تم تجنيدهم للتو يبالغون في تنفيذ الاوامر لغرض مساعدتهم في مهمة القضاء على الارهاب والاصح القضاء على العراقيين العزل...ابراهيم اخفى كاميرته عنهم لان استخدامها في الرصد قد عرضته لكثير من المشاكل لان تغييب الشهود من اولويات مهمتهم وكما قال النبي الاكرم صلى الله عليه وسلم (استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان ..)وصل يثرب مع ناشط آخر ... وسأل عن مكان الحادث احد المارة وهو يتمتم مع نفسه بهوس مايحدث من ظروف صعبة فرد عليه تستمر في الطريق وبعد مئة متر تستدير يمينا وبمقدار كيلو مترا ثم اليمين تجد مكان الحادث غادر الرجل يهز يده وتبدو عليه علامات نفي عن تعاسة المرارة والذل....

المهمة عسيرة نظرالى صديقه قائلا:

- هل بالامكان ان نحصل على معلومات كاملة حول الحادث بظرف عصيب كهذا لاسيما ان الطائرات تحلق فوقه؟

- سنحصل ان شاء الله ،توكل على الله .. وفي منتصف المسافة ثمة زخم جماهيري مهيل لافتات تندد بالاحتلال باللغة العربية والانكليزية وتراجم الاصوات تزاحم عمق السماء ، تتقدم هذه المظاهرة او التشييع او التابين سيارات تحمل الجثث الستة يوقف سيارته ويخرج كاميرته"فديو" يصور

مشاهد الصخب الغاضب ... الضجيج الذي يملأ الفضاء عتابا ... يمينا نساء تنثر الدمع مع الحلوى (لا اله الا الله محمد رسول الله)...

استدار معهم متجها الى المقبرة المسماة (ليلة) او (ليلى) التي تقع على مرتفع عال وهي غارقة بالرمال والمنحدرات وتحيطها من جميع جهاتها اشجار الحمضيات والنخيل والاثل وغيرها انها نعمة كبيرة في زمن شح الامان والكرامة الخضرة والاطيار تدلل على شيء آخر يناقض الافراح انها صكوك موت موزعة مسبقا من جحافل السوء التي تتخلل بكل زاوية في القرى والقصبات النائية... الجو مشحون بالم وكلمات مجروحة لاتلتئم الا بيد قادرة على ان تفك الاغلال التي تأسر الجميع اصوات تتعالى—تسقط امريكا وحلفاؤها-انها حرب صليبية – لااله الا الله محمد رسول الله – نحن قادمون الموت لامريكا وحلفائها – يكفي جرائم يابوش ، شعارات لاتحصى مع انسياب العجلات في الطريق الذي يشتد وعورة كلما اقترب المشيعون من المرتفع ... ستة شهداء شباب من عائلة واحدة دماؤهم لم تجف ياللفجيعة والبؤس والشقاء ...كانت المئات المحتشدة من البشر يتطاير الشرر من بريق اعينهم ويتوعدون الامريكان بالكره والمواجهة...

يرقد في "ليله" المئات من بني البشر منذ عقود قديمة فلاتكاد تمل عينك وانت تبحر بتلك الصفوف المنظمة من الموتى خاشعين خاضعين دون ادنى حراك تحت ثراها البارد -الساخن ، صمت مطبق وادب عال دون ان ينبسوا بكلمة واحدة بيوت طينية واخرى من الطابوق والحجر او الاسمنت وقطع المرمر التي تؤرخ الولادة والوفاة ومكان الحادث وجميعها تنتهي بالفاتحة ...ياله من مشهد كيف ينقضي وقت الاقامة والنوم الطويل دون ان ينظروا مايجري بهذا الكون من مخاطر جمة ، قبور اخرى قد ابتلعت بفعل الامطار

والتعرية في باطن الارض ولم يبق سوى اثر بسيط فوقها كانت الدموع والحزن والوجوم يشد عنانه فوق الوجوه فاكثر المشيعين يتنقلون في جنبات المقبرة رافعي اكفهم داعين لموتاهم بالرحمة والمغفرة ، بعض الاهالي قد زرعوا شتلات ملونة حول القبور انهم يصنعون بعض الامل والتواصل لعزيزهم وبشكل خاص الشباب الذين ودعوا الحياة مبكرا وتنتشر امهات وزوجات هنا وهناك بسوادهن القاتم ينعين الاعزة وهم مسافرون بلا عودة ،لقد كانت عدسة الكاميرا تؤرخ كل هذا دون أي ملل او كلل ...طائرات تحلق فوق المقبرة محملة بالجنود تتحدى الجميع واحذيتهم(البساطيل)الخاكية تتدلى من اعلى فوق الجميع يشهرون اسلحتهم خشية من هؤلاء العزل الذين ينعوا مصابهم الجلل...كان الطريق يغص بالمسرفات ..بالحق لا حول ولاقوة الا بالله... انزلت الجثث الى معادها الاخيرفي الارض وتقدم الامام بصلاته ونشيجه ودعائه الذي لامس الجروح واغضبها ،تم التقاط الصور وبعض اللقاءات واستفهام عن سبب الحادث وبعد ان انهي الدفن لتجف عظامهم في الرمال من بلل الدماء بالموت القسري وتحت التعذيب تم التوجه الى مكان الحادث ،مشهد لسيارة(كيا) على مقربة من دار المجني عليهم قد احرقت بالنار ومازالت الرمانات مرمية في حوضها ...

ابراهيم اراد مزيدا من التفاصيل ولكن البيوت ترهبه من عويل النساء والاطفال ...المكان محاصر ومن الضرورة المغادرة لئلا يكون ضحية كهؤلاء ولايعرف احد هذه الحقيقة المرة ..بعد يومين عاد احد المرضى الراقدين في المستشفى فاجاب

- (لقد خرجنا من المسجد بعد صلاة التراويح وفتحت النار علينا فسقط ثلاثة من ابنائي... وحملناهم في حوض السيارة الى المستشفى بسرعة وعلى

مسافه (٢٥٠) متر فتحت النار الكثيفة على السيارة مرة اخرى وجاءت قوة من جنود الامريكان مع المسرفات فهربت بجرحي المدمى متخفيا في الاشجار المجاورة ... وحال وصول الجنود بدأوا الرمي وضربوا المصابين برمانات حارقة فاشتعلت النار بهم واكملت الجريمة بشكلها النهائي وبحثوا عني داخل الشجر وبطائرة تلامس ذوائب الشجر لقتلي كذلك ولكن ارادة الله سابقة..

توقف الرجل العجوز عن الكلام وراح يبكي ويبكي...

ثم افاق قائلا:

- واشد مااحزنني ان ابنائي ماتوا بالجحيم وهم يصيحون (يامحمد... يامحمد) لم يتمكن ابراهيم من السيطرة على مشاعره ففاضت عيناه وزميله بالدموع قائلا(انا لله وانا اليه راجعون)) اللهم احفظ اللهم احفظ ...اتم ملفا كاملا موثقا بالصور وخرج من المستشفى لكن دون ان يشعر احد بهذه المهمة .... الا انه كان قلقا فهناك امريكان يحملون مساعدات طبية الى المستشفى مع اكفان خضراء فسمع همسا من احد المارة:

- يبدو ان الادوية فاسدة والاكفان لموتى عراقيين سيسقطون قريبا بمهمة امريكية جديدة...

الاحتلال ينادونه بالديمقراطية وحرية الرآي وحقوق الانسان الا انه حادث بشع كهذا يحتاج بلا شك الى التضليل وتكميم الافواه وتغييب الشهود باي ثمن ...

لم يتمكن ابراهيم ان يحصل على اذن مواجهة القائد الامريكي (ساسمن) ولكن وصل تصريح عن طريق المقربين انه قال (هناك مفرزة خارج القاطع قامت بهذا التصرف ولا علم لنا بذلك)كم انهم يكذبون ... اولا واخيرا فالجناة امريكان والخسارة عراقية وماسسها عليهم ذلك بدينهم الصليبي كتب تحقيقا مفصلا بالحادث وبكل تفاصيله الصغيرة والكبيرة مع الصور ونشرها في احد الصحف المحلية حيث يعمل بها الزملاء المقربون وقد توقفت الصحيفة عن الصدور عملا بحرية الراي والتعبير بالعرف الامريكي؟؟

الذاكرة مزدحمة بصورالجريمة وتشعباتها فيضطر الى السكون والصوم عن الكلام انه دم عراقي مباح وان الوطن مباح والليل القادم سيكون مجهول الهوية باشد ظلمة واكثر يأسا .

ابراهيم يتعرض الى ضغوط عائلية بترك العمل لدرء المخاطر واجواء المجازفة التي يقوم بها فهناك هول خانق ،اذ ان الطرق قد تحولت بمجملها الى خراب كبير للاعداد الهائلة من المدرعات والهمرات والجنود ...يقابل ذلك من مقاومة شديدة وشرسة حادة تحصد ازاء ذلك الارواح بل لم تسلم من ذلك حتى البهائم-البقر والكلاب والغنم وان حجم الحيف الذي يحيط باهله كان اقوى من تلك الضغوط مقررا ان يكون ذلك الجزء البسيط في البحر...عسى ان يدفع شيئا من الشر ...

الاسماء التي سقطت من جراء النار الساخنة كثيرة لم تعد لتحصيها سطور والاحداث متداخلة بعضها ببعض والايام تجري ولم تتوقف وكل يوم يمر يجد ابراهيم ومن معه احداثا اشد ضراوة ..

وفي يوم شديدة للغاية جلس على مكتبه يقلب بالهموم قرر ان ياخذ استراحة من عمله المضني ليومين او ثلاثة لان الطرق باتت غير آمنة والموت في كل الزوايا وان يزور صديقا له في احد النواحي المجاورة ...

ولكن هل ان مجريات الامور لها تدبير او توقف لا..انها دائمة وباستمرارية مخيفة ...يثرب تلك الناحية الساخنة التي كان يحلم ان يسكنها... اذ توجه بعد الحصول على الاستراحة من المنظمة الى احد اقربائه فيها ... وفي المساء وتحديدا الساعة الواحدة بعد منتصف الليل يسمع جميع اهل القرى اصوات المسرفات وهي تمر في الطريق العام واذا بصوت تفجير عارم يهز البيوت والابواب وشبابيكها...انه صوت لم تألفه المنطقة من قبل ويختفي صوت المسرفات كذلك..الموقف صعب ولابد ان المنطقة ستطوق في حزام امني كبير وسيتعرض جميع الشباب الى الاعتقال بعد نصف ساعة الطائرات تحلق في السماء ووميض اضويتها وصوتها يبعث الخوف والريبة وبعضها تشاهد من اعالي السطوح ان واحدة من تلك الطائرات تنزل في الشارع العام بين يثرب والسيد محمد عليه السلام تحمل الاشلاء او الجنود الموتى لافرق ...

يبدو ان الخسائر كبيرة وان الارهابيين قد تمكنوا من نصب عبوات ذات فاعلية عالية اخرست تلك المسرفات ..

الظلمة تحيط البيوت والطيور التي باتت في الاشجار قد ولت هاربة مرغمة على الهجرة من اوكارها... الاطلاقات المذنبة كالشهب تمد ذراعها على مسافه (٢) كم وبشكل عشوائي الجميع يهربون في داخل البيوت خشية الاصابة بالنار العمياء التي تنفثها اسلحتهم التي لم يرها احد من قبل

وبتسميات مختلفة بعضها ميكانيكي والاخر الكتروني الرمي ..الناس تنهض من وطأة خوفها متشبثة بالزوايا والظلمات الحالكة خوفا من وصول الجنود الامريكان.. وعلى هذه الشاكلة تم اعتقال عدد غير قليل الا ان ابراهيم لم يصله احد في بيت صديقه.. في الصباح خرج عائدا الى بيته محدثا نفسه (اينما تحل تلاحقك الاقدار... فاصبر صبرا جميلا) عند احد السيطرات الامريكية والضخمة في تشكيلها وعدد جنودها يقف خاضعا لاجراءات التفتيش المملة والتعسفية...وكما في كل مرة يتقدم المترجم الذي اعتاد ان يخفي وجهه بالسواد والخوذة – السلام عليكم

– عليك السلام

– من اين انت قادم؟

– من بلد

– الى اين انت ذاهب؟

– الى سامراء

– ماذا تفعل؟

– الى اهلي حيث يسكنون هناك

– ماذا كنت تفعل

– كنت في السوق

كان يجب على ابراهيم ان لايعطي الحقيقة لان الحقيقة تذهب به الى المجهول...

- ما اسمك؟

- ابراهيم سعدون

- ماذا تعمل؟

- في منظمة للدفاع عن حقوق الانسان

الجنود الامريكان يجتمعون حول المترجم ... يتقدمهم الضابط (جيمس)وقد اوضح لهم كل شيء .. ولكن الضابط الضخم الاحمر الطويل ذو العيون الخضراء الصغيرة يرمق المترجم بنظرة غاضبة .. ويطلب اليه انزاله من السيارة ...ادرك بهذا الوقت انه في محنة جديدة وان المترجم والضابط (جيمس) سيأخذانه للابد ...حاول بكل مالديه من ثقافة وحكمة ان يوصل لهم انه بعيد عما يحدث في الشارع الا ان محاولاته باءت بالفشل الذريع ...

جيمس ... يتكلم بلغة عربيه بسيطة

- (حكوك انسان) ارهاب

ابراهيم

- يارب اني بضعفي على بابك فانظرني انك على ماتشاء قدير المدرعة لنقل المعتقلين كانت حاضرة وجوفها قد امتلأ باشباهه الجامعة او(الكماشة) البلاستيكية قبضت على يده التي يكتب فيها تلك الاحداث - ودفع زجرا

وهم يضحكون بصخب فاضح الى حوض المدرعة مع ضرب موجع وهم يقولون (حكوك انسان حكوك انسان) رفع الجندي الامريكي ابراهيم والقاه كالذبيحة مع زملائه المكبلين واحكموا غلق الباب الخلفي... زفرات هؤلاء كالشرر وحشرجات صدورهم تأن بين الخوف والغضب واجسادهم متلاحمة كالدجاج البياض المنقول في الاقفاص او كالغنم المحال الى (الجوبة) للبيع ثم الذبح...لم يتكلم شيئا وادرك بشكل واخر ان عمله لن يجدي نفعا قادما وانه يعيش في كومة من الاكاذيب ... وراح يحدق في عيون المعتقلين ويسألهم ماذا فعلتم؟

ويبادر احدهم في العقد السادس ...

- نعم فعلت انني معاق ومصاب بالسكري ... ونظري ضعيف وارهابي كما يقولون ...

والاخر بابتسامة ساخرة ..

- انا جاء بي المخبر السري وانا معلم ...

فيما يجيب اخرون جاؤوا بنا من النوم ... والبعض احتفظ بالصمت حتى كلت اطرافهم من الاتكاء بعضهم على بعض في قيد حديدي وانفاس ساخنة جعلت الحوض حارا جدا على الرغم من البرودة نوعا ما وبعد دورات ودخول وخروج في مكانات متعددة لايعرف احد وجهة سيرهم ونهاية المطاف ادخلوهم مكان قديم في سرية للحرس الوطني وتم عصب اعينهم وارجلهم بالحديد الذي يصلح لحصان "الرايسز" واقتادوهم الى مقر

الامريكان ...مطار (حليج الذيب) في الضلوعية كما يسمونه وبدأت ساعات التحقيق الطويلة المملة والاسئلة المتكررة .. حتى كاد ان ينفذ الصبر

(١٠)

الشدائد تزحف كخميس الى سوح الحرب

انه يقاتل لوحده ...يسيرالى المجهول ...

الكلمات توؤد في شفاه القلم وتسكر في وحدها ،بل عسيرة في هذا الزمان ان تولد من رحمها بهذا الزمان ،صعوبة الحياة ترمي عصاها الغليظة فوق هام الفقراء ، والسماء تمطر دموعها الحرى ،كل شيء يؤول الى نهايات سائبة تتشعب عنها مصائب كبيرة توحي الى مجهول اظلم.... فما تجلس في مكان ما ،الا ويكون الحديث عن السياسة ، الاحتلال ،العمليات العسكرية ، الدماء التي تراق ، الاعتقالات العشوائية .. الطرق المغلقة – البيوت المخربة – الامراض المنتشرة ....الطائفية ، الحكومة وما لحقها من امور شتى ...احداث تشيب الرؤوس من جرائها ....

ابراهيم وصل الى قاعة مليئة بالمعتقلين ،الساعة تشير الرابعة عصرا ولم يذق الماء او الطعام بل قاطع حتى الحديث..

الباب الاسود الكبير موصد والنوافذ يغطيها الحديد – الرؤية متواضعة ... مكان الاستراحة بارد تنز منه الاجساد ، كل سجين له بطانية واحدة قد تعفنت من كثرة الاستعمال برائحة الاجساد التي نامت تحتها مرغمة ... عفونة سكائر فلا يمكن لاحد ان يتناولها بشكل علني بناء على التعليمات الصادرة ،يضطر المدخنون الى الاختفاء تحت البطانيات اذا حصلوا عليها بطرق مختلفة...

الحديث لا يكون الا همسا لان الهوس والضجيج محرم والجدران ترد صداها الى ساكنيها بابواب ثلاثة مغلقة ،،، خيبة امل كبرى تصيبه دون غيره وهو يحلق فوق السحاب باحلام يجزم بأنها لن تكون حقيقة ابدا ، يستذكر احد اقاربه الذي تربطه علاقة حميمة ولقاءهما كل يوم خميس وجمعة اثناء عودته من الكلية العسكرية وهو يقول له عبارته المعتادة (اريدك يابراهيم ان تكون هتلريا وان تحقق منجزا كبيرا لطالما كنت احلم به على الدوام) ويستذكر اخاه الاكبر ابا محمد وهو يقول له في اول ايام المباشرة (لايثبت رجولته وشجاعته وحبه لوطنه الا من صبر وتخرج ضابط) ... لطالما كانت تحرجه تلك الآراء لما مر به من ويلات قاهرة وصعوبة في انتهاء مدتها ...إنه يمرح بافكاره وهو يرتدي البدلة الشتوية متأبطا عصاه حاملا حقيبته السوداء معتدل القامة والناس ينظرون اليه باعجاب ويتمنون لو كانوا كذلك ويقارن مع هذا الذل الذي يمارس ضده وزملاءه بكافة الاشكال ...

احدهم ينام واقفا والاخر عاريا الا مايحجب سوءته من اثر الضرب والاخر يمتد فوق الصب الكونكريتي فاقدا من اثر التعذيب ثم يدير نظره الى خارطة الذكريات المحفورة على الحائط كانت قد كتبت من شباب لايعرف مصيرهم اين اصبح ...

لاتتذكر من تحب فتبكي ... فتسعد الاعداء

جنود الامريكان اكذوبة الحكاية الجديدة

لم يبق شيء من الدنيا بايدينا الا بقية دمع في مآقينا

ذكرى (محمد ،عبدالصمد ، راضي) الاخوة الثلاثة الذين اعتقلوا ولم يبق معيل لهم...

ياليت (حازم) مات قبل ان يبول الجندي الامريكي فوقه

المصير مجهول ... نموت او نحيا لاندري ... ((سلمونّه على اهلنه))

بريء والله بريء ... ولكن المخبر السري

ضربت الامريكان بكل ما أوتيت من قوة ولست نادما ولاحزينا ...

وقت طويل وهو يقرأ بهذه الذكريات التي احالته الى رماد محترق دب الضمور الفكري والانعطاف الى جانبه الايسر فالايمن ماكتب كثير ولكن ماذا يفعل ،لابد ان يقسم وقته يوميا على اكمال استطلاعه بحذر من الحرس المقابل له فقد اصبحت جزءا من تسليته....

فزع من فوره حين سمع السلاسل تفتح ليدخل الجنود الامريكان ومعهم قوة عراقية .... مدججين بالسلاح يرتدون عدة الحرب و يشهرون السلاح بحذر والخوف واضح على ملامحهم ... ولكنهم نزلاء عزل لايملكون شيئا يدفعون به الضرر سوى الدعاء ... العريف الامريكي يقرا الاسماء المطلوبة اولهم ابراهيم سعدون .... يؤشرالضابط المرافق للعريف والذي اقتاده من السيطرة قائلا ((Danger)) عصبت عيناه وجمعت يداه واقتادوه الى غرفة التحقيق ... الطريق بين الزنزانة والتحقيق تقدر بـ(١٥٠) م تعرض ابراهيم خلالها الى الضرب والشتم ... وتراجم لايعرف معناها لان انكليزيته متواضعة الى حد ما ... يهمس المترجم في اذنه لاتكذب لانك اذا .... ستموت ايها الارهابي اللعين..لايتكلم وكل ماامامه لاشيء .... ولايهمه

الموت او الحياه فقد استوى لديه الامران .. عند مدخل المكان المخصص للتحقيق – همس المترجم ... ها ماذا تقول اساعدك قدر الامكان ... فرد بكل هدوء – بماذا اساعدك ؟

– معلومات للوصول الى القتلة والجناة الارهابية

– كل العراقيين

– يضحك سخيف حقا او لم اكن عراقيا انا؟

– ماعلاقتك في عملية يوم امس في يثرب في الطريق المؤدي الى الناحية وتحديدا في ((العوينية))

– لاعلم لي بهذا الموضوع وهذا ليس عملي

–المعلومات تدلل انك ضمن مجموعة مسلحة قامت بهذا الفعل

– هذا كلام عار عن الصحة ثم انه مكان سكني باتجاه سامراء فهل يعقل ذلك

المحقق يستقبله بكاس زجاجي من البيرة قد انهاه للتو...ويزعق كاذب – كاذب...انت من نفذ العملية.. انت ارهابي

– ابراهيم يبتسم ساخرا...انت صادق... اذا قلت اني لاعلاقة لي بالموضوع وظلمتني بعكس هذا

–اراك فيلسوفا ماتحصيلك الدراسي

- بكلوريوس اجتماع

- اذن تفهم جيدا ماتقول ((امس العملية قتلت اخي و (٢٤) قتيل)) فاعترف ولاتتاخر ومصيرك عكس ذلك ((بـو.. وكا)) ونهض من مكانه وبدأ الضرب حتى ادماه من وجهه على صدره بوقت قد نزعت عصابة عيناه ،ثم وقف بمواجهته بجثته الضخمة و برائحته الكريهة التي لاينوي احد احتمالها ... ساقتلك والا تعترف افضل لك ..

ابراهيم يسرح مع نفسه قائلا ((كيف يفهم هؤلاء الحمير بل البغال الوسخة))؟

يبادر جيمس لاتكثر التفكير سنقف بجانبك اذا تعاونت معنا وكشفت الخلية الارهابية التي ضربت قواتنا ...

-غضب ابراهيم ... لاعلاقة لي بالموضوع ...

- ومارايك بالديمقراطية الامريكية في العراق ...؟

- هذه قناعتكم

- ماذا تقصد؟

- اقصد انها جاءت لاذلالنا

- بصوت عارم وحركات غاضبة انت مثقف فاشل فقد حررناكم من الطاغية واتينا لكم بحرية التعبير والديمقراطية قل لي اليست هذه ديمقراطية

– ابتسم ساخرا نعم ديمقراطية انظر الى الدماء التي تسيل من راسي وصدري التي ابتل بها ثوبي – انها ديمقراطية ستضيع باقي اعمارنا بها

– يغضب صارخا ويركله برجله خذوه الى المحجر الى يوم غد

لاشيء له سوى التسليم بين يدي الله ....

عصبت عيناه ومشي بخطاه الصغيرة لان قدميه موثقة بالسلاسل واودع في تلك الزنزانة الضيقة وفتحوا عينيه ولكن ماذا يرى هذا المسكين ...؟

الليل لم يمكنه ان يتعرف على شيء انه محجر (٥□١) م .... انه مرافق صحية يعتقد انها متروكة وتنبعث منها رائحة كريهة جدا ولكن اذا وقف على قدميه تمكن ان يصل انفه الى تلك الفتحة العليا ليشم رائحة الجو الطبيعي فاذا تعبت قدماه اضطر الى البروك ومسك انفه بيديه المكبلتين واحيانا يجلس بصعوبة واذا احس بالحاجة الى الادرار فتلك معظلة كبيرة في كيفية اجراء العملية في جو اظلم ويديه وقدميه موثقتين ...

نظر الى الفتحة العليا في المحجر بصمت وقد وضع بها علبة طعام مع عبوة ماء ... فناداه هل بالامكان فتح وثاق يدي الا يكفي ،ولم يمض طويل وقد فتح الباب وحل وثاقه من قبل الحرس يرافقه اخر يقول ((تعاون – تعاون)) لاتبقى مصرا..انه صوت ذلك المترجم الذي جاء به مع جيمس .. ثم اغلق الباب واطبق الصمت المخيف ..انها ليلة نحسة حالكة الظلمة لايشعر ابراهيم ان بهذا المكان احد .. شرب شيء من الماء وراح يدعو ويدعو ((اللهم انت تعلم مافي نفسي وانا لااعلم ما في نفسك اللهم اسالك الفرج .. اللهم لاسلطان الا سلطانك))...

يارب يامن فرجت عن ابراهيم فرج عني... وبدأ يصلي بقلبه بسفر زاهد خاضع خائف من ربه ...اللهم يامن انجيت موسى من التابوت ويونس من بطن الحوت ويوسف من كيد النساء والسجن والجبروت ... ان تغشيني بغارتك ... وراح يرتعد من البكاء وغمض عينيه لعله يرتاح قليلا مما هو فيه ... وفي حين هو بين النوم والسهد سمع السلاسل تصتك ففزمن غفوته وشدو وثاقه ... كان الفجر بأوله والضياء ينشر تسابيحه باصوات الطيور ...اقتادوه الى خارج المكان وهو ينظر – يمينا وشمالا ويسمع صوت طائرة قد نزلت وادرك ان رحلته ستكون بعيدة ... امامه جمع غفير من الشباب وكبار السن ... القوهم الى حضن الطائرة كالخرفان واخذتهم الى اين ... لااحد يعرف ذلك ..وبعد وقت ساعة وهي في السحاب تجر انفاسها لتهبط في بغداد وبأستقبال حار تلك الاشكال نفسها وتحول الخرفان الى سيارات ثم الى سجن ابي غريب ... وان الحديث عن المعاناة والصراع والضرب والشتم والصور والبصمة للكف والعين ومعلومات الحاسبه كلها تحتاج الى وقت وصبر كبير ... ،حتى أستقر في مثواه مع زملائه ...

ابو غريب قد رتب بشكل كبير واحكام بحيث تتم السيطرة على السجناء بشكل متناه وتوزيع الجنود عبر مسلات عالية وهم يحملون الاسلحة ((بمبكشن)) كما هو متعارف عليها تطلق رصاصات بلاستيكية موجعة في حالة الشغب او المظاهرة ..

وخراطيش مسيلة للدموع ... مع محاضرات ترويض نفسية مع ان تقسيم النزلاء على شكل طوائف ومنع كل شيء جارح من دخول السجن ولكل قاعة مسؤول يتم التعامل معه من قبل الامريكان ...

الرحلة شاقة بكل مفرداتها لاقى ابراهيم بقية عمره في المكان والتحقيق وتلك التهمة التي تلاحقه حول التفجير ومعلومات استخبارية من قبل المخبر السري ... وكان على الدوام يرد على المحقق ... انتم امريكا الاولى في العالم تستقي معلوماتها من المخبر السري اين العلم اين التكنولوجيا ... تكرر الطلب من القوات المحتلة بالتعاون معهم فيرد: يعني مخبرا سريا ... يعني عميلا ... فيضحك المحقق ... انت مثل هؤلاء العراقيون كلهم يأتوننا بالمعلومات ... وبكل صلافة وشجاعة هؤلاء ليسوا عراقيين هؤلاء ذيولكم ... وفي كل مرة يقضي وقتا في المحجر ثم يخرج ..

الشيب قد لعب بساحة راسه كالثلوج وتناثر على لحيته .. وتمر الشهور به واشواقه تفيض لعائلته ولكن على الدوام يقول ان الله ورسوله اعز منهم ....

كان ابراهيم قد بنى علاقات طيبة مع السجناء في جميع الكمبات اذ تنقل بينهم بين الحين والاخر ويبعث لهم رسائل اذا انتقل عنهم واخر محاولة في التحقيق حيث ارسلوا له مجندة شقراء وجميلة للغاية ترتدي البدلة العسكرية لاحضارة الى مكان التحقيق .. همست باذنه ((ياباشا مش عاوزه تخاف في التحقيق كلو تمسيل)) يبدو من لهجتها انها مصرية ... لقد كانت ردود فعله قوية حين علم ان مصيره والاف غيره تتحكم به امرأة ...وكررت عليه – "نفذ كل مايريدون ياباشا" ... نظر بعين غارقة بالغضب ((لعنكم الله جميعا ... انت لاتختلفين عن هؤلاء القردة شيئا))صحيح ولكن انا مسلمة ... مصرية وانصحك في سبيل الاسلام واقسم على ذلك قطع الكلام معها وهم يسيرون مع حشد من الجنود الى مقر التحقيق ...

كررت المجندة كلمات التعظيم والتبجيل له الا انه يوما بعد يوم يزداد صلابة وأباء بعدم التنازل عن موقفه امام اصعب المواقف ولو كلفه الثمن حياته واخر ماقالته عند الباب انا والله من اجلك يباشا ...يبدو ان تلك المجندة كانت صادقة وقد تعاطفت مع عاصفة الشيب التي ملئت رأسه ولحيته ومما زادها صلابته وعدم التنازل...فك الجندي الاسود وثاق قدميه ورجليه ... وفتح الباب ليدخل الى غرفة الضابط التي كانت بكل مافيها يبدو فخما وكانه ضابط من الخط الاول او الرتب المتقدمة في الجيش الامريكي ...قرأ ابراهيم اسم الضابط على صدره (جاك) ... الذي نهض واستقبله بحرارة لم يعهدها لدى الضباط او الجنود الامريكان ... المترجمة المصرية هي حلقة التواصل بينهما

- مستر ابراهيم ماهي مشكلتك مع الامريكان

- لامشكلة لدي ولكن مامشكلتكم معي؟

- جاك يبتسم - اذن لماذا انت مقيم لدينا منذ اشهر

- اسألوا انفسكم عن السبب؟

- انت كنت ضابطاً عراقياً سابقا؟

- نعم هذا صحيح وما المشكلة؟

- المشكلة انك تتهجم علينا بالفعل والكلام

- من يقول ذلك ..؟

- تلك المعلومات جاءت خلفك فضلاً عن معلومات الوكلاء

- تقصد الحقراء ...؟

- لانهم يريدون الامن ..

- لا بل للظلم والاستبداد

- هل لك بالتعاون معنا ونفرج عنك ونمنحك منصبا في الجيش الجديد؟

- لا اريد اي منصب ولن اتعاون مع احد على بلدي وهذه طريقة للتجنيد وابراهيم لن يفعل ذلك ..

- طيب ماهي الاخطاء المؤشرة على جيشنا في العراق ..؟

- اولا الهمجية التي رايتها في محافظات العراق جميعها علمتني من انتم ويالیتني بقيت اسمع فقط والثاني احتلالكم بلا شرعية والثالثة اكذوبة التحرير والديمقراطية والرابعة التحقير والاهانة والاذلال للعراقيين والخامسة عوامل الفساد والتدمير لكل شيء في البلد وافساد اخلاق العراقيين .

- ينهض جاك بغضب حقا انك حقير

- نعم الحقيقة مرة ولاتتحملونها ..

جلس في مكانه ويؤشر الى الحرس باعادته الى السجن حتى اشعار اخر...

عاد ابراهيم يمشي بهدوء وسكينة امام الحراس الاربعة الذي يشهرون اسلحتهم السوداء تجاه ذلك المكان المليء بالتناقضات ... وعند مكان

الاستراحة ((السايلبر)) كما يسمى همت المجندة – مش كلتلك يباشا – نظر اليها قائلا ممكن ان تفيدي الامريكان بهذه النصائح .. دفعه الجندي الى الداخل واستقبله زملاء المصيرالحمدلله على السلامة العم ابراهيم ...

بقى ينتظر قدوم موعد المواجهة للسؤال عن امه وابيه وزوجته واطفاله فالحياة عنده اخذت منحى اخر والقاموس الجديد ولّد لديه شعورا بقبول كل ماهو جديد من القسوة والحرمان فهو يتطلع الى وجوه الزملاء وقد ملئت بالحنين الى الانطلاق في الفضاء بعيدا عن هذا الروتين اليومي ابتداءً من التعداد والازعاجات المسائية والضرب والمحاضرات الترويضية واعمال الشغب وطريقة اخماد تلك الاعمال من قبل هؤلاء القردة ...يحدق بمرآة متشظية كان قد استقرضها من احد زملاء الطريق بعينين غائرتين بكفين من السواد ومساحة جفنين تجعدتا وشيب تناثر بوقت قصير ولمعان انطفأ من ظلمة المحاجر...تمر ايام وهو يتمنى ان يرى طيراً يحلق في السماء او خضرة شجر او ان يرى النجوم وهي ترقص مع القمر في ليلة التمام ...

بل ويقف تحت المطر وهو ينزل برخائه ودفئه الى الارض وان يتبرك به فيغسل الادران التي لحقت به من هذه الأيام العجاف ... مشتاق الى الطفولة ... الى الصبا ... الى نقاء الريف وهوائه العذب الى مزاح العجائز والشيوخ وهم يجلسون عصرا بالفضاء الفسيح على بساط ملون محاك من خيوط الصوف ..انه مشتاق الى سماع زقزقة العصافير وهي تغازل بعضها البعض على اغصان الشجر عند الصباح والى فيروزياته ، والى الخلوة جالسا على مكتبه وهو يؤرخ قصائد الغزل في من يحب والى مكتبته الغنية وهو يستل ديوان نزار قباني او فدوة طوقان والسياب والمتنبي او محمود درويش الذي كان يردد كلمات كانت اجمل ماقال:

وضعوا على فمه السلاسلْ

ربطوا يديه بصخرة الموتى

وقالوا:انت قاتلْ!

اخذوا طعامه ،والملابس ،والبيارق

ورموه في زنزانة الموتى ،

وقالوا انت سارق

طردوه من المرافيء

اخذوا حبيبته الصغيرة ،

ثم قالوا :انت لاجيء!

يادامي العينين والكفين!

ان الليل ذابلْ

لاغرفة التوقيف باقية

ولازرد السلاسل !

نيرون مات ولم تمت روما ...

بعينيها تقاتلْ!

وحبوب سنبلة تموت

ستملأ الوادي سنابلْ

ظل يكرر ستملأ الوادي سنابل مرة.. واخرى... واخرى حتى تخضبت وجنتاه دمعا قائلا:

كانك يادرويش تكلمني تروي وجع حاضري وآمال مستقبلي....كانت اشواقه تدفعه ان يلاعب اطفاله فوق المرجوحة التي نصبت في حديقة المنزل ..الى عتاب ام العيال عندما يأتي متأخرا بعض الشيء عن المنزل ... ثم تبتسم له .. وتضم العائلة بحنان الام الراشده ...الى دمع امه التي تفتك به حين ينوخ رقبته من الاعلى ويقبل يدها فتشهق باكية وهي تقول: (اراك لم تمر منذ يومين)ووالده الذي يفيض حبا جاهدا في السؤال عنه وتقصي اخباره ...يشتاق الى بلده العراق الذي يصلب على جذوع نخيله صاغرا فهو لايملك فانوسا سحريا ليدفع عن نفسه ولم يكن كل هذا تمثيلا مسرحيا يضحك الجمهور او يبكيهم فينتهي ولم يكن اضغات احلام تبور بعد بضع ثوان ..شدة تزحف خلفه كخميس هائج الى ساحة الحرب ... انه يقاتل لوحده قتالا اعزلا لا احد معه ..انه يسير الى المجهول ...انه باشد الحاجة الى ورقة بيضاء يكتب فيها بعض معاناته والى قلم رصاص بسيط يخلد ظلمة الحيف في وضح النهار ...ان الرسالة التي وصلت من اهله كانت مليئة بالنزيف الساخن والصمت المعتق فماذا يكتب ..؟ ماذا عساه ان يقول .. هل يبدأ بالشوق وينتهي بالشوق يا..للمرارة .. انها لاتكفي ان يكتب مأساة دمعة واحدة سقطت من جفنيه .. لكنه اختصر مفرداته على قدر بسيط وصعب بالوقت ذاته ...الى اهلي .. الى احبتي .. الكلمات توأد في شفاه القلم ..

وتسكر في وجدها بل عسيره عليها ان تولد من رحمها بهذا الوقت ثم فتح قوسا والى نهاية الورقة وضع قوسا ( ) ... تحياتي

بضع ثوان واعاد رسالته الفارغة الممتلئه .. حتى ان مسؤول الكمب قال كم بسرعة يابراهيم .. فرد ماعندي ماقول اكثر من هذا ... ثم استراح لينام من رحلته لعل النوم يقضي الوقت او يكون بريد الملتقى بمن فارقهم.

(١١)

الاعتقال والافراج نظرية عكسية تفرض ان تكون عصاميا عن السقوط باحضان الخيانة لان الوطن سيعاتبك ويحاسبك ويقتص منك ولو بعد حين ...لازال ابراهيم تخنقه اللحظات مفضلا الصمت عن الكلام ، المعتقل زاخر بكل الالوان والاشكال ، دروس مكثفة من قبل النزلاء .. قرآن – سنة نبوية – احكام تلاوة – لغة انكليزية ...واتجاهات مختلفة للشباب ، فصائل كثر حتى ان البعض لم يسمع به من قبل ، انها فصائل مقاومة عراقية ، كان يبتعد الى حد كبير من ذلك كله....ستة اشهر تمر على ابراهيم لم يحصل الا على مواجهة واحدة مع اخيه ثمة صعوبة كبيرة تعرض لها اخوه حتى حصل على ساعة اللقاء ، بها اطمأن ابراهيم على احوال عائلته واوصى لهم بالصبر على ماهو مكتوب وستفرج قريبا وانه بصحة وعافية مع انه لم يكن كذلك ... ولكن من باب المكابرة وعدم الانهيار فما زال الوقت طويلاً جدا ... جدا وفي صباحية يوم الجمعة التي تعد عيدا للمسلمين ... اذ يتوجه المعتقلون لاداء صلاة الجمعة يدخل الحرس الامريكي ومن خلال مسؤول القاعة بالقاء قائمة من الاسماء وكان يتصدرها المتهم(ابراهيم سعدون) وقف من فوره متجها الى الباب ومن الاعراف السائدة ان يمد يده من الشباك لوضع الجامعة الحديدية في يده وفوهات البنادق في صدره لئلا يتصرف تصرفا يؤذي الجنود وفي مكان الاستراحة امام القاعة الكبيرة توضع السلاسل في قدميه ...

النزلاء كانوا يتوقعون انه الى الافراج ولكن مظاهر التعامل والقيود تدل عكس ذلك هتف النزلاء منددين بهذا الفعل اغلق الباب وعادت الغمة الى السجن ....

ابراهيم ينظر يمينا وشمالا محاطاً بالبنادق ويحدث نفسه ربما اكون اهم نزيل هنا واخطرهم بل زرقاويا اخر – وردت المترجمة المصرية((نعم ياباشا)) ادار وجهه فوجدها هي نفسها تلك التي رافقته قبل مدة من الزمن بذلك التحقيق....نظر الى السماء وزرقتها والى سرب القطاة الابيض الذي مر سريعاً... والى الطائرة الاباتشي التي تعلو هذا السرب ... والى غيمات بيض تمشي هوينا مع نسائم الريح .. والى اشعة الشمس ناشرة ضياءها مع برودة الجو على اركان الخليقة..تاملات كثر تجول بخاطره وهو يرتدي البدلة البرتقالية كبيرة الحجم اثنان من الجنود خلف ظهره يضعون اصابعهم على زناد الرمي واثنان في الجانب والمجندة المصرية بجانبه ... تهمس بهدوء اطلب منك طلب ياباشا...؟

– قولي ماذا تريدين ..؟

– افعل كل مايطلب منك المحققون

– كم انتِ كاذبة... لاتختلفين شيئا عنهم ... كلكم عملة واحدة

– اتقبل منك كل شيء .. فانا مجندة – امريكية – عميلة قل كما تشاء ولكن يجمعني معك الاسلام واقسم لك انا انصحك... وانهم كما تقول اهل الكذب وخداع ونفاق

– بغضب وانتِ معهم

– كل شيء مقبول الا اليوم فانا معك افعل كل مايطلب منك فهم يقدمون ضدك عرضا مسرحيا لاخافتك وانت علمتك صلبا

- اعاننا الله عليكم

- آمين..

ربما كانت تشعر تلك المجندة بالذنب ، قد تكون صادقة في نواياها تجاهه الا انه قطع عهدا ان لا يصدق احدا منهم لانهم آذوه حقا وسلبوا بلاده بطريقة عدوانية مقيتة...وصلوا عند باب مقر التحقيق والتحليل ، وادخلوه بعد ان فك وثاقه ... القاعة كبيرة لم يرها من قبل .. انها صالة عمليات كبرى الجميع يرتدون الملابس الخضراء مع الكمامات وامامهم عدد التشريح الطبي...المترجمة المصرية تمر بجانبه ((كلهم كاذبون)) كن صبورا ووقفت بجانبه احدهم ينادي وعن طريق المترجمة نفسها

– اخلع ملابسك

ابراهيم يتردد وتكرر عليه وترفع حاجبها الايسر له ،وباشر بنزع بدلته التي تجلب لك الهذيان والهلع...

- ابراهيم قائلا وماتريدون ان تفعلوا

- نريد ان نجري لك عملية فتح الدماغ لمعرفة اسباب كرهك للامريكان ومساعدتك للارهابيين

- كم هم اغبياء يقولها بصوت خافت .. وتتحرك المترجمة امامه قائلة ..لا ...لا .. لا ياباشا..

- ماذا تقول..؟

- لا شيء – وهل انا مجنون فانا بكامل قواي العقلية

- لا ان اصرارك يستدعي ذلك..

- ولكن الاولى ان تبدؤو بانفسكم لمثل هذه العمليات اذا كان فيها نتيجة...

- بغضب – ارمِ ملابسك الداخلية الجزء العلوي

- بابتسامة ساخرة – لا - لا اذا تريدون قتلي فانا لا املك آلات تشريح واباتشي في السماء تحلق باسترخاء..

- نحن لا نريد قتلك... بل مساعدتك للخروج

- وهذه الالاف من يخرجها من الويلات ،وهذا البلد المدمر المستباح ..؟

في صالة العمليات جنديان امريكيان مدججان بالسلاح يدفعان ابراهيم ويأمراه بالجلوس على كرسي اسود ثابت بين الاطباء او الممثلين ان صح التعبير ... وبعد نقاش طويل تم انزال ملبسه الداخلي عن كتفه الابيض وزرق ابرة مملوءة بمادة صفراء سقط بعضها على ملبسه الابيض فلم يتحرر منها ..ابراهيم ينظر الى الطبيب كيف ان يده ترتجف ... وراوده الشك هذه ابرة سامة ... وكان يشعر ان تلك الفتاة المجندة الجميلة هي اكثر المتعاطفين معه مع صرامة التصرف ضدها الا انه ذاتيا كان يعترف باطمئنانه من كلماتها وان كانت مصطنعة...طلبوا الى ابراهيم الامتداد على السرير لبدء العملية – وهو ينظر الى ايماءات المجندة المصرية كيف تريده ان ينفذ ذلك فعلا قام وامتد ... وفي ذاته حسابات كثر ... وقد ادى الشهادة بقلبه ((اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله)) اللهم انك تعلم بحال

ابراهيم فكن له انك على ماتشاء قدير..يندفع الاطباء الخمسة الممثلون الى زاوية القاعة بالنقاش.. وشعر بشيء من الوجع في كتفه .. ثم سحبوا الابرة السوداء التي تقطر من النيديل وزرقوها في الكتف الثاني ..تفرق جمعهم ولم يبق سواه والجنديان والمجندة .. وبعد ربع ساعة طلبه ضابط التحقيق قائلا :

كم انت عنيد ؟

– انا لست عنيدا هذا حقي المشروع ولكن ماهو حقك بكل هذا ... تحاسبني لاني أحب بلدي ...؟

– مسك الضابط القلم بيده قائلا " هذا اليوم اما ان اطلق سراحك و اما أن تموت!

– بكلتا الحالتين لي الشرف ولكن لاشرف ولاكبرياء لكم بذلك..

– اخرج من وجهي ياقبيح!

خرج ابراهيم بعد ان ارتدى ملابسه خجلا ليس من شيٍ ولكن كيف نزع بدلته وبقي بالملابس الداخلية وامامه امرأة " الحياء من الايمان "ولكنه مجبرا على ذلك

راحت تخبره المجندة بان ضابط التحقيق امر بالقائه بالمحجر(١X١)لمدة اسبوع

– لا مشكلة

اقلوه في عجلة خاكية لايعرف نوعها تمشي بهدوء وهو يقف بكل جلد وصبر قائلا : قال (اني معكما اسمع وارى ..) و(معرفته بحالي يغني عن سؤالي) مرت العجلة على مقربة من شبابيك السجناء الذين يعرفونه ببطولته وشجاعته .. وبدأت الهتافات بشدة وبدأت اعمال الشغب والمظاهرات وتدخلت القوات الامريكية لتهدئة الوضع والارباك من جراء الرمي بالاحذية وصغار الحصى ... واشتد الامر سوءا حين علم النزلاء انهم ذاهبون به الى المحاجر...اضراب عام عن الطعام ... اعمال شغب مستمرة ...

وصلت العجلة عند تلك المحاجر الصماء التي لاتعرف الا ابواب سوداء مغلقة ... انتظار قرابة ربع ساعة وتلك المجندة الشقراء تتحرك ببدلتها العسكرية بخطى متانية... ثم صعدت الى حوض العجلة وابراهيم موثق اليدين والرجلين قائلة (والله ياباشا انت لاتستحق ان تدخل المحجر سوف ارتب الامور) ربما لايمانه وقوته قيظ الله له تلك المجندة التي قسا عليها ووقفت الى جانبه انها مختلفة تماما عن ذلك المترجم في (حليج الذيب) الذي كان سببا في استمرار عذاباته في يد الاحتلال .عادت به الى السجن وانتهت الازمة التي لايعلم ضجيجها سوى الله ومن سكن هناك ... وفي اليوم التالي جاءت قائمة بما يسمونها(Happy pass)الخاصة بالمفرج عنهم فكان في مقدمتهم (ابراهيم سعدون) كانت فرحته كبيرة للغاية ولكن الحزن قد عتم تلك الفرحة حين نظر الى خرز الدموع تنزل من المودعين...ابراهيم كان مثالا للصبر ، مثالا للرجولة ، مثالا للوفاء والخلق النبيل ... راح يودع منذ الصباح احبته داعيا لهم الخروج من هذه المقبرة...

الحرس يخبر ان المفرج عنهم سيقضون هذه الليلة في مكان خاص بهم.

-انهم عشرون سجينا من محافظات شتى وتبين انهم من (١٨) محافظة عراقية واثنان عرب.. ياللقدر المكتوب على الوطن واهله.. كانت الاشواق تدفعه الى نسيان الوقت لان الانتظار صعب ... نظرالى رجل خمسيني يركن في زاوية الغرفة (٥X٤) فتحرك اليه وسلم وسأله عن سبب حزنه فأجابه :

اهلي غادروا جميعا من الحياة فقد تم اعدامهم باكملهم

- لماذا؟

-انا كنت ضابط مخابرات ولدي اربعة من العائلة – اولادي الكبار ولد وبنت كلاهما جامعيان –وطفلة في الثاني الابتدائي وزوجتي ...هجمت قوة بخمس مدرعات وجنود وهامرات واجتاحوا الدار ... ورموا الرصاص وراح ضحية ذلك الجميع ولم يبق الا انا . والله واحد (انا لله وانا اليه راجعون)الحمد لله الحمد لله

- عظم الله اجرك على مصابك واخلفك خيرا منه.

الدموع متحجرة في عينيه ولكن ابراهيم اصابته صدمة كبيرة قائلا: الحمدلله من يرى مصائب الناس تهون عليه مصيبته الساعة الواحدة ظهرا يفتح باب الزنزانة المترجم ينادي (ابراهيم سعدون)

- نعم

– انهض معي

– الى اين

– لأدري الجامعة اليدوية والاقدام ... والى الضابط

– الهي هل الغيّ افراجي ، هل من مصائب جديدة ...وعند الوصول الى غرفة تحقيق صغيرة مليئة بالاضوية الحمراء يخرج الضابط ... ويأمر بقيادته الى جهة لايعرف ماهي ،المسير (٥) دقائق – مكان فارغ ليس فيه احد ... ربما الى فضائح ابي غريب ربما الى المقصلة او الى سجون اشد وطأة وحرمان ...قاعة كبيرة فيها شرفة كبيرة – اي شباك وسطي ... اذ بادر المترجم ، عليك يا أبراهيم وحسب التعليمات ان تنظر من تلك النافذة فقط أدخل واغلق الباب واسرع الى النافذة التي احل له النظر منها لربما اليوم وقت نقاهة له قبل المغادرة ...وصل عند النافذة .. كان الجو بارد فمن الطبيعي ان يقف في اشراقة الشمس كي يسيطر على لحظات تصادم اسنانه العليا والسفلى ...المكان جميل يشعره بالامان والدفءْ ... (٣) دقائق تمر وإذا جندي امريكي يدفع فتاة عراقية تبكي ويجلسها على كرسي اسود تقابله بالحزن والوجع...موقف صعب للغاية ... احلامه تهرب من ذاكرته ومشاعره تتفجر ، تتفحم مشاعره حد النهاية هو اكثر حاجة الى الموت والفناء وقتل من امامه ان مايدفعه غيرته العراقية وشعوره بالمهانة الحقيقية ..انها تصرخ كلاب.. حقراء..انذال ثم يجول في القاعة كالاسد في عرينه يبحث عن طريق للخروج لكن القيود والسلاسل محكمة جدا..انه يستذكر ويرسم في مخيلته صور افلام لاتقع حتى في الخيال مرة هو يقود طائرة حربية في السماء ويرمي بالصواريخ فيحرق الجميع ومرة يحمل سلاحا خفيفا معبأ بالرصاص او سكينا وحين تستنفذ كل الاسلحة يرضى لنفسه سكينا يقتل بها وحين يفتقدها فبيده وحين لا احد عنده فيقاتل بقلبه وذلك اضعف الايمان ...يالها من شدة تغور به حد الغثيان والهذاءات والتمرد بل تنقله الى رجل لايقوى

على حمل ثوبه بل واضعف خلق الله فيجثو على ركبتيه رافعا اكفه (ربنا افرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين)ثم يبكي ويبكي ويستانف الدعاءولكن مازال الجندي الامريكي الحقير يداعبها بالاستفزاز وهي باكية شاكية لله رب العالمين.....انها قاعة اخرى للنساء ولكنه لم يشاهد الا تلك المرأة التي ترتدي ثوبا اسود ولاتعلم تأوهات ابراهيم نحوها ... وبعد مدة بكاء غير قليلة تركز نظرها والا بشخص لاتعرفه وعلى مسافة (١٠) م يقف امام تلك النافذة...عيونها غائرة والجفون يحيطها السواد لكثرة الدمع ... متعبة ونحيلة ومهانة وذليلة ...ابراهيم يبقونه (٥) ساعات امام تلك النافذة والفتاة التي يسمع حشرجة صدرها وهي تقول ((الله اكبر – اين رجال الوطن هل ماتوا جميعا))وينفجر باكيا ، واظلماه ... ياموتي قبل ان ارى هذا الذل لم يتحمل الموقف حتى سقط وهو يلعن امريكا والعملاء والاحتلال ... ولكن صوته نداءه:

قد اسمعت لو ناديت حيا

ولكن لا حياة لمن تنادي

تبين انهم قد نصبوا كاميرات للضحك والسخرية والاستهزاء واخرى للمعلومات الاستخبارية ...كانت تتكلم المرأة لابراهيم ولكن لم يفهم الا بعض من كلماتها وهي تشمر بيديها...اعادوه غارقا بجرح كبير جدا ، وان مافعلوه هو نكاية بكبريائه ... بقي صامتا عن الكلام ولم يبح لاحد به ... وفي اليوم الثاني تحملهم الطائرة الى قاعدة ((سبايكر)) في تكريت ... وبعد يومين من المعلومات الاستخبارية وامور امنية لايعلمها الا الامريكان يعود الى ذويه بعد صلاة العشاء بلا موعد مسبق...

الفرح غامر وكبير والعبارات لاتفي بكل هذا ... الجميع يقبلونه بسلام حار ...الحزن مازال يطبق عليه والعبارات لاتفي بمقدار مارآه... سبعة ايام في داره لم يخرج ...انه بحاجة الى الراحة والاطمئنان ولكن مازالت العمليات العسكرية والمداهمات والاعتقالات والمخبر السري قد فعّلت بشكل كبير...هو ينوي ان يغادر المنطقة ... اذ يرى ان السكن هنا قد شكل شبهة كبيرة عليه ...منظمة حقوق الانسان تزوره ببعض كوادرها فقال:

- اين منظمتكم من وجع (٨) اشهر

- مديرها: لقد كتبنا (٣) مرات ولكن دون جدوى ...

- من يقرأ ومن يكتب ومن يعترف بكل هذا...

واردف ان الاعتقال والافراج نظرية عكسية تفرض ان تكون عصاميا عن السقوط في احضان الخيانة لان الوطن سيعاتبك ويحاسبك ويقتص منك ولو بعد حين ...

(١٢)

ان احتمالية ان تكون رجلا مثاليا ربما يكون رقما مستحيلا في وطن تحكمه فوهات البنادق وركلات الاحذية المستعارة... الصباح ينشر انفاسه الباردة في ارجاء قريته التي يعمها الضجيج والصخب المستمر ، الناس في حيرة كبرى جراء الظلم الذي يعمهم ،فلا يكاد يمر يوم وهم يرقدون دون ان تفزعهم التفجيرات المستمرة...زوجة ابراهيم يرهقها الاسى الذي يمد ذراعه في كفوفه دون ان يغادر ، انها تحاول ان تعيد ولو جزءا بسيطا من حياتها السعيدة ، الا ان الاعتقال وما واجههم من ويلات ودروس في غاية الصعوبة اذ صار زوجها انسانا أخر يزداد غموضا يوما بعد آخر ، حتى اطفاله الذين يلاعبهم ويقضي وقتا معهم بات لايقوى على ذلك انه في عالم اخر ...القرية بدأ شكلها يتبدل تماما ، بنايات شاهقة تسحق بالعبوات الناسفة ، حياة باتت شبه مستحيلة فاشارعلى نفسه لزاما ان يغادر هذا المكان اذ دب الملل من الاستدعاء الى الشرطة وتوقيع تعهدات ...الاعتقال جلب الاوجاع الكثيرة وان خرج بريء من التهم التي وجهت له ...يثرب هي المنطقة التي اختارها ليتخلص من القرب الى الشارع العام الذي تجري به الارتال العسكرية الامريكية والجيش والشرطة ،فليس من السهولة ان يقنع عائلته بالرحيل من ارض سقته حنانها ، وان ارض الاجداد عزيزة جدا ...كان ابنه الصغير يقول له: ياابتي انت علمتني الاعتزاز بكل شيء فوق ارض الوطن من القشة الصغيرة الى النخلة الباسقة ومن الجار القريب الى الجار الغريب ... كيف سأترك خارطة الذكريات ...دموع ولده هزت كيانه فضحك يابني : ارتحالنا مؤقتاً وحال هدوء الاوضاع واستقرار البلد سنعود الى بيتنا .

كان يتذوق المرارة ولكنه كان صبورا على المآسي ... انه يغادر تاريخه مرغما ويكتب في صفحاته سطورا اخرى غير تلك التي مضت ... خرج يمشي في الحديقة المنزلية الزاخرة بالورود والنخيل والثيل والدجاج وشجر التوت العالي الذي يكبره ببضع سنين ، فكان يتكلم مع كل هذا :

– معذرة ايها الهواء ... ايها النخل الباسق ... ايها التوت بظله الوارف ... ايتها الساقية المزهرة ... يا شجيرات العنب الاحمر ... الثيل الاخضر ... الماء الذي ينحدر باسترخاء ... معذرة فقد ازف ترحلي وبلغت نصاب البقاء ... اني اشعر بالخذلان والهزيمة فطالما استظليت تحت ظلالك ايها الشجر ... فمثلما يودع حبيب حبيبته ويجدل ظفائر المساء اكتب حزني بالدموع ... لم يبق لدي شيء املكه كل شيء يرقص ذبيحاً بين كفيّ القدر ... عذرا يا شجر التوت فيوما قد وضعت فراشا تحت ظلك وقرأت للامتحان الوزاري في السادس الثانوي ... يوما قد رقصت اوراقك الخضراء مع نسيمات الريح مع زقزقة العصافير يوما قد كتبت قصائد الغزل يوما قد وضعت العنب في قارورة الماء البارد وأكلت بتلذذ دونما اسمع همسا يزعجني ...

الفضاء الفسيح ، الشمس التي ترصّع زرقة السماء بالجمال ، اسراب الطيور الملونة خطوط بيضاء وسوداء تتعالى في السماء ، الفلاحون يحملون عدة اعمالهم الى المزارع ، الطرق النيسمية والشجيرات الصغيرة رطبة بالندى ، الورق الاصفر مبعثر هنا وهناك ... كل شيء له غناء وعتاب يقطع ابهر قلبي ولكني مع هذا سأعود وان طال المدى ، سأعود اقبل كل شيء وان كانت الاقدار هي نصيبي بالرحيل فكل شيء مودع الى ذمة الله...

زوجته تناديه ((ابراهيم – ابراهيم)) لكنه لم يرد بكلمة ... تركت المكان وعادت الى دارها ... يدخل خلوة صوفية يملؤها التواجد مغلق صيوان اذنه عن سماع اي شيء ، بكى وبكى مودعا كل ما يحيط به ثم عاد الى داره ... فسمع شهيقا في غرفته ودخل مسرعا ماذا هناك ... انها زوجته وعياله يبكون ، نادى مابكم ... مابكم ... ماذا حصل فأجابته:

– ألم تسمعني اناديك ولكنك لاترد ماذا جرى لك ؟

– اسف جدا اقسم اني لم اسمع شيئا من هذا

– وماذا كنت تعمل بهذا الفضاء ؟

– طبعا ابكي مثل دموعكم ... وابتسم

هون عليهم الامر واتفق ان يكون يوم الجمعة هو يوم الرحيل وترك المكان وبسرية تامة ... يخشى من النفاق والفضول وبعد يومين من هذا التاريخ اتفق على تأجير بيت في يثرب هربا من جحيم طريق سامراء ...الجمعة كانت رحلة العائلة دون ان يخبر احدا بالامر الساعة الخامسة صباحا كان موعد انطلاقه ... كان الطريق في غاية الخطورة امريكان ومسلحون ... فتنة قائمة بأعلى مستوياتها ولكنه كان رجلا متوكلا صبورا على نوائب الدهر ... في منتصف المسافة في حين هو يقود سيارته بسرعة فائقة واذا بسيارة سوداء اللون تعترض طريق مروره ، ينزل منها مسلحون ويبدؤون بالرمي على المارة ... لم يتوقف اذ انحرف عنهم قليلا ولكنهم سددوا عليه بأسلحتهم ونادى العائلة :

– اخفوا رؤسكم فهؤلاء مجرمون يرتدون لثاما اسود ... ثم طاردوه ... اللحظات صعبة ، اصابوا سيارته ببعض الاطلاقات ... لايعرف الذنب الذي اقترفه ... وصل السيطرة واخبرهم فعادوا على ادبارهم ... ولكنه تفقد العائلة انها بسلام فحمد الله كثيرا وعدد من الاطلاقات قد اصابت السيارة ، مع سيارة الاثاث الكبيرة قد تعرضت للموقف نفسه.

ترى من تكون هذه القافلة التي يقودها ابراهيم هل هي قافلة ابي سفيان ...؟

ولكن كان عليه ان يزداد تسليما لمقادير الله ... ولم يسخط من ذلك (ربي اني مسني الضر وانت ارحم الراحمين)

وصل مكانه الجديد واوصى عياله بان لايتحدثوا لاحد عما جرى لهم في الطريق كان ذلك اليوم الاول الذي يخلد فيه الى الراحة التامة ولم يمر به احد ...

لقد كان عدد المداهمات والتفتيش والاعتقال لداره السابقة (٤٨) مرة...

الان يسكن قرية فلاحية تغفو برموشها الخضراء على نهر دجلة ... تضم عددا كبيرا من البشر فيها عدد كثير من الاقرباء ، حظي بحفاوة ومحبة من قبل الجميع ... انها منطقة لاتخلو الى حد ما من الصدامات مع الامريكان ... البساتين ذات مساحات واسعة والطرق كثيرة وانها تلامس قاعدة البكر الجوية التي يسكنها الامريكان لادارة العمليات الحربية في قضاء بلد بل في الشرق الاوسط من خلالها

الساعة الثامنة صباحا ... يأتي اتصال هاتفي من منظمة حقوق الانسان ...

- تفضل من ؟

- حسن عمران معك ... السلام عليكم

– وعليك السلام كيف الحال؟

- انا من منظمة حقوق الانسان

- اعرف ذلك مرحبا بك

- افتقدناك منذ مدة ورئيس المنظمة اكد على حضورك

- انا متعب حقا ولا وقت لي للعمل ...

- نحن بأنتظارك ... لاتتعذر ونعتقد انك اخذت قسطا كافيا من الراحة

يوم الاحد توجه الى المنظمة التي كانت بصدد تنظيم ورشة عمل عن التعايش السلمي وفض النزاعات ... استقبلت المنظمة بأعضائها زميلهم الغائب منذ وقت طويل وضيّفوه ورفعوا من معنوياته بضرورة الاستمرار واتفق معهم على مواصلة المشوار ... ولكن هناك غصة في الحلقوم فهو اعتاد على نمط الصعوبات والتحدي فهل يمكن ان يوفق بين الرخاء والشدة في وقت كهذا ؟

في اليوم التالي عقدت الورشة وكان موضوعها شيقا وقد تفاعل معه كثيرا وشعر ان وجوده في الحياة يعود شيئا فشيئا وقد تميز في ذلك وطلبت منه بعض المنظمات العاملة استضافته باماكن اخرى...لم يتوان في التفاعل وان

يكون محاضرا فاعلا وواضحا في طروحاته ومحبوبا وصادقا فهو لايدّعي في التزامه...

كانت الظروف المالية المحيطة صعبة نوعا ما فهو بحاجة للمال للاستمرار ولكن لم يكن ذلك هدفه الاساس واشد ماكان يزعجه ، نفاق الحديث عن المواطنة الصالحة والوطنية وحقوق الناس وضرورة المشاركة في انقاذ الوطن من المحنة الا انه يكتشف في النهاية انهم وصوليون يبحثون عن المناصب والمال اينما كان وباي ثمن عدا نفر لايتعدى اصابع اليد الواحدة ...

على هذه الحال استمر بالعمل ورصد الانتهاكات بكل اشكالها وتعرض الى مخاطر وصعوبات جمة ، آخر تلك العملية الواسعة التي قامت بها القوات الامريكية في منطقة ((تل الذهب)) القرية المحاذية للشارع العام اذ تم مداهمتها بشكل صعب وتعرضت البيوت والماشية والاشخاص الى الدمار وتم الدخول الى المنطقة وهي تحت الرصد الامريكي وتم اعداد تقرير مفصل عما يجري فيها ... فبقدر مافيها خارجون عن القانون الشرعي والاجتماعي الا انه في غالب الاحيان كان الضحايا ابرياء...

تل الذهب قرية ساخنة لايدخلها الا القلة من الناس الا ان مهمة ابراهيم محددة بوقت قصير . ثم اللقاء ببعض شيوخها ومن بينها رجل معاق ورجله مجبسة وتم ضرب قدمه وكسرها مرة اخرى وشاهد ثقوب الاطلاقات التي هشمت ستائر البيوت ... وتلك الطفلة اليتيمة التي اصابها الجنون من شر مارأت من دوي الانفجارات الامريكية وتم مراجعة الاطباء النفسيين وقرأت التعاويذ الا انها مازالت ترتجف ويخيفها اسم الامريكان او اي زائر قادم لاهلها...

وتلك السيارات التي سحقت بالمسرفات ... واساليب دمار شتى

خرج ابراهيم مع بعض زملاء العمل بحذر شديد ... وكانت رحلتهم بسلام مع التوثيق ببعض الصور ..

كانت البساتين الكثيفة الخضراء والمياه والطرق تدلل على وجوه النعمة والخير الا ان الشر يملأ زواياها وان الشيطان قد نزغ فيها ... فتعسا لحياة بلا امان...عادوا الى المنظمة في اليوم التالي ويحمل عددا كبيرا من المعلومات حول الحادث والمشاكل المحيطة بهذه المنطقة ... استقبله رئيس المنظمة قائلا : اهلا بك ياابراهيم فانت الوحيد الذي تتمكن من ان تحضر المعلومات وانا مسرور بعودتك ..

- انا كذلك لكن هناك خطورة كبيرة ..

- انا اعرف ذلك .. ولكن الوطن هو في حاجة ان يعمل له الجميع . بقي ان اخبرك بأنني رشحتك لدورة خارج العراق

- هذا صحيح ؟

- نعم فانت تستحق ذلك ... وبجدارة

- كم انت رائع ياأستاذ ((حمدون الساير))

- انا بحاجة الى الخروج من هذا الجو المشحون لتلقي بعض المعلومات

- والى اين؟

- الى عمان ... سفركم سيكون الاسبوع القادم وعليك ان تهيء جوازك

فرحة غامرة تجتاحه فكثيرا ماكان يتمنى ان يرى كيفية معيشة العرب هناك ومدى تأثرهم بما يجري من الاحداث... العراق جرحه وآلامه والدموع تسكن المآقي ولكن هو يعمل ويعمل عسى ان يحقق بعضا من رد الجميل لهذا الوطن ...عاد الى بيته وقد قضى اربع ساعات ونصفاً في الطريق لان هناك عبوة ناسفة قد دمرت واحدة من عجلات الامريكان دون خسائر اخرى مئات السيارات تصطف ، لاطريق لها سوى سكة القطار المرتفعة وحال الخروج اليها فأن مطباتها كثيرة وما أن فتح السير دخل سيطرة كبيرة انزلتهم من السيارة جميعا والتفتيش بدقة اعتقل من جراء ذلك (٢٥) شخصا تم ربطهم بعضا ببعض – فراح ينظر اليهم ويستذكر ذلك الماضي القريب – محدثا نفسه لربما ستكون مع هؤلاء بعد دقائق فانت معتاد في كل مرة ان تجرب حظك ...

المترجم يأمر الجميع بالوقوف خارج الشارع العام ورفع اليد للاعلى مع حمل بطاقته التعريفية ... وراح ينظر في الوجوه فلعله يتعرف على احد منهم ...

قدم ابراهيم هويته التعريفية (الجنسية)

- يقرأها " ابراهيم سعدون "ويهز راسه..

- كم انت بائس ثم يسأله ماذا تعمل ..

- كاسب لاشيء

- وجهك يوحي عكس ذلك

- ماذا تقصد؟

- يعني اما ان تكون ارهابيا او بعثيا او اي شيء اخر

- يا أخي ليس من هذا كله

- ولكني اعرفك وكأني رأيتك ...

- نعم فأنا امر بهذا الطريق وانت مع الاسياد دوما

- هم اشرف منك

- لاحول ولا قوة الا بالله ...

- اشرف منك انت لانهم غير ملثمون ولم يبيعوا اغلى ماملكهم الله ...اما اشرف مني فلاحق لك

- الان تذكرت انت نفسك الذي اعتقلته في ((حليج الذيب))

- نعم انا ومازلت ...

اذا رأفة بك وبشبابك فرصة اخرى سأنتقم

- الانتقام ليست لعبة الاحرار

- غادره المترجم وهو يقطر غضبا ،

ولكن ابراهيم يحدث نفسه : هل انا لاأعلم اني في قبضتهم وبأي لحظة ممكن ان اذهب سنة خلف القضبان ...

يالساني كفاك ... كفاك عذبتني

فتح الامريكان الطريق بأتجاه سكة القطار فالشارع العام هو ملك صرف لهم ونحن شعب من الدرجة العاشرة...ان المشهد مزعج جدا وانت تنظر الرجال يدفعون الى الاعتقال على الاسماء او على ارقام السيارات التي تزود لهم وغالبيتهم لاعلاقة لهم بالموضوع...ثمة سيطرة اخرى نصبت على سكة القطار تدقق مرة اخرى ...

بدأ الشرر يتطاير من عينيه ، كم نحن اغبياء حقا كم نحن جبناء ؟ الله اكبر ... قطع عن الكلام – الامريكي يتقدم يطلب بلغة ضعيفة ((جنسية)) أعطاها اياه ... ولكن هل يعرف مافيها لاأحد يعلم – نظر الى الصورة وطابقها مع الوجه ok... ثم قال: GOOD– GOOD

اي حياة تلك وانت تخضع الى طريق عسكري مليء بالتعاسة صباح مساء والى مسلحين لاتعرفهم كذلك ... اي محنة تلك ياألهي كيف الخلاص وماهي النهاية ؟

وعند مدخل القرية ... يرى من بعيد مسرفات تخرج ... يبدو ان الديمقراطية هنا كذلك ..ربما لن تصل الا عند الغروب . كانت الاتصالات مقطوعة هذا اليوم لم يتمكن من الاتصال بأهله وابلاغهم بالتأخير انها سيطرة مشتركة ... دققت مرة اخرى كذلك ودخل في وقت متأخر الى بيته ... يحمل صمتا رهيبا وغضبة ان احتمالية ان تكون رجلا مثاليا رقما صعبا في وطن تحكمه فوهات البنادق وركلات الاحذية المستعارة.

هكذا اخبر اهله بالسفر القريب ... بغية الخروج من شبكة الصيد الامريكي المنصوبة للبشر في كل الطرق...

(١٣)

أستعداد للسفر

أن حجم التضحية لاتقاس في عدد الكلمات المكتوبة فوق السطور او الكلمات التي تطلقها الحناجر في المحافل بل في ضخامة الافعال وكمية ألتار الدم التي تدفع تضحية للوطن ... فهي الاوفر حظاً للخروج من دائرة النفاق والاستعراضات الخائبة...

ان الحياة بهذا الوجه الصعب يتطلب شخصا يتحمل بمزيد من الصبر لانك لاتملك قوة مناظرة تستطيع ان تبعث الماضي وكما قالوا الزمن كعقارب الساعة لايرجع الى الوراء....أستمر ابراهيم بامكانيته المتواضعة أرسال التقارير وصور الانتهاكات عبر شبكة الانترنيت الى مقر المنظمة واحيانا بالاتصال الهاتفي تفاديا لمخاطر ، الذهاب والاياب معاناة كبيرة بات لايحتملها ناهيك عما يتعرض له من مخاطر جمة ...

يوم السبت موعد السفرالى عمان ، لاأحد معه سوى افكار وذكريات واسى ودماء وخراب يحيط ارجاء الارض وتعشعش على مخيلته اوجاع كثيرة ، اخر سويعات المساء يحدق الى ابنائه وهم يلتفون حوله يسألونه ويجيب ويكررون اسئلتهم بملل ولكن كان متحمسا لان يسمع منهم لاسيما انه سيفارقهم ولربما لن يلتقيهم تارة اخرى ...كما ويطلبون منه جلب هدايا اجبارية لهم ... بغداد والبصرة والناصرية سيلتقيهم في المطار عيونه تغرق بلحظاتها الموجعة ...

الساعة الخامسة صباحاً ينطلق الى بغداد ،وتكرر زوجته عليك الانتباه الى نفسك واياك ومعارك الصدام لاننا بحاجتك اكثر من اي وقت مضى فابتسم بهدوئه المعهود ان شاء الله – امر – امر ...

بغداد كان يجهل الكثير عما جرى من تغيرات في طرقاتها ، واطباع أناسها والدخلاء القادمين على دفة الديمقراطية ...والامريكان والمقاولين والامنيين والسياسيين واخرين من مليشيات ودخلاء مجهولين ،همس بتوصيات يكررها في ذهنه ،الحذر- الحذر لان بغداد باتت ساحة لكل من هب ودب ...وعليه ان يحسن التعامل ...

ابنه الصغير المشاكس والمدلل قائلا- عليك ان توقظني من النوم قبل المغادرة يابابا ...

- ان شاء الله

أستلقى على فراشه يفكر في صباح غد ورحلته وملابسه والسيارة التي تقله ... وماذا سيكون شكل الاردن في ارضها الوعرة او بناياتها الشاهقة وسكانها وهل سترتفع معنوياته المجهضة هل يرى كل ذلك ..هل هي شبيهة ببغداد الطرق ، الجسور ، الاسواق ، الناس ، العنف ...لا العنف لا لا لا لابد انهم في هدوء تام ...أجرى بعض الاتصالات مع زملاء رحلته ... والموعد هو ساحة ابن فرناس هذا ماحصل فعلاً ... مع رنة الجوال الساعة الخامسة ... حين تنفس الصباح مع عتمة الفجر والمساجد تكبر نهض بنشاط متوضئا بقطرات ماء باردة مبتهلا الى الله بصلاته داعيا التيسير....الليلة لم تكن هادئة ، فهناك عدد من التفجيرات وقصف الطائرات ، انهارت من جرائها منازل وكأنها ساحة حرب بلا شك ...

الفجر على الدوام يوحي بالضجر ولان ذلك بات جزءا من حياة الناس لذا اصبح الامر هينا كالذي اعتاد آلاماً يداويها وهي متصلبة تأبى الانكسار فتعايش معها كجزء من صحبة على الاكراه...الحقيبة مليئة بالملابس واخرى سجل مذكرات واقلام واخرى كلها توحي بالرحيل الى مكان بعيد وهو يجزم ان اي مكان آخر لن يكون احنّ من بقعة ولد فيها وتربى وكبر وهو يسير عن اوجاعها برغبته ...

السائق المكلف بأيصاله الى المطار يصل حسب التوقيت وحمل اغراضه والقاها في الحوض الخلفي ...

السائق : علينا ان نسرع لان الطريق الى بغداد موحش وفيه كوارث كثيرة وارتال متعاقبة ...

- لاشي عندنا هيا بنا ... لحظة واحدة

فتح الباب ونزل لانه نسي سجل مذكرات قديم يعد جزءاً من حياته يحب ان يكرر سطوره على ورقه الاصفر ...دخل الباب ،زوجته غارقة في الدموع قائلة (أسأل الله لك الحفظ والسداد وأن يعيدك كما أعادك من محنة البصرة بعد انقطاع أملي)

واردف خلفها :اللهم اني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب في الاهل والمال والولد ...ودعهم مرة اخرى على امل ان يعود بعد اسبوعين. ..

... ابراهيم لم يودع امه لان الوقت مبكر فلا يريد ان يزعجها وهي طاعنة في السن ولكنه لم ينسها واباه منذ المساء ودعا لهما في ضمير ابن بار ...

كان في تصوره ان السفر حالة طبيعية ولكن حين سارت العجلة راح يحدق الى البساتين والطرق وحجاب الفجر وحمرته بعين غارقة وصمت مطبق وتنهدات خائرة بالغثيان..

الطريق العام مليء بالمطبات ،مليء بالخوانق بعدد مكثف من السيطرات ، الريبة تنتابه فالظلام يغور في صدره بقدر عتمته المنتشرة في الحقول المحيطة جثث الدبابات العراقية المحترقة ، مدرعات مسرفة ، عجلات عسكرية منقلبة تملأ جنبات الطرق ، تشعره بالعتاب لانها ميتة وهو حي يغادرها بعيداً ، بعيداًجداً... الهواء والماء والطعام والوجع يطرح نفسه على مائدة القلب المحشي بأسرار كثر لربما لم يبح بها لاحد..

عند قضاء الطارمية كان الطريق مغلقاُ وعشرات السيارات غير المنتظمة في الوقوف تزدحم عند بوابة السيطرة ، عدد كبير ينزل الى الشارع يسأل عن سبب الانقطاع ، انها اخبار تصل عن بعض الذين وصلوا مبكرا ، ان ذلك كان بسببه مواجهة بين مسلحين مجهولين وقطعة عسكرية امريكية ، كان الوقت يمضي بصعوبة لان هناك موعدا بينه وبين عدد من الزملاء والزميلات من محافظات اخرى سيجتمعون في ساحة ابن فرناس مدخل المطار...

بعد نصف ساعة من الانتظار فتح الطريق وتم نقل العجلة المدمرة على متن ناقلة ولكن يبدو ان الغلق كان منذ الساعة الواحدة بعد منتصف الليل حسب ماأفاد احد شهود العيان وقد تعرض الى الضرب والاهانات مع انه سائق تكسي وتم ايقافه من ساعة الهجوم حتى الصباح ...

على غرار ذلك تم اعتقال عدد من شباب القرية المجاورة لانهم لم يحموا الطريق للقوات المحررة ... كما يقولون ...او انهم سبب كل الخسائر؟رحماك يارب

ينظر الناس الى المعتقلين وهم يركبون كقطيع غنم ... آه من كل هذا الأسى ومتى يتخلص الناس من الحجم العظيم لهذه المأساة تذكر قصيدة لعمر ابي ريشة (البلبل لاينسل) تلك القصيدة تركز ان هذا الطير الجميل يرفض التكاثر خشية ان يأتي لنفسه وذريته الهوان في القفص مع انه يأكل ويشرب معززا مكرماً... فهي تعبر عن كيان الانسان الجديد الذي يقبع ارادات وفق الاعداء تحت الحديد والرصاص.

يسرح بهذا الوجع ، افكار بها يمقت الزمن الذي ولد به يشرب السم في كأس ملوث ... السائق ابو صالح ينادي —

– ابراهيم ... ابراهيم لكنه في غيبوبة الحب الذي لم يطلع عليه حتى اقرب الناس ...

يكرر السائق فيرد اليه:

–نعم ... نعم عذراً ...ومسح قطرات دمعه التي تشبه الى حد ما قطرات ندى الصباح التي تعانق الشجر المهجور من الطيور شيئاً فشيئاً لانها تخشى الجمر المذنّب الاحمر الذي ينطلق من افواه البنادق–او كخرز المسبحة الفضية لابئس ان تتفرق بعشوائية اذا انقطع خيطها...

– مابك ياعم انت الى هذه الدرجة من الهموم ... ؟

لاشيء يستحق ... وطن بلا حدود ... موت مباح ... طرقات محزنة .. مصدات الكونكريت تملء المكانات ... سيطرات كثيرة لاتعرف كيف تتعامل مع القادم والمغادر ... ملثمون ...تفجيرات ... اموال تهدر وارواح تباع وارواح تشترى ... وهل تريد المزيد...؟

– كفى ... كفى أبكيتني ياعم ...كل هذا أعلمه ولكن من حقنا ان نعيش ونتحمل هذا البأس اولا واخيراًفنحن بشر...أعاننا الله على مصائبنا وعند مدخل بوابة بغداد طوابير السيارات تدخل بصعوبة بعد الاجراءات واجهزة التفتيش التي يحملها عدد كبير من الشباب واساليبهم الجافة الطافحة بالخوف والهلع ويصبّوا شر غيضهم ومفرداتهم النابية على عدد غفير من المارة الفقراء وفي حين هو واقف في الطابور ترتفع الاصوات بمسافة (٢٥)م فترجل واقفاً ينظر ماذا حدث ماالامر–اجتمع جنود السيطرة ينهالون ضربا على شاب لايتجاوز العشرين من العمر وهو يخضع كالفطيس بينهم ...بعد ذلك يركله أحدهم أذهب ((أبن الكلب)) فيرى ان ذلك متفضلا عليه خشية ان يكون الامر أتعس من هذا... سيارة ذلك الشاب (هينو)عاد ليركبها الا ان شرطيا جاء مسرعا :

– تعال تعال غبي تتجاوز على السيطرة وهي تمثل القانون ... وسحبه من ياقته وراح يأخذ حصته الصباحية وأُنزل شقيقه كذلك من الباب الاخر ليتعرض الى الضرب كذلك... كان الغضب يفور في وجههما الا انهم لايملكون حولاً ولاقوة ... اقتادوهم الى الضابط ... واراد ان يدخل ابراهيم في الموضوع ... فصرخ ابو صالح :

– ياعم لاعليك جاء دورنا في التفتيش ستهان مثلهم...

ياله من فأل صعب ... بعضنا يهين الآخر ... متى نعرف قدر بعضنا انها كارثة ان نختزل هذه الصورة لوطننا في الالفية الثالثة...

راح ابراهيم يحدق بعمق هذا الضجيج ثمة شرطي يهمس لزميله

- (الكيا فيها بنات جميلات) ويشير بسبابة يده الى جهة اليسار اي (دع الجهاز يؤشراراديا للتفتيش)انه فعل يشعرك بالاحباط والضياع لان الصدق ان تكون بمستوى المسؤولية وبقدر مساحة الماء واليابسة في الوطن ليتم الولاء ...وكما يطلق ((الروتين)) في العمل تم تفتيش السيارة التي تقلهم لكن على الرغم من كل مايحمل تحت جوانحه الا انه لم ينسَ عملا بنصح السائق وابراز هويته التي وضعها في جواز السفر ... ثم خرج من تلك البوابة التي كانت حلم حياته ان يصبح واحدا من رجالات الادب والعلم بحضن العاصمة مسيطرا على مايكنه من الحب والسلام الا ان ذلك قد ذهب ادراج الرياح واصبح مطمورا في حضن ذكرياته القديمة ...

احداث ومواقف كثر صادفته ولكنه تحفظ على الكثير املاً ان تشرق شمس المعرفة لدى الجميع ليفوقوا من بنج الاحتلال... الارصفة محطمة ... الاشجار تموت ... المتسولات في الشوارع علامات الطرق متدلية الى الارض والاعلانات مثقبة بالرصاص ... الشجر تحصده الجرافات كل شيء ليس على مايرام .....وتمر بهم السيارة الى طريق الشعلة ثم الى المطار لكنه جاء متقصدا هذا اليوم ان يعيد في ذاكرته تلك الاشلاء المتناثرة على الارض يوم عاد من البصرة قبل اعوام وكيف كان هذا الطريق مغلقاً...

استعاد في ذاكرته الاسفنجية تلك الايام بمرارة وسخط والسائق يلح على ان يفهم شيئاً منه الا انه كان يتحفظ ويخشى ان يستفزه احد فينفجر بركان

دمه...ساحة ابن فرناس قريبة جدا وهو يهيء اغراضه في الحفظة – بعض نقود واوراق ودفتر مذكراته وجواز السفر وصورة جماعية للعائلة ذات الحجم الصغير ...

الجوال يرن في جيبه ... ينظر اليه ... انه احمد زميلي في السفر

- اهلا احمد صباح الخيرات

- صباح الخير... اين انت الان ؟

- قريب من ابن فرناس وانت اين؟

- دخلت في المطار ... لاتتأخر

- ان شاء الله

ابراهيم لم ير احدا الا ومعه مودعاً يذرف دموع الحنين الى الوطن المباع انها المحطة الاخيرة التي يصافح بها السائق ليدخل دائرة التفتيش والتنقل وسط زحمة كبيرة من الناس بمختلف الاعمار ولكلا الجنسين ان المشهد مشحون بالعواطف فلا تكاد ترى مجموعة الا وشهقاتهم تنطلق في الفضاء بالعناق ...

الغالبية من الداخلين الى المطار هم مهاجرون من وطنهم مرغمون من ويلات الاحتلال انها افواج من البشر تنحرها غلظة الوجوه فخرجوا مكرهين للخلاص من القتل والذبح والتشريد وبعد سلسلة من التنقلات في سيارات داخل المطار وصل ابراهيم الى تلك البناية الكبيرة التي تضم العشرات تحت قبتها كل ينتظر ساعة الطيران والتحليق في الفضاء ليترك خلفه بغداد الرشيد والشوارع والبنايات والدماء والهامرات والعجلات

المسرفة والمداهمات لمن كان انسانا اليا متجردا من المشاعر او يحمل المشاعر ولكنه يصبر لان نبضه هو اشد من لحظات الفراق هذه ...

عند المدخل مجموعة شرطة تستقبل القادمين تفتش برفق واحترام عل ابراهيم لم ير هذا المكان من قبل ولا يعرف احداً مطلقا وهو يجر حقيبته السوداء من مقبضها خلفه ويسحب الموبايل للاتصال باحمد

- اين انت انا في الصالة الداخلية

-انا في المقاعد الاولى في الصالة على جهة اليمين ارتدي قميصا ازرق... ووجهاً ابيض وبجانبي زميلتنا سماح خليل يقاطعه

- رأيتك ... رأيتك

- يتوجه بخطاه المتواضعة وهندامه الجميل الى احمد ويقف امامه

- السلام عليكم ... ينهض احمد

- وعليك السلام ياأستاذنا ابراهيم

- كيف الحال؟

- الله احمد انا سعيد بهذا اللقاء

- وانا أسعد واقدم لك الزميلة سماح خليل رئيسة احدى منظمات حقوق الانسان وزميلتها ماجدة غائب

- اهلاً بكم جميعاً واتشرف بكم

بعد حوار عشر دقائق تبين ان احمد هو رئيس الوفد المخول من المقر الرئيس وطلب الى ابراهيم تأكيد الحجز ..ترك حقيبته لديهم وذهب الى الموظف المختص بتأكيد الحجز واجرى اللازم بوقت يقدر بنصف ساعة وهذا وقت قياسي لشدة الزحمة والضجيج ... عاد الى المكان فوجد ((سماح خليل)) وان احمد قد خرج لقضاء بعض الاشغال مع بعض الزملاء ...

ابراهيم تحمله ريبة في الحوار مع سماح ولكنها بادرت : اهلا استاذ ظننتك شاباً بأول الطريق

- بشيء من الحياء لا يا زميلتي مضى من العمر الكثير وقد اكلت منا الحياة بذراعها الطويل آملين ان يكون القادم خيراً

- انا الاطفك أستاذ...

- بأبتسامة خفيفة ... اشكرك على الملاطفة

- يبدو انك جاد في كل شيء

- نعم فأنا أطمح ان اكون كذلك ومن معي ...

لبضع لحظات من السكون ينظر ابراهيم الى سماح ... فتاة متوسطة الطول ... بيضاء ... على رأسها شال اسود تتدلى خصلتان من شعرها الا شقر فوق حاجبها الاسود ونظاراتها السود التي انتزعتها للتو من عيونها السود ... التي تخفي الكثير...

تحمل في يدها سجلاً قد كتبت فيه بعض الملاحظات ثم أطبقت جلاده الاسود ... ونظرت لتسأله :

- هل انت متزوج ؟

- أنكمش قليلاً ثم بادر نعم ولي مجموعة من الاطفال...

- لماذا السؤال؟

- لاشيء لنتعرف على زملائنا

- وانتِ ...؟

- أرملة

- متى كان ذلك ... أعانكِ الله

انه الاحتلال قتلوا زوجي في مداهمة مسائية وليلة نحسة لن انسى تاريخها مادمت حية ولذلك عملت في مجال حقوق الانسان لقضاء وقت الفراغ وعسى ان اتمكن ان ادفع شيئا من المظالم الساقطة على ادمغة العباد كما اني كتبت الكثير من المقالات في الصحف والمحافل تنديداً وتعبيراً عما مر في حياتنا من أسى ثقيل..

- ان حجم التضحية لاتقاس بعدد الكلمات المكتوبة على سطور الاوراق او الكلمات التي تطلقها الحناجر في المحافل بل بضخامة الافعال وكمية ألتار الدم التي تدفع لمكافأة الوطن وهي الاوفر حظاً للخروج من دائرة النفاق والاستعراضات الخائبة .

نظرت سماح بعيون تملؤها الحيرة بماذا ترد على هذا الكلام العظيم التي يبدو انها لم تسمع مثله من قبل فنهضت تستأذن لقضاء حاجة خاصة بها فنظر خلفها وهي ترتدي ابشع الملابس من الضيق ... فاتنة حقاً ... وسحب دفتره الخاص وبدأ يسطر ذكرياته التي أعتاد ان يكتبها على الدوام ...وصل احمد ضاحكاً وخمسة من الزملاء وقف ابراهيم يستقبلهم ويتعرف عليهم ...كانوا حقاً يحملون طيبة العراقي الحقيقي انهم ملحمة العراق وجراحات مدنه وشوارعه وحدائقه وحكايات الطفولة وتراث الامة وتحفة الزمن التي لم تتعر مع الزمن ...بدأت المجاملات مع زملائه وكأنه يعرفهم منذ زمن بعيد لكنه كان حذراً بالوقت ذاته اذ انها غير كافية ان يعرف خفاياهم ...

وبين وقت وأخر يأتي النداء ... الطائرة متوجهة الى بيروت ... الى مصر العربية ... الى؟؟؟ ....نبض قلبه يتهجد بصمت بين ضلوعه مراقبا مايجري عن كثب

كان بأنتظار ذلك النداء الذي يصلهم لتقديم جوازاتهم ...

ماجدة غائبة وهي احد اعضاء منظمة سماح خليل تنزوي بهدوء على اخر الطاولة ،سمرة الجنوب ترسم مدياتها في وجهها الشاسع ... كصحراء تتوسطها عينا ماء ... محتشمة جداً تنهض من مكانها مقتربة منه ... اهلا بك أستاذي العزيز

- اهلا بك مرحبا – تشرفنا

سمعت حديثك الى سماح فأعجبت جداً وفجر بركان صمتي الى حد أنني لم احتمل حتى اني بكيت ... (الوطن) لم يزل يحفر على جدار

قلبي وكلما مر ذكر به الوطن فزعت على فوري ... ولكن حديثك الى سماح بعيد عنها فهي غارقة عنه وفي دوامة ان تجد نفسها ... مسكينة حقاً لانها قد ضاعت في اول الطريق ...أنا أشكر أهتمامك ... فسمرة وجهك تذكرني في البصرة قبل سنوات تذكرني في شط العرب والسياب وساحة سعد ،أنا بصرية حقاً واسكن بغداد مع أهلي منذ سنوات قريبة ومن ابرز مطالعاتي الادب والعمل في منظمات حقوق الانسان....تبتسم بحياء اخشى ان اكتشفها في نهاية المطاف انها اكذوبة لا علاقة لها بما نبحث عنه ...نتمنى ان تكون النهاية سارّة ... لا مفجعة

أبراهيم تعجبه هذه الفتاة فهي الشخصية الاولى التي يواجهها وهي تبحث عن درتها الضائعة ... كم هو مسرور حقاً .. لكنه كان خائفاً بالوقت ذاته ....

أحمد وزملاؤه ينادونه هيا بالجوازات النداء وصل ... نهض بنظرة اخيرة الى زميلته اشاره الى انه معجب بما تقول

أجراءات التفتيش وختم الجوازات وانتظار في القاعة المؤدية الى صالة صعود الركاب ...

الساعة الحادية عشرة والنصف اصبح الجميع في الطائرة وتشاء الاقدار ان يجلس مع ماجدة سوية ... كان فرحاً الى حد ما لانه وجد انها نافذة ينظر للعراق من خلالها وهي توافقه في الاراء والتوجهات ...وانها امراة لطيفة غارت بشجونها في حواشي قلبه المعذب ماأن تحركت الطائرة ... والدوار نزل في رأس أبراهيم حتى لوح بيده اليمنى وداعاً ايها الوطن ... حرسك الله وحفظك ... وأعادنا اليك بالخير والبركة ...

دموعه تنزل وهو ينظر من النافذة الزجاجية ... حتى استقرت في عمق سماء بغداد وهو ينظر ... لاسيما انها المرة الاولى يذهب مسافراً جواً ... مسح دموعه ونظر الى زميلته ماجدة فوجدها تصمت ودموعها تفيض حول جفنيها فزادها جمالا وروعة فأبتسم قائلاً الحمد لله ...

(١٤)

العودة من السفر

اذا كانت حقوق الانسان ... كأس وغانية ورقص فمن للفقراء في قلب العاصمة بغداد والشعراء والصور ... يرددها وهو يقطف من الفضاء لحظات الوداع منها عبر مسافات شاسعة حيث يرتفع والاشياء تصغر ... كان يود ان يلتقي بنفسه ويحتضن الطرقات والبنايات والحدائق والشجر....ابراهيم يكن لوعته ولم يتخل عن الصبر ويتذكر تلك الحكمة التي قرأها ذات يوم (لاتتم الاعمال العظيمة بالقوة بل بالصبر) ولكن ياترى هل ان صبرك سيتمم حلمك العظيم ... اذن نصبر وننتظر عسى ان يكون الفرج قريب ..

الطائرة تشق جسر السماء برأسها المدبب وجناحيها الكبيرين والريح تهرب يميناً وشمالاً عن سرعتها التي تتزايد كجراحاته التي يكتبها لنفسه ولايقرؤها غيره ربما يكون ذلك الوجع متطرفاً الى حد ما ... لكنه حقيقة لايمكن ان ينكرها ...

سكون الطائرة في الارتفاع يظهر الاشخاص والعجلات والمنازل شبيهة بلعب الاطفال المنتظمة في ساعة اللهو ... لكن الصمت مطبق ويكمم الافواه حد الالتحام كمن غالبته الدهشة في أمر مريع

بغداد تنتهي اخر صورها على أمل العودة اليها قريباً ينظر بقوة الى المسافرين ويرمقه احدهم بشكل فيه سخرية فرد في قلبه ((لا يسخر من اوجاع الجروح الا من لا يعرف اوجاعها)) بصوت خافت ماجدة تقول :

- اراك في طائرة اخرى

– نعم انا كذلك وأعذروني فتلك مقادير حياتي ... انا لاغير فهل تنظرين الغيوم التي تبدو كالزجاج الشفاف وهي ترسم اجمل لوحة فنية وهي ترتمي كالجبال العظيمة على الارض .. ياألهي ماهذا الجمال ، ماهذه الصورة التي تنطق بشفتيها الينا .. لسنا في حلم اننا في حقيقة مليئة باليقين ... ولكن هناك فرق كبير في عين الناظر ... فربما يظن البعض انها مجرد اوهام وخيال ولاتعني شيئاً ...

كم ان مشاعرك دقيقة فهي تركز بكل شيء؟

انظري تلك الطيور التي تبدو كأنها نقاط او علامات استفهام تختفي في الوديان السحيقة ...

– ياألهي كم انك تخيفني ... كم تثير استغرابي؟

– أسف لن اتحدث

أبتسامة ...

– لاأقصد فكلامك جميل جدا وكم يعجبني ان اسمعك وانت تتغزل بجراحك من السماء

بأستغراب

– اتغزل ...نعم لان الحزن قد اخذ مساحة عريضة من كلماتك وحتى افراحك تغشاها الوجع ... فلا أعتقد انك تحفظ نكته واحدة

– لا ... لدي نكته واحدة

- اتمنى اسمعها ...

-الاخ الاكبر يقول لاخيه الاصغر في الصف الاول

أجمع لي هذهِ الحروف لتصبح ذات معنى

الاكبر – ن – ا

الاصغر – نا

الاكبر – وماذا نضيف لها لتصبح نار

الاصغر – نسكب فوقها نفط

- ضحكت ماجدة حتى دمعت عيناها ... وكلما حاول ان يسكتها ببعض الكلمات انفجرت ... حتى قالت له

(انا لم اضحك هكذا منذ عام ٢٠٠٣ ولكن اليوم قد افرطت في ذلك ...)

- ولكن هذا الذي اضحكك ابكاني حقاً

- لماذا ؟

- لان النفط قد رموه فوق جثثنا واحرقوها ... وبيوتنا وشوارعنا وكل شيء جميل ... وسرقوا الابتسامة الجميلة من وجوه اطفالنا وابدلوها ببكاء مر ضاعت امامه كل الامنيات الجميلة...!

- اذن حفظتها لأن ، فيها وجعاً

جاءت المضيفة وقدمت وجبة افطار خفيفة للمسافرين ... ("صمونة" يابسة وجبن وشاي وبرتقالة واحدة ...) و...صمت ... صمت ... صمت الساعة الثانية عشرة ظهراً وعشرين دقيقة ... الكابتن ينادي اننا في المملكة الاردنية ارتداء الاحزمة والتهيؤ للهبوط .. في مطار الملكة عالية – نزل المسافرون في المطار وكانت السيارات مهيأة لتقلهم الى الفندق الذي تقام به الدورة التدريبية.

كان ابراهيم ينظر بشغف لانه لم يطأ هذه الارض سابقاً ... فسبحان من جاء به وجعله بين جمع المثقفين ...تم استلام حقائبهم وتوجهوا الى مكان الاقامة كانت فرحته كبيرة ازاء ذلك لانه كان يظن لديه انه سيواجه صوراً اخرى وأملاً يدفعه للبقاء والاستمرار في العمل ...

على مدى نصف ساعة وصل الجميع الى الفندق وسط عمان ... وأستقبالهم من قبل منظمي الدورة ... كانت لحظات ترحيب تستحق التقدير

وزع الجميع على الغرف واخبرهم احمد ان علينا اللقاء بعد صلاة الظهر لمعرفة بعض التوجيهات الخاصة بالدورة ...

الساعة الثانية بعد الظهر تناول الجميع وجبة الغداء التي جاءت مختلفة تماماً عن الطبع العراقي الذي لايضاهيه مذاق اخر ...

كانت من اهم التوجيهات للزملاء العشر ((ارتداء القيافة الرسمية التي كان ابراهيم اشدهم التزاماً بها ... والطروحات المناسبة وفي الوقت المناسب ولابد ان نعكس صورة العراق الحقيقية ....))

أتفقوا يوم غد هو اليوم الاول من الدورة (المعايير الدولية للمحاكمات العادلة – وحقوق الانسان .....) ومواضيع كثر بهذا الشأن توجه الزملاء والزميلات الى السوق في عمان ... (المسرح الروماني – البحر الميت)...و...و

وكان ذلك منظم حسب جدول تم اعداده من قبل الزملاء الذين لهم تجربة بهذا الشأن وخاصة ((سماح خليل)) التي يبدو عليها انها جاءت لمرات عديدة فهي تعرف جميع المناطق والامكنة وحتى الشخصيات وكلما تحدثت بأمر ما تجد ماجدة تنظر الى ابراهيم ولكنه يجهل الكثير من الامور التي يتسابقون اليها ....الصمت يأخذ وقتا من حياته في الغرفة الخاصة والصالة ووجبة الافطار الا اذا وجه اليه سؤال ما ... وله معلومات كثيرة لان له سيرة ذاتية زاخرة في القراءة والعمل الفعلي وخلال عودتهم من سفرة الترفيه جلسوا بحديث عام وشامل كجزء من التعارف استعرض الجميع حياتهم ... فبعضهم كان موفقاً في ذلك ،عمله وسيرته الذاتية من خلال الاشتراك في مؤتمرات خارجية وداخلية ولديهم مؤلفات من الكتب والروايات ومجاميع قصصية وبعضهم حشر نفسه على وفق التجربة العراقية الجديدة فهو لايقوى الحديث (١٠) دقائق امام الزملاء .... فلا يعرفون ما علاقته بهذه المهمة ...

عاد الجميع الى غرفهم وقد اغلق ابراهيم الباب وتناول مذكراته وسطر عليها ماشاء ... ثم تناول رواية زقاق المدق واطلع على بعض اوراقها الصفراء ... ونام حتى الصباح ...وتناول الجوال صباحاً واتصل بعائلته كيف حالكم عساكم بخير؟

- نحن بخير الحمدلله افتقدناك ....

- انا هنا في عمان الجمال والطبيعة والهدوء

- الا تسمع المسرفات ؟

- أبتسم لا والحمدلله وحفظكم منها ....

-وداعاً

-وداعاً

بعد نصف ساعة الباب يطرق ... كان قد انهى تغيير ملابسه البدلة السوداء وربطة العنق الحمراء وتحرك الى الباب ليفتحه واذا ب(ماجدة) صباح الخير ياأستاذ...

- صباح الخير مرحبا

- هيا انا اسبقك الى قاعة المحاضرات

- سأحمل حقيبتي الصغيرة وانزل معك

خرج قائلاً ...

- ترى لماذا تركز عليّ بهذا الشكل (ماجدة) همس لنفسه اصمت لاداعي لكل هذه الوساويس والخرافات تناول الفطور الصباحي مع الزملاء – وتحركا الى القاعة ... كانت مهيأة حقاً بكل المستلزمات الخاصة بعرض المواضيع (سبورة زيتية – داتا شو عارض – بلازما..... الخ)القاعة يجلس

بها عشرة اخرين من دول عربية متفرقة خمسة شباب وخمس شابات وبتخصصات مختلفة ...بدأت المحاضرة الترحيبية الخاصة بالمؤسسة اسمها وطبيعة عملها واهدافها وانجازاتها وابرز الفاعلين بها ومنهاج الورشة ...

بعد هذا تم اجراء تعارف بين الشخصيات المختلفة من اشقاء عرب ... الجو مريح لاسيما الزخارف واللوحات والهدوء والكلمات التي تعبر عن أعظم آيات الود والسلام ...

كانت ماجدة هي الاكثر تركيزاً دون غيرها من الوافدين ،تسرق نظرها بين حين وآخر الى ابراهيم الذي تفاعل طيلة ساعات الورشة مع المحاضر واسلوب التقديم والوسائل الحديثة ...

يشطح فكره بسؤال غريب عند النزول من مطار الملكة عالية اثناء ختم الجواز اذ كان امامه وافدين احدهم شخص سعودي والآخر اماراتي على اكثر الظن فقد اعطيا شهر للاقامة ... اما هو بمجرد وضع جوازه على الطاولة الزرقاء من النافذة الزجاجية حتى أشّر له سبعة ايام ... يسأله ان ورشة العمل عشرة ايام

- ياسيدي لاتتعبنا معاك انت (مش عراقي) ؟

- نعم عراقي

- اذن هذا موضوع يعود لنا

- سحب الجواز ولا يعرف سبب ذلك التعسف حتى سأل من هو اقدم تجربة في موضوع السفر فأجابه :

الشخصيات التي قبلك دولار يمشي على الارض وانت عراقي كما يقولون (كحيان) ... بل هم براميل نفط مصفى فلا تبتأس انت عراقي

- نعم انا عراقي واعتز

ماجدة كعادتها تنظر الى هذا الرجل بعين الاحترام وتندفع للجلوس معه حال انهاء المحاضرة والكلام عن اهم مارأته من جمال الطبيعة وعن امطار الليلة الماضية قائلة:

- كنت انظر الى السماء من النافذة وهي تنهمر بمطر غزير كافواه القرب والى الشجر الاخضر الذي يطلق صيحاته الصامته بالبريق على ضوء المصابيح ... وكيف ان الارض قد ابتلعت كل الماء ومنحتنا عرفانا بان نطأها عند الصباح دونما تكبرّ...يالها من طبيعة جذابة وارض متواضعة ،اثناء هذا

الجوال يرن في جيبه

– بهدوء ينظر الى ماجدة : اسمحي لي

- تفضل

- الو اهلا حبيبتي الغالية

ويذهب بحديث شديد العذوبة والشوق والعطف ... وهي تسمع كل هذا ولكن مزاجها ينشرح تارة وينقبض في اخرى ...انهى مكالمته واعاد الجوال في مكانه قائلاً: عذرا ست ماجدة قطعت حديثك ...

- لا أبداً ولكن من هذه التي سلبت عقلك بهذا الترحيب الحار...؟

- يبتسم انها ام العيال

- ها انا لم اسألك ....انت متزوج

- وهل تليق العزوبية بهذا الشيب؟

صمتت وبدى عليها شيء من الانزعاج ، ربما تخفي شيء ما ؟

ينظرنحوها – سيدتي ان الحياة الزوجية عالم شديد الروعه به اسرار الكون والالفة والمحبة والصدق ، به يعرف الانسان قدر الاخرين ويعرف حق والديه على انه مشروع يستحق التضحية ولكثر ماأشتاق الى كيان عائلتي المختصرة ...

- وفقك الله كم انت رجل واضح وصريح اعزك الله وعائلتك فانت جدير بالاحترام وفي الحقيقة لم ار شخصاً مثلك فأنت تشبه الى حد كبير أخي وفاءا لوطنه واهله وحرصه على الثقافة والعلم ولكن يقولون ((ان العزوبية تاج يرونه المتزوجون على رؤوس العزاب))...

- ينظره التعساء فقط اما السعداء فهم ليس كذلك ...

يقلب ابراهيم بوقت قصير بعض صور كان يحملها فينسى انه يجلس مع انسانة وهي تهتم به اشد الاهتمام لما رأته من مايتميز به من المروءة والحكمة والثقة بالنفس ...

تردد مع نفسها ((ياليتني ظفرت برجل كهذا)) ماأتعس حظي فشيبه المتناثر يليق للوقار ... وصفار عينيه ميناء ومرسى ، وسمرة وجهه خارطة العراق الذي احب منذ كنت طالبة في الابتدائية عليها باسقات النخيل

ودجلة والفرات ومحافظات العراق والشمس والقمر والمكتبات يحمل كل شيء ... وقلبه الذي ينبض على تلك القسمات لم يختف منه شيء ... وجسده النحيف الذي يحمل اعباء الوطن ..

ياليت كل الرجال هكذا ... ياليتني كنت مثله ...وتنهض من مكانها وتنسحب بهدوء وخيط الدموع يجر خطاه فوق خديها وتضم خيالاتها لم تبح لأحد بها ...

احمد سعيد رئيس الوفد يأتي بجماله وكبريائه وخفته الى ابراهيم :

- السلام عليكم

- ها اهلا استاذ كيفك عساك بخير

- اراك بعيدا عنا فهل وجدت وطنا اخر غير وطنك

- لا ابدا ماذا تقصد

في الحقيقة الجميع يحترمونك ونحن سعداء بلقائك وطروحاتك وتميزك يثير الانتباه واتمنى ان تكون اكثر اندماجا معنا وقد ذكرت الست سماح خليل اسمك بكل خير واثنت على خلقك علما اننا مدعون جميعا من قبل المؤسسة المضيفة على حفلة عشاء وهذه دعوتك..

- حسنا ستجدني اول الحاضرين

بعد وقت قليل اجتمع الزملاء حول ابراهيم سعدون فمازحه حيدر شاكر يا اخي اراك تحب الجلوس مع: واغمض عينيه اليسرى : فضحك الجميع

انا احبكم جميعا بلا تمييز فانتم ابناء وطني الحبيب ومهمتنا مشتركة في الدفاع عن حقوق الانسان...عودة اخرى الى قاعة الدرس وطرحت مواضيع لها تماس كبير بالوضع الراهن في العراق والانتهاكات والقتل والتهجير وهجوم الطيران ...كان على الدوام يناشد بقلب العراقي الاصيل وهو في العاصفة – اين حقوق الانسان من مشكلة العراق وعشرات يقتلوا بل مئات ونار الاحتلال تحرق الغث والسمين وفي كل زاوية تجد لثام تكميم الافواه وتغييب الشهود فهل للورق فائدة المخطوطة بالحبر الاسود ... كل الجواب على الدوام ان وسائل الفضح باتت غير مقيدة وانها عن طريق الفضائيات وشبكات الانترنيت ...

فيرد : انا لاأطلب الفضح انا اريد الالتزام لان الخسائر عراقية لاغير ..

بدا بعد كل وقت يمضي يشعر انه يلاحق خيط دخان في السماء فربما يموت ولن يبلغه وان هؤلاء هم مجرد دمى متحركة وألسن تقرأ ماكتب السلاطين اهل الجور على الضعفاء .. كل يوم يمضي يشك تماماً ان تلك الوجوه هم الذين يحققون مكاسب القتلة والمحتلين بطريقة ذكية ... يحققون من حيث يدرون او لايدرون برنامج كيفية زرق ابرة الاتروبين المخدر المهدئة للاعصاب والتي سرعان ماتعطي الفلتان العصبي والهستيريا ... نعم اننا مجرد دورة حضانة ستنتهي والغاية صنع ببغاء قادر على الحديث يمكنه اقناع الاخرين ... ولكن الحقيقة كل الحقيقة اننا غير قادرين على فك شرك هذا الطلسم الذي عقدته الدول العظمى على رقاب الفقراء من بني البشر ...

ربما كان على خطأ جسيم وكان يتمنى ذلك الا انه بقى يحلم ان يرفع جزءاً من الحيف...

انتهت المحاضرات ومنها الى وجبة الغداء الضخمة التي يفتقد لها الكثير من بني البشر – شباب وشابات في عمر الورود ... هم خارج تغطية افكار ابراهيم ضحك – وسخرية – ولعب ... الا عدد قليل هم يتحسسون الاوجاع في كل امسية وهم يتابعون حمام الدم المتنقل في العراق بين ساعة واخرى على شاشات الفضائيات الماجورة كذلك ...

قضى الجميع وقت الاستراحة والاستعداد لحضور وجبة العشاء ، كان يفكر في مكان الدعوة وفخامته والاشخاص الذين سيحضرون ونوع الاثاث والاطعمة التي ستقدم والمواضيع التي ستطرح والفتيات هل هن كما يرى في الاسواق والطرقات والاماكن العامة يجزين الشباب شكلاً ومضموناً ويضيعن حق الطريق ...

اجتمع الزملاء والزميلات في الصالة الوسطى ، وكان اخرهم ينزل من غرفته الصالة ... المفاجأة كانت كبيرة اذ رأى الملابس الفضفاضة للفتيات ، حمراء – زرقاء – خضراء ... الا فتاتين او اكثر ارتدين الحشمة من بينهن ماجدة التي ركنت نفسها اخر الجلسة ... جلس بابتسامة خفيفة بعد السلام ممتعظا محاولا ان يخفي ذلك وسألهم عن المكان والزمان وكيفية التنقل الى المكان ...

اجابه احمد عن التفاصيل جميعها ...

لم ينبس بكلمة واحدة وهو ينظر الى العراقيين والعرب وهم يقلبون في الجوالات الجديدة التي لم ير منها من قبل والى تلك الملابس الضيقة والمكياج الصارخ والضحك الذي يملأ المكان...

بات الاستغراب يزول لحظة واخرى لانه ليس في قرية نائية لم يصلها احداً ولم يسمع في اسمها – انها عمان – الاستقرار والامن والسلطة والطرق والاضواء والفنادق والمولات ... ربما كان مع نفسه يقول عليّ ان اكون طبيعياً للغاية في التصرفات وان افصل مابين مهمتي التي اتيت من اجلها وبين البرامج التي اعدت لايصالها نظرياً فلربما انهم في حقل الارهاب او انتهاك حقوق الانسان او الخرف والتخلف ...

انطلق الجميع الى الحافلة مع اول منبه بعثه السائق في باب الفندق كانت الحافلة يغطيها الصخب من اغان عربية مرة واجنبية في اخرى لايكاد يفهمون منها شيئاً ... او لربما هو الوحيد الذي لايفهم شيئا...

التصفيق بالايادي يعتلي مع المدرب المختص والمتدربين ، في حين روحه تجتاحها الالام فهو يسمع بأذن قلبه صرخات اطفال تملأ المكان ، انها لاطفال عراقيين يموتون ... ويقرأ رسائل تصله بين الحين والاخر المداهمات والمواجهات المسلحة ... سبحان الله كم بيننا وبينهم فرق كبير زغاردينا فوق دمائنا يالها من اقدار مؤذية

صوت ناعم وهامس بجانبه كيف حالك:

- ها ماجدة بخير والحمدلله ...

- اراك في عالم اخر

- لا ابد استذكر شيء ما جال بخاطري

مؤكد انه العراق – بغداد – الرشيد – الميدان – السليمانية – صلاح الدين – وبكاء طفل عابر تتسلل اليك برسالة عبر الاثير

– انت داهية ماادراك

– لاني كذلك وصلتني بعض الرسائل حول ذلك من بغداد وبابل

كما تذكرت صديقاً تمنيت ان اراه اسمه محمد آه كم انا مشتاق ان اراه ياله من رجل غيور وقد ضيفني ذات يوم ولا اعلم اين اصبح منذ ست سنوات تقريباً

جمعك الله به على الخير والسلام...

عند باب الصالة تقف الحافلة ويترجلون وكان هناك وفداً للاستقبال بالبدلات السوداء والوجوه البيضاء والاطوال المتناسقة والكلمات السارة بالقدم واعمار في منتصف العقد الثاني او بداية الثالث ...

كان ينظر الى ذلك البناء المتطاول مع زرقة السماء والزخرفة العجيبة والكلمات باللغة العربية والانكليزية ((اسم الفندق)).. مع تسطير(٥) نجوم والباب العملاق الذي يفتح مع خفة قرع الاقدام ... الفضاء مريح للغاية ، اللوحات الفنية ، الزوايا ،شاشات عرض المنتشرة ، الاشخاص ، كلها تشير الى الترف والراحة والاطمئنان يصعب مقارنتها بحياة عجوز تأن بأوجاعها في كوخ صغير بأقصى العراق او غرفة طين سقطت من القذائف التي لاتنفك ان تهدأ في بعقوبة او بغداد او صلاح الدين " يثرب او الضلوعية او سامراء – الدور والاسحاقي والدجيل وبلد وغيرها كثير...

لقد كانت خدمة واتكيت وبروتوكول عالي الترتيب لم يكد احد قد رآه من قبل الا في الافلام ... كان هذا الفضاء عبارة عن مسرح ودائرة تجمع الضيوف ... ثم التحية والتهليل والترحيب بشكل ملفت للنظر ...

كان يشعر بنزول هممه الى حد كبير وهو يرى الصخب قد بدأ يرتفع شيئاً فشيئاً وينهض الجلوس للرقص على الالوان الضوئية ...انهم مسؤولون في منظمات كبرى نساء ورجال ، قد انستهم هذه اللحظات المهمة التي جاءوا لاجلها ... لعل السبب مرتبط تماماً بانهم سمعوا عن الانتهاكات وسطروها حروفا على الورق وتداولوها ...لااعتقد ان احدا من هؤلاء يمكنه ان يرق قلبه الى الدمع حين يستذكر زهراء تلك الطفلة التي ماتت ظلماً وعدواناً وهي تعيش بتلك المنطقة المحاذية لقاعدة البكر الجوية : كانت على صغر سنها فهي متفاعلة على مساعدة امها اذ تعمد الى غسل اواني الطعام كل صباح بالماء الذي ينساب ببطء من الحنفية وكعادتها نهضت مبكراً على صوت امها الى المطبخ المتواضع متفانية في الاستجابة لطلبات امها صغيرة او كبيرة ... فكانت الام تنظر خلفها وتدعوا لها بالحفظ والسلامة .

الساعة السابعة حملت امها الاواني الى الخارج والشمس قد اشرقت الى بيتهم المتواضع لتبدأ الغسل بالجلافة ومسحوق "التايت" فهي على الدوام لاترضى على تنظيف امها فهي تتقمص دور الام الحريصة ...

امها خرجت الى الحقل لاداء بعض الاعمال الخاصة بهم كامرأة ريفية فسمعت صوتاً مدويا من القذائف قد سقطت على مقربة من دارهم وعلى مسافة (١) كم ... كانت حساباتها لاتخطيء لقد خافت ان تكون تلك الشظايا فوق الدار فهرعت بقلب ام خائفة كأم موسى تخشى الغرق على

ابنها وكلما تقدمت تسمع صراخاً ودخان ونار تستعر يموج امام الدار ... ياللكارثة – ماذا حدث ... اقدامها كانت لاتقوى ان تحمل جسدها المرتجف وبين الاشجار القريبة من الدار جلست وقد جف وجهها واصفر واحمر فسمعت صوتاً عالياً ((زهراء – زهراء)) فنهضت دون وعي لتستدير من خلف الدار وقد اجتمع الناس وهي انكفت على اوانيها فصاحت (ابنتي – ابنتي) ونزلت اليها وقلبت وجهها – انها صامتة وفتحت عيناها بآخر نظرة وداع لأمها مع دمعة طفولة بريئة سلبت باقي عمر امها ... حضنتها بصمت ... لا لا يابنتي لا تموتي ... لا لا ...

الدماء قد غطت صدرها الذي ملئ بالشظايا ... هي لاتختلف عن الاواني قدور وصحون فافون وبلاستك التي كانت مثقبة كذلك ... حملوها الى المستشفى ولكن لم يتمكن احدا ان يأخذ زهراء من صدر امها ... تبكي وتصيح ... تصرخ ... ياويلي يازهراء لم يبق لي احد بعدك ... لعن الله الامريكان ... لعن الله الامريكان ...مسكت ظفائرها الصغيرة تشمها حتى رق الصخر دمعاً لعويلها وبعد الاجراءات الطبية ... تبين انها فارقت الحياة لان عدد الشظايا قد امات قلبها عن النبض من اول الدقائق ... دفنت زهراء في المقبرة المجاورة وعلى مرتفع عال .. وجن الليل اوصاله بالهم على والدها الذي ارتضى بالصمت والدموع قائلاً والله لولا الحياء ويقولون رجل لصرخت ليل نهار ... انا لله وانا اليه اليه راجعون

لم تزل ارواح اهل زهراء راقصة ولكن هناك فرق كبير بين رقص منظمات ومؤسسات حقوق الانسان وبين رقصة والدين جريحين من شظايا الاحتلال

رحلة ابراهيم في ذلك غارقة بأنسان خارج المدار ... قدمت وجبة العشاء ولكن نفسه عزفت عن الطعام ... وبعد ذاك المشروب ((الخمر)) وبعد ذلك ليال حمراء ... النساء تدور هنا وهناك في غرفهم ؟؟؟

وتبين ان حقوق الانسان مجرد كأس وغانية لدى الكثير وهو يخرج بين الحين والاخر من المكان لانه ماعاد يحتمل حجم التفاهات وكانت ترافقه ماجدة التي رأت خيط دمع خفيف ينزل وهي اعرف بمعاناته ...

قضيت الليلة بساعة متأخرة وانه لم يفهم منها شيء ولم يفهموا هم كذلك وكانوا يمازحونه الشباب بلطائف وهو يبتسم كذباً وزوراً ... رئيسة المنظمة سماح خليل ... كانت بنظره شنيعة جداً ... كم بات يكرهها ولايحب ان يراها وقد حصلت على فيزة لدولة اخرى وبرفقة ماجدة...

فمانع هذا المشروع قائلاً : ياماجدة انت انسانة محترمة ابتعدي عن اسوار هذه المنفلته ... واختاري لنفسك طريقاً أخر ... ماجدة :

- انا احذر منها وحتى من الدخول بغرفتي لوحدي واعتز بكلامك وسأرفض كل عروضها علما انها لاترتاح لك كذلك

وفي خارج الصالة وقفا سوية في هدوء الى حد ما .. انا اقول لك انك انساناً مثالياً وعظيماً ويااليت كل الرجال مثلك لقد شعر الاثنان بجو من الهدوء والخروج من دائرة الهموم في حديث غارق ببعض القصص التي تثير الانتباه في الروايات التي كان يقرأها لكنه على الدوام كان يركز على تلك التي تنتهي بالحزن والفراق واللالقاء ... فقالت ماجدة انا بحاجة ان اسمع ولو قصة واحدة او رواية بنهاية سارة ... فضحك قائلاً سأفتش في

القادمة كان اغلب الزملاء يظنون ان ابراهيم قد ارتبط عاطفياً بها لانه ينصرف الى حد ما بالحديث معها وهي كذلك.

انه يحبها ويحترمها وتحرك مشاعره و لكنه يوقف هذا السيل عمره واهله ووضع البلد ... والمستقبل المجهول ...؟

انتهت هذه الامسية بهذا "الزعيق" الصاخب والضجيج الذي لم يرق لهما توجه الجميع الى الفندق في ضيم اتعاب نهار طويل وأمسية ضاجه بالاسى الثقيل ...

تنتهي الدورة التي جاء اليها بكامل استعداده ليتبضع بعض الهدايا لعائلته ويقف مودعاً كل شيء في عمان ومعتذراً للعراق ولنفسه ولذكرياته التي ارقته ليحمل الاعباء من جديد ... بل مودعاً ماجدة ذلك الملاك الذي احتوى على افكاره ومشاعره بل وخير مالاقى هنا انها امرأة ظريفة ... رقيقة ... مثقفة مخلصة لاهلها ... كان الصباح الاخير وهم يصعدون الطائرة عائدون الى ارض الوطن الى الجراح التي طالما اشتاق ان يعود اليها ... انها مزيج من حياته الحاضرة التي لاتنفك ان تفارقه ... وتمضي ساعة ونصف في الفضاء ثم الهبوط في مطار بغداد الدولي ليفترق الاحبة من جديد ... على امل اللقاء .. لتقول ماجدة (اياك ان تنساني فاني سأبقى افتش عنك في مذكراتي ... ولسوف تكون انت الحياة الذي افتقدها على الدوام)

وانا كذلك يانخلة العراق الباسقة في السماء...سنلتقي اذا كتبت لنا الاقدار مرة اخرى واذا كان عكس ذاك فاذكرينا بخير واعذرينا... لوح بيديه واختفى في زحام ابن فرناس ودع الزملاء والزميلات على امل اللقاء .

(١٥)

بغداد مرة اخرى استهتار ... استنزاف ... تهكم ... الخطوات تعيد نفسها من عمان الى بغداد والاوجاع ذاتها .... لا بصيص امل يعيد ولو جزءا من الشعور بالامن والاستقرار..

بغداد مرة اخرى في حياته ، غصة حزن وهو يلقي النظر بشوق كبير ، هو يرغب ان يمتد على الارض يقبل الثرى والنبات والطرقات والشجر ، الدموع تنزل من ساحاتها البيضاء دامعة متأوهة الى حجم الخراب المتناثر هنا وهناك ...المنبهات الهوائية تتعالى وعجلات الشرطة والحرس الوطني خاطفة كالبرق الاطلاقات تملأ الفضاء(سكارى وماهم بسكارى)

ها قد عدت بإبراهيم ... وهاهي بغداد على ذلك الانين الذي ودعته قبل عشرة ايام ... السيطرات الحكومية تملأ الشوارع وهي تخنق في عنقها الارتال والطوابير الكبيرة ... الصاخبة وفي نهاية كل هذا يقف جندي اسمر امام صف الصبات الكونكريتية يلوح بيده آذناً بالخروج من السيطرة ... في الحقيقة لانعرف نوع الخدمة التي يقدمها الجندي الذي وضع حطباً لنار ستلتهمه اليوم او غداً مسكين حقاً فهو في زهرة الشباب ويتحمل مسؤولية ترهقه ... سمرة وجهه ، ضعف جسده ، ملابسه ، الكبيرة الحجم التي ضاعت تفاصيل جسده بداخلها ، عدد مختلفة فوق راسه وفي يده ، مسدس معلق على القدم وكسارات ومصدات رصاص حديدية على صدره وبندقية ، تراه لايقوى على حملها ... واعداد من هؤلاء بشكله وحالته ...

رفع الجوال متصلاً الى بيته بانه يودع بغداد قاصداً بيته وترد ام عياله

– اهلاً وسهلاً كم نحن مشتاقون لرؤيتك ... ويسمع رقص واهزوجة الاطفال حول سماعة الجوال وكأن قلبه فر من صدره يود لو يطير ويصل هناك ...

الطريق مزدحم للغاية بعدد من السيارات العسكرية والمدنية منها ، والسيطرات اعتادت بطبيعة عملها ان تؤخر الخارج والداخل وبين واحدة واخرى مجموعة من الرجال تربطهم الجامعات الحديدية او البلاستيكية والاعين معصوبة ولااحد يعرف سبب ذلك ... وبين السيطرات العراقية هناك سيطرات امريكية تفتش كذلك ، ان الجزع والارهاق والعذاب يمر حتماً ولو كنت تحمل جبالا من الصبر والاسئلة مكررة (من اين والى اين ؟)

ماذا تعمل ومستمسكاتك الرسمية ... وهل السيارة بأسمك وبعد انتظار لتفتيش السيارة وانت تقف جانباً وكأنك متهماً فعلياً ... وبمعاملة قاسية والفاظ نابية ولكن عليك ان تكون حملاً مطيعاً للمطالب وان تفتعل نوعا من الابتسامة والتفاعل وتجبر احياناً على ان تشكرهم وان تلاطفهم ... انها صورة الديمقراطية التي تملأ الشوارع قسراً ... العراقي تهان كرامته ولايستطيع ان ينبس بكلمة واحدة لانه يؤخذ من الشارع ولربما لن تراه حتى يرث الارض ومن عليها...

الطريق مليء بالتناقضات والاحداث والمشاهد الزائفة واي جنسية تمر في الطريق هي اكثر احتراماً من ابن البلد من صحفيين اجانب وسفراء وسياسيين وحتى الحقراء والاراذل والعملاء والجواسيس...فهم يملكون مساحة واسعة للتحرك والتعامل والاحترام من قبل هؤلاء القردة والخنازير ....

كعادته يميل الى الصمت عند الدخول الى السيطرات الامريكية الضخمة (هيسكو) ترابي يميناً وشمالاً – قف للتفتيش – امتثل لاوامر الأئتلاف وعمالقة الجنود الامريكان ينزلون الى الشارع كالحيتان المفترسة ويحيلون ابناء البلد صغاراً وكباراً شيوخاً وعجائزا الى صعاليك واقزام في موجة من الضحك ابتداءا من طريقة تفتيشهم بأدق تفاصيل الجسد – بل حتى عورة الجسد التي يأبى المسلم والعربي ان يهان بلمسها واستخدام الكلاب النجسة التي تشم تبحث عن المتفجرات في البشر والعجلات ... ونحن نطأطأ الرؤس بسكرة من الحزن لايشعر بها الا الحليم ...

كان المترجم في اغلب السيطرات يقدم ولاءا استثنائيا للامريكان فلربما يرق قلبه على ابن العراق لاكثر تصرفات الاحتلال الا انه جاء مأجورا وينتظر (١٠٠٠) دولار امريكي نهاية الشهر واذا ماخالف الاوامر فانه يحرم من المكارم والهبات التي اصبحت اغلى من صرخة شابة عراقية في السجون – واغلى من دم طفل سحقته سرف المدرعات ... بل اغلى ممن جاد بنفسه وماله ... والاشد مرارة اذا قلنا اغلى من العراق اجمع فكانت التفتيشات على هذه الشاكلة حتى وصل عند محطة بلد التي تعد هي المفترق من الشارع العام و(النفرات) الذين يتأفأفون من هذا الوجع ... سيطرة المفرق على طريق تكريت جهنمية من حيث الاجراءات كانت الهمر التي يعتلي منصتها العليا جندي امريكي ومجندة وينظر الى المارة مع بعض جنود عراقيين يراهنون على حفظ النظام ويتقمصون دور الامريكان من حيث الملبس والحركات وحمل السلاح فمد احدهم قبضة اليد صارخاً (stop) – السائق استجاب للامر وتوقف فاندفع ذلك الشاب الطويل القامة الذي لايرى منه سوى انفه المدور الطويل الاسمر قائلاً:

- هل انت اعمى لماذا لاتحترم السيطرة؟ وركل السيارة بقدمه نزّل ((الجام)) بكل هدوء رد السائق

- عمي صبرا علي

- انزل ... انزل وشهر السلاح بوجهه المسكين الذي تغير لونه

- انت ابن خالتي خيرية على مهلك

- اسكت NO – NO – NO

واراد بهذا الاسلوب ان يموه على الجميع معرفة امه الفقيرة في المنطقة وكرر عليه – انا اخوك لخاطر خالتي خيرية ...

- انا لااعرفك ولا اعرف خيرية

- صفق السائق يده قائلاً : سبحان الله ينكر امه وينكرني ...

واندفع جنديا اخر اليه ياأحمد هذه اساليب خطأ هؤلاء ابناء منطقتنا فرد عليه – انت غبي حقاً هو يقول ابن خيرية والامريكي واقف واحتدم الموقف بينهما حتى كاد ان يتضاربا بالايدي ...

ولكن المصاب الاكبر ان الجندي الامريكي لم يأبه لذلك وراح يكشف عورته ويبول من اعلى الهمر الى الشارع ... يالها من همجية ... فأشار لهم السائق : ياأخوتي كفى ماتفعلون الا يكفيكم رشقات البول النازلة امامنا وهل هناك اكبر من هذه المهانة واكبر من هذا العار الذي ينال منا ...

المترجم في السيطرة يصر على اصطفاف السيارة جانبا الى وقت اخر فأضطر ابراهيم الى النزول قائلاً :

- ما ذنبنا بهذا التأخير ؟

- رمقه بوجه وعين حاقدة وحقيرة ذنبكم انكم عراقيون اما واجهتكم عند تل العاني عجلات امريكية محروقة وخرجتم عن الشارع الى سكة القطار

- نعم ولكن ماذنبنا بهذا كله ؟

- يضع يده على صدره وبشدة اقطع كلامك – كلكم ارهابيون ينزل الجندي الامريكي يتأبط سلاحه اليهم سائلاً المترجم ماهذا الرجل وماذا يعمل – وقبل ان يجيب المترجم يخرج هويته من مؤسسة حقوق الانسان ويضعها امام الجندي – فيبتسم الجندي حال قرأها قائلاً (very good please)

لقد اهتم بالامر وسهل مهمته من الخروج من السيطرة مع الاعتذار الا ان المترجم ظلت اسنانه تصتك غضباً ولكن ماسبب ذلك؟

- ان السبب مجهول ...

خرجت السيارة وهو يشعر الى حد ما بعدم الارتياح لان الجندي الامريكي قد صافحه وهو مازال للتو يمسك ويتبول

مضت اربع ساعات ونصف رحلة طريق بغداد وحتى وصل الى بيته ... كم كان ينتابهم فرح غامر ولكن الصور السيئة التي ملأت رأسه قد حالت دون ان ينشر بهجته او بالاصل هو لايحمل ذلك لانه بات فارغا من كل ذلك ...

العائلة تعرض له اهم الاحداث السيئة طبعا في غيابه ... استشهاد خمسة بقصف جوي امريكي ، انفجار عبوة وقطع ساق الحاجة ام احمد اعتقال (٣٥) شاباً بتهمة الارهاب ... استشهاد احد ابناء العمومة برشقات امريكية في السيطرة ... عقد صلح امريكي مع العشائر سمي بمؤتمر الخيمة قطع عدد من الطرق ... اعتقال عدد من شيوخ العشائر – حصار على الناحية وسكانها لمدة يومين ومنع الدخول والخروج ... ارجوكم انا في مرارة كبيرة فاريد ان ارتاح ... واحببت ان اسمع ان احدا تزوج – فقاطعه اخاه الاصغر بأبتسامة ... نعم خالد السعيد تزوج الخميس وقد قطعت الطريق الترابي دورية امريكية وانزله من سيارة عرسه وضربه الضابط الامريكي برتبة مقدم بأخمس مسدسه الشخصي حتى ادماه امام زوجته واسقطه على الارض والعروسة واهلها يبكون وهو يضحك مع جنوده ...

اضطر ابراهيم ان يبتسم قائلاً والله تجبروني على الضحك وان شر البلية مايضحك ... الى هنا قطع الحديث حول الاحداث الجارية وراح يتفقد امورهم ،عوائلهم ودراستهم واحوالهم المعاشية ...

وقبل المغادرة الى النوم يسمع صوت في مكبرات لصوت عال ينادي من الشارع العام يبدأ حظر التجوال الساعة الحادية عشر مساءا وينتهي السابعة صباحاً ومن يخرج يتعرض الى المسائلة ...

ولكن ياترى ماالحل لمن يصاب بالمرض المفاجيء ... الله خير حافظا ... الكهرباء مطفأة ... الفانوس الخافت يركن في اقصى الزاوية الجنوبية تحتاش حوله بعض اسراب البق بحثاً عن الدفء ... وان كان الجو في وقتها ليس ببارد ولاحار ...

الليلة هادئة لم يصل احد الى القرية ولكن صوت المدرعات وتزمير الشرطة لم ينقطع طيلة الليلة ... الصباح شق حجابه والطيور بدأت نهارها ، وهناك شعور بالامان يريحه على الرغم من ان ابناءه الصغار يخافون تلك النيران التي ترمى من شفاه البنادق التي لم يرها احد قيد حياته ...

قرر ان يقوم بجولة تفقدية في المنطقة لبعض الاقرباء – عمات وخالات واعمام واخوال ... فانطلق اولاً الى مركز الناحية وبعد ان قضى مشوراه عاد ليجد الطريق مزدحماً بانواع الاليات والطيران ينفث زفرته على قرب من الارض وكعادة العراقيين هم دائما يبحثون عن الحلول البديلة فقد تسلل طريقا ترابياً وعند وصوله في الجهة المقابلة للحادث الذي لايعلم عنه واذا بالجندي الامريكي يركض مع عشرة جنود اخرين وهو يحمل جسداً خاو مضرج بالدماء بعد ان استله من سيارته نوع تيوتا بيكب ١٩٨٠ وصعد به الى الطائرة ... ياللكارثة... انه رجل عجوز سبعيني جاءت به المنية امامهم فاطلقوا الرصاص اليه وسقطت في ظهره واردته صريعاً ... كان قد اصفر لونه وهو يرتدي دشداشته البيضاء التي اصبحت كفناً اخيراً ...

عاد ابراهيم محبطاً مما رأى بأم عينه واجتمع الناس وتصاعد التراجم والاراء والصخب والضجيج بشان الجريمة ولانها متكررة باتت تاخذ منحىً عاديا اذ تنتهي حالة الفوران بعد سويعات قلائل من الحادث ، وعقب مراجعة قاعدة البكر الجوية تبين ان العجوز قد فارق الحياة وتسليم جثته المثقبة مع كلمة (sory-sory)... خلف عائلة عساك لاترى نواحها ، زوجة اعياها البكاء – وبنت خدشت وجهها بانهر من دم وابناء ثكلتهم الايام ولم تتوقف العجلة بل تعرض ذويه الى الاعتقال والضياع لأشهر طويلة ...

اتصالات مختلفة تنقل ساحة الاحداث الدامية وتنقل عبر الفضاء بالافلام والصور باختصارالوضع يزداد سوءا... قرار خطير يتبادر الى عقله لم يصرح به لاحد "مردفا كفى كذباً ونفاقاً وزوراً كل مانعيشه لعبة واسطوانة مفرغة – نقتل ونذبح باسم الديمقراطية ماعدت احتمل ماعدت احتمل ...

ويضع رأسه بين قبضتي يديه ((لاحول ولاقوة الا بالله)) وبين تلك الافكار والهوس والظنون ينتابه شعور بالفجيعة الحقيقية وبشكل خاص حين اكتشف ان هناك كذبة كبيرة وقناع يزين واجهات حياتنا وفي النهاية بلا معنى ...

حداد سعد يدخل على :ابراهيم السلام عليكم

– وعليك السلام

– مابك ياصديقي ؟

– الشرور كلها معي ...

– أهدأ ... أهدأ ... مالموضوع ...؟

– الا ترى مايحدث كل يوم ...

– انت تعرفني وانا صاحبك ايام الدراسة حتى اخذتك العسكرية مني وعدت الي بعد الاحتلال وكان لنا مواقف مشرفة لايمكن الكلام عنها وجل ماعرفته عنك انك تحب العراق من الشمال الى الجنوب ولاترضى ان يمس عراقي واحد ولو بوردة النرجس كما تقول ..

- مازلت ياحداد ...

- اذن تعود معي وسترتاح

- انا لم اتركك ابدا وانا معك

- لا ان المؤسسة وطبيعة عملها قد فازت بك ..واخذتك مني

- انا سأعود نادماً ياصديقي وضحكا سوية بمجاملات مصطنعة

- انا احتاجك يوما واحدا او يومان من كل اسبوع

تم الاتفاق بالعمل سوية ولكن لاأحد يعرف ذلك كان سراً عن الجميع ... ودخل في مخاطرات كبرى ولكن كان يبحث عن راحة الضمير ...

رئيس المؤسسة يرسل اتصالاً مستعجلاً الى ابراهيم بالحضور يوم غد ... ولانه كان ملتزماً فقد ذهب الى هناك وعقد اجتماعاً موسعاً حول الدورة في عمان واهم سلبياتها وايجابياتها كان ابراهيم كتوماً الى حد كبير فعلى الرغم من عدم قناعته بالكثير الا انه كان يظهر عكس ذلك ...

انها اللافتة التي يجب ان يتحرك دونها ... وقد تم تكليفه بعدد من المهام ورش عمل – محاضرات – ندوات – لقاءات – وقد كان موفقاً في مساعيه حصل من خلال ذلك على مكافآت مالية مرضية ...يعود الى بيته ويتعرض الى عتاب قوي من العائلة لتفرغه الى همومه فحال عودته استلقى على ظهره وكتب شيئاً مستذكرا صديقه ملازم اول محمد قائلا :

– ترى اين انت ياصديقي ، وهل سيجعل الله لنا وقتاً للقاء لربما تنقضي ايامنا بلا لقاء ... بلا وعود قادمة بلا ضحك بلا سمر لا نحمل الاهذه الدموع التي تشح يوما بعد اخر ...اذ ليس هناك ادنى بصيص امل يعيد ولو جزءا من الحياة تشعرنا بالامن والاستقرار...

(١٦)

مرمى الاحتلال يحصد خمسة شهداء وستة جرحى بمذبحة حقيقية تليق بالمشروع الامريكي الجديد

لم يعد الامر يحتمل ثمة قرارات جديدة يفكر ان يسلكها اكثر من الانطواء وعدم الايضاح او الحديث بأي امر جديد ولأي شخص كان سوى حداد سعد الذي كان غاية في الثقة والحذر والتأني في اتخاذ اي قرارات تجاه الاوضاع التي تحيط بالعمل الجديد....

الشركة كما يسمونها بها ثلاث موظفين فقط (ابراهيم – حداد – وشخص ثالث لم ير شكله منذ بدأ تشكيل العمل) التي لايوجد لها مكان محدد او وقت دوام معين وعملهم يكون بالاتصال وتبادل الاعمال السرية لتنفيذ المهام وغالبا ماتكون المداولة حين يغطش الليل ظلمته في الحقول والبساتين.... ولايعرفون مدى اهمية عملهم الا حين تحوم الغربان بكثافة وتخرج الاليات باحاطة تلك الحقول واجراء عمليات تفتيش مكثفة

لقد كانت اعمالهم بعيدة عن اعين الناس وبعيدة عن الاضرار بهم او بمصالحهم ولكنهم مؤمنون ان التضحية تحتاج الى رجال اشداء قادرين على تحمل المسؤولية الجسيمة كردة فعل للعذابات اليومية التي تقع على كاهل اهلهم من تعسف وحرمان وفي احدى الصباحات لعيد الاضحى المبارك يخرج ابراهيم بعد الصلاة يتنفس الدخان والبارود الذي يحتضن القرية وجوم وحياة مضطربة يشوبها التصحر والجفاف...السماء كان يكممها الغيم الاسود والشمس تلثمها السحب والارض قد ارسلت الغيث طيلة ساعات الليل ... البرودة تصارع الجلود والناس تاوي الى مواقد النار ....

هدير مدافع (٥-١٠) قذائف تشق ابط السماء وتنزل في القرية الخوف يجتاح النفوس من المفاجآت والاطفال يلوذون الى الجدران بالصراخ تاركين الاستبشار بالعيدية المرتقبة ((يافتاح – يارزاق ياكريم))

الكارثة قريبة بلا شك عويل يغرق الفضاء -يا الهي ماذا حدث –انه صوت صراخ نساء واطفال ورجال تفتك بالفضاء ..هرع الناس باتجاه الحادث ركب ابراهيم سيارته وتوجه لكشف اسرار المفاجأة فقد تبين ان بيتا قد هدت اركانه بالقذائف الامريكية جراء الرد على قنابر هاون سقطت على القاعدة الامريكية كما يدّعون...اذن ماعلاقة هذه الدار بالموضوع ....ياللكارثة وكما اعتاد الاباء والامهات ان يجمعوا عوائلهم كل صباح عيد فقد فعلت اجتمع افراد هذه العائلة الفقيرة ... فجاءت القنابر الثقيلة داخلة من الباب الخارجي لتلقي السلام وتهدي عيدها الدامي بأداة فريدة من نوعها بحصيلة خمسة شهداء وستة جرحى معاقون...وجدران محطمة واواني مثقبة كانت مذبحة حقيقية دماء وعظام بل واعضاء بشرية متناثرة ... فما اصعب ذلك الموقف وهم يموتون فوق اواني الطعام التي اعدتها الام المسكينة صباحا لاطفالها والتي ماتت بينهم حتى ان " مخها" قد القي على الطاولة المجاورة لها وطفلتها بعمر سنة واحدة قد نزفت الدماء من انفها وكفها الغض قد قطع وبقي مرميا فوق سلم الصعود... وكما اشارت جدتهم الى ان الجندي الامريكي قد حمله بيده وراح يبكي ويبكي ..

– كان الغبار قد انتشربكثافة فوق الدار وهرعت الناس راكضة لانقاذ الموقف والطائرات تحلق في السماء ولكن دون جدوى قد تحطمت اوضاع العائلة التي كانت من الاساس تعاني اوضاعا مادية صعبة ....

القائد الامريكي ((ساسمن)) عمد الى اجراءات واصلاحات للموقف بعد تلك الجريمة البشعة ... فقد تم اعتقال رب العائلة وكل من حضر معه الى القاعدة الامريكية في بلد ... كان الموقف صعب للغاية فقد كان والدهم فقير ماديا دماء تغطي يديه وجسده ونحيب يفتت الحجر الا انه تعرض الى وحشية كبيرة ضرب واهانة...

مازال الناس تنقذ الشهداء والجرحى وسط تلك المنطقة الطينية الموحلة التي لايمكن لاحد ان يدخل الا بشق الانفس... ولكن قرارات ((ساسمن))اخذت الجميع من قاعدة بلد وسجنهم طيلة ليلة كاملة في العراء محاطون بسياج (BRC) كالاغنام والسماء تقطر امطارها مع برد شديد ... وبدل ان يسالوا عن مصاب هذا الشخص الذي فقد ابناءه وبناته وزوجته والجرحى بين الحياة والموت ودمار داره هم يسألوه

- هل تعرف الذي اطلق القنابر على القاعدة من منطقة تبعد (٣-٤) كم عن مكان سكنه وهل له علاقة بهم وهو في عمر(٥٥)عاما كان قد غطى الشيب راسه وخارت قواه ...

في اليوم الثاني اطلق سراحه مع جمع غفير من كبار السن والاطفال ولكن الكارثة كبيرة بعد ان وجد العائلة قد اصبحت قبورا فوق الارض راح يبكي ويبكي ... ولكن عليه ان يذعن للديمقراطية كما يريد الغرب او كما تريد امريكا...

اجرى المستشفى الامريكي عمليات جراحية للجرحى ولكن لم يوفقوا في ذلك وقد ارسل الامريكان واحدة من البنات المعاقات وبعمر (١٤) سنة الى واشنطن التي شلت اقدامها وايديها وكانت النتيجة فاشلة وقد اهدوا لهذه

الطفلة قرصا مدمجا موجعا للغاية فيه عملية الرد الامريكي (الجنود الامريكان وهم يرمون الحمم فوق الدار ..) مع تصوير الدار ساعة الحادث .... وكيف تحول الى جحيم وتراب ... انها ادانة وتذكير اصحاب الدار اننا فعلنا بكم هكذا.... كم هي بشاعة هذا الموقف ...عاد الى نفسه ابراهيم مؤنبا –واي حقوق انسان تلك التي تدعيها ايها المجنون ايها الخرف ايها الارعن ايها البائس.....!

مع كل ذلك سطّر ذلك وكتبه للعالم عبرالصحف المحلية والانترنت ولكن لمن الكلام ولمن الاوجاع ومن يحل هذه العقدة او من يسال عنها فدع النزيف يجري ودع الارواح تحصد ودع الشياطين يحققون مآربهم بالطريقة التي يرونها اصلح لضمان بقائهم واستمرار هيمنتهم وجنسهم البشري ... كما قدم ذلك مع عدم قناعته الى مؤسسة حقوق الانسان لتنظر حجم الانتهاكات ...

وان حجم الكلمات وكثرتها لو اصبحت كتبا ومجلدات لن تصف فداحة هذه الجريمة ... وفي النهاية يقول المقدم الامريكي ((I m sorry) فما اسهل الموقف لدى هؤلاء فقد كنا نسمع ان الحيوانات في امريكا وغيرها لها حقوق ويحاسب من يقصر في خدمتها وان الانسان قيمة عليا .. ويجزم ابراهيم بمذكراته ويومياته ان تلك سطور سوداء على ورق ابيض فقد يصدقون في ذلك ولكن الدم العراقي مباع ومباح... مباح لكثرة ماتكررت ((IM SORRY)) على لسان القائد القذر نفسه سالف الذكر الذي مسخ الارض عذابات ...وكثيرا ماتعرض الى هجومات مسلحة لقتله ولكن ينجو باعجوبة كبيرة...

ظلت هذه الحادثة تحتل مكانا والماً في قلوب الجميع... فكلما جاءت الذكرى تصور الناس الضحايا في صباحية العيد فبدل ان ينحر الناس ذبائحهم... فقد نحر الامريكان بني البشر بطريقة بشعة...

احتفظ بتلك الصور والمواقف مدى التاريخ معاهدا على ان لا ينساها مادام حياً...

اغلقت الصفحة وعاد الناس بشكل طبيعي وانين الجراح دائم دائم...

موقف اخر يسجله اذ لم ينس ذلك المشهد بتلك الصحراء التي هجّر فيها اهالي الفلوجة بمعركة الفلوجة الاولى ... ياله من موقف اخر توقف عنده عشرات العوائل تسكن الصحراء...رجال – عجائز – اطفال نساء ... فقد عمل مع منظمات اخرى بايصال المؤنة والاغطية والملابس بعمل متواصل وقد وجد طفلا بعمر سنتين يجلس خاويا وسأله مااسمك

- اجابت امه مصطفى

- ماذا يحتاج مصطفى

- يا اخي الحليب- الحليب

- ابتسم والحليب في السيارة الثانية لقد بكت امه وهو يرفع يديه حين رأى علبة النيدو...المفاجأة بعد خمسة ايام مصطفى يتوفى لتفيض هالة روحه الطاهرة الى سماويات الخلود ولترتع في نعيم لايعلمه الا الله فكان الدمع اولى لاحول ولا قوة الا بالله "...

اسئلة كثيرة عن النهاية ،المصير الذي ينتظر الجميع في صراع الكون الهائج كالبركان ... الطرقات وعرة والمطبات تستحدث والجيش بكل صنوفه يزداد حجماً وجهلا فلا يكاد يخلو طريق من سيطرة شرطة او حرس وطني او شرطة اتحادية او امريكان او الى غير ذلك من او المسميات ولكن السؤال المهم هل احكموا السيطرة على الخراب والارهاب والجواب دون ادنى شك لا ... والف لا...وفي ذاكرة المكان نفسه كان شرطيا واحدا اسمه المفوض ابو فلاح قبل عشرين عاما ضعيف البنية كث الشارب حليق اللحية على الدوام يحكم الناحية باسم القانون وتعداد يزيد على (٢٠)الف نسمة والجميع يحترمه ويخشى تباليغه وسجنه وغلظته اذا غضب واليوم اجتمعت امة بالالاف من المتطوعين ولكنهم بلا قضية يدافعون عنها سوى المال الذي يقبضونه نهاية الشهر اي تسقيط ايام لبلوغ يوم السادس والعشرون فهل للعم ابي فلاح من عودة لنغفوا بامان على صوت سيارته الوحيدة في مركز الشرطة انها مجرد امنيات لن تتحقق...

الذعر يدب الاقضية والنواحي والخوف يتسلل الى النفوس لا سيما ان القادم مجهول ، والاقدار تنزل بين الحين والاخر ....ناحية يثرب تلك القرية التي تضم قرابة سبعة عشائر مترابطة فيما بينها بأخوّة وصلات رحم ومحبة وتبادل منفعة وشعور بالمسؤولية غافية بمتنها على صفاء ماء نهر دجلة مكانها ساحر وأخّاذ بجمال الطبيعة والخير العميم لكنها انتقلت الى وضع آخر ومرحلة جديدة لم تشهدها في السابق فقد اصبحت المواجهات العنيفة تنذر بالخطر المحدق وتصاعد الشحناء والبغضاء وتزهق الارواح الكثيرة من جراء خطر الاحتلال وانهيار البيوت العمرة وحرق المزارع الخضراء وتجريفها مع شحّة المياه حتى لتنظر الكآبة في كل وجهة ، ومع هذا فاهلها يكابرون...

التأريخ يعيد نفسه ذلك ماقاله الكثير حين بدأت القوات الامريكية تستقطب ضعاف النفوس وكلاء – عملاء- مخبر سري للمعلومات الاستخبارية بمسميات كثر ديمقراطية – حرية – الامن – الوطنية – حياة افضل ومن الاشخاص نساء ورجال واطفال في سن المراهقة فما اكثر الناس الذين ظلموا بهذه الطريقة مقابل حفنة دولارات تدفع من جسم الوطن ولرخص البعض وتكالب الجهال والخونة باعداد كثيرة كما يقولون باتوا يدفعون لهم بضع دراهم معدودة مع عبارات الذل والتحقير... ناسين او متناسين ان الاحداث تمر ولا يبقى بالصفحات البيضاء الا من كتب بدم شريانه صدق الانتماء والوطنية او على اقل تقدير صمت جانبا وحفظ اسرار اهله وبلاده انها مرحلة من النفاق المبرر والتستر تحت زاوية الخيانة اللامشروعة...

الامريكان يتجهون الى المجالس البلدية وتحديداً شيوخ العشائر ، يظنون ان شيخ العشيرة هو صاحب السطوة على ابناء عشيرته من الشباب بشكل خاص ونظراً للمعرفة المتواضعة لبعضهم قد انساقوا الى مشاكل كثيرة مع الفصائل المسلحة التي دخلت مرجل المقاومة المشروعة باعنف معارك تاريخية

شكلت المجالس البلدية من قبل الاحتلال وهو موضوع جديد بمسؤوليات جديدة تفوق امكانيتهم فالبعض جاء ظانا أنه سيقوم لخدمة الناس ويحميهم من همجية الاحتلال والاحتلال ارادوهم اداة لدرء المخاطر التي تنزل بهم من جراء المقاومة ونقصد المقاومة المشروعة لا المقاومة التي جاءت باهداف اخرى سياسية ، دينية مأجورة من الخارج...

جلس ابراهيم امام باب داره على كرسيه الوحيد واضعا يده على وجهه يقلب في صفحات كثيرة كتبها من سويداء القلب ماساة دهر لبشر قد هوى في احضان الامريكان بحثا عن المقاولات والمصالح الخاصة والبعض يتحرى ذلك ولم يوفق واخرون وقفوا بشدة ولم ينصرف نظرهم عن حجم الدمار الذي حل بهم وقدموا اغلى مايملكون...شزر السماء بنظرة ساخطة فهي صافية هذا اليوم ، الهدوء يعم ارجاء المنطقة ، لم يسمع باحداث جديدة سوى مايجري مهاترات الحكومة والدستور والانتخابات والتراشق الاعلامي .... استل القلم وراح يكتب في سجل مذكراته مستذكرا ماجدة ، واحمد ، وسماح وملازم محمد ... بعد قطيعة ولا اخبار تصل بهم ... ماجدة نعم ماجدة..التي احبها واخاف البوح حتى لنفسه وظل جزءا من قلبه يلاحق رماد الذكريات السابح في الهواء تنقل به الريح الى مدن بعيدة لاتحدها حدود اين اصبحت تلك المرأة العصامية تلك الشابة الجميلة ومسد ذاكرته بوشاح همه المعتاد آه ...آه ...مااصعب الحب ان تعصره النار والحديد وتخنقه المسافات؟؟حب عيب عليك اي حب ايها الخرف ...لا حب ..نعم ...ماجدة..ماجدة ..م م م م مأأجمل هذا الحرف بين الحروف الابجدية ؟؟

ام العيال تنادي (ابراهيم)) لم ترد عليّ ... يفز من فوره لا شيء انا اكتب

- تكتب ام هناك موضوع يشغلك...

- لا شيء لايوجد اي موضوع عزيزتي

تتقدم اليه وتسلمه قطعة حلوى قائلة ((الا يكفي كم انت مهموم نحن بحاجتك وكيف سنعيش بدونك انا خائفة عليك كثيراً فالامريكان يبحثون عن الضباط))

- انا موجود ومتى ارادوا ساذهب بحرب باردة

- وانا والاطفال

- الله يرعاكم ثم ضحك(ان شاء الله لايوجد شيء اطمأني)

- حداد هذا اليوم جاء يسأل عنك وترك لك حقيبة سوداء واخبر بعدم فتحها

- اين هي...

- تحت شجرة الزيتون اخفيتها

نهض بكل هدوء طالبا ان لا تلحقه وصل وحملها جانبا خلف شجرة الزيتون وفتحها ثم غلقها بسرعة وخرج بها الى الحقل المجاور وبعد نصف ساعة عاد ولم يحمل بيده شيء واستقبلته زوجته

- ها ماذا ارسل لنا صديقك

- لاشيء انها حاسبة لاب توب...اصرت كثيرا على فهم ذلك ولكنه ابى ان يتفوه بالحقيقة...ظهر عليه بعض الارتباك لانه لايريد ان يعطي ولو معلومة واحدة عن عمله أتصل ابراهيم بزميله واتفقا اللقاء مساءاً... حمل ملابسه الرياضية وخرج بعد الغياب وسالته الزوجه الى اين..

- ابتسامة انا ذاهب الى الشركة.... ولكنها لم تنبس بكلمة واحدة خاضعة لهذا القدر... الزوجة لم تنم تلك الليلة لانه لم يعد حتى فلق الصباح

وتنهض تفتش في بعض ذكرياتها الجميلة صور ورسائل غرام قبل الزواج فمرة تصمت ومرة تبكي...

الشمس اشرقت ولكنه لم يعد والطائرات الامريكية تجوب المنطقة عقب مجموعة تفجيرات .... ولكن الزوجة صابرة على مضض عل الله يفتح...

الساعة التاسعة صباحا يتصل

- حبيبتي كيف الحال

- اهلا وسهلا اين انت بصوت عال

- انا مسافر خارج المنطقة وسآتي بعد يومين

- الله اكبر ساموت من فعلك هذا وعقبت ذلك بشهقة بكاء وظلت المسكينه بين الاطفال وضجيجهم الذي لا ينتهي وخدمتهم وخوفهم من المنطقة لا سيما انهم نازحون اليها ....

ابراهيم يتعرض بتلك الليلة لجرح بليغ في يده يضطره الهرب مع حداد في جنح الظلام من سخط النيران التي سقطت بكثافة كبيرة بل والعبور في زورق عبر نهر دجلة الى الضفة الثانية وسط اوجاع وآلام ، اذ تم ضماده بقطعة قماش كان يحملها حداد معه للطوارئ ، وفي الضفة الثانية وبين اشجار الغرب والصفصاف والقصب والبردي اختفوا وقتا طويلا لحين وصول احد اصدقاء حداد الذي حمله الى دار مضمد طبي قام له ببعض الاسعافات الاولية ثم اجراء عملية من قبل طبيب لم ينوه عن هويته في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل لتبدأ عمليات حصار مشتركة يضطرهم

للهرب الى منطقة اخرى مشيا على الاقدام وسط احراش وبنايات متروكة واعشاب واشجار يابسه وسط نيران امريكي مكثف ونجا سالما ...

استقر في بيوت احد الاصدقاء في منطقة نائية واضطر ان يبقى غائبا عن المنطقة اياما طويلة ولم يتمكن من دخولها طيلة مدة اصابته حتى قارب الشفاء وعند السؤال عنه فان الجواب؟ هو يعمل في المؤسسة وحين تماثل للشفاء تماما عاد الى اهله ولكنه كان يخشى من ان يصل به خبرا حتى لاقرب الاصدقاء .... ولكن حداد كان حذرا وشجاعا وقليل الكلام ولديه حسا امنيا مع صديقه الثالث الذي لا يعرف ابراهيم لا اسمه ولا شكله؟؟...

بعد يومين عاد حداد وتسامرا وهم يرتشفا الشاي وهو يقول: الحقيبة السوداء ذات فاعلية كبيرة في ادارة الشركة وابراهيم يضحك فاحتضنه وقبله كم انت غيور يا صديقي انك رجل شجاع اسأل الله ان يبارك لك...

– الغرباء الذين لا مثيل لهم حتى في بيوتهم ...ولاننا غرباء فانا وانت مصير واحد ولن نفترق حتى يحكم الله امرا كان مفعولاً.

(١٧)

تجريف الحقول الزراعية والمداهمات العشوائيه مع اشجار الزينة من اولويات حفظ الامن ...

بعد الاصابة قرر ان يعود الى سامراء ، وبدأ القيل والقال وتأليف الروايات وبناء الاحتمالات والتحليلات وتلك طباع القرية لانهم لم يعد يملكون عملا وخاصة العجائز منهم وبعض كبار السن ، بل والشكوك ولكن على الرغم من كل مايحدث كان طبيعيا ولم يبدو عليه ادنى تغيير في السلوك والتعامل فهو يشارك الجميع في الافراح والاتراح ولدى الجميع طبيعة عمله في مؤسسة لحقوق الانسان....اليوم الثالث كان قراره العودة الى بيته ولكن وصله تبليغ في الحضور في مركز الشرطة بشأن بعض الاجراءات الامنية فانطلق دون تردد ودونما يخبر اي شخص بهذا الأمر ...

الساعة التاسعة صباحا مثل امام ضابط المركز في اطراف سامراء ويحمل بيده ورقة التبليغ وقد استقبله واحترمه بشكل كبير واخبره بان لديه بعض الاستفسارات حول طبيعة عمله وعلاقاته فاجاب :

– في البدء اسمح لي هل هناك معلومات سرية او استخبارية دعتكم لحضوري وإلا لماذا ابراهيم دون غيره ؟

– هذا عملنا وخاص بنا حصرا ولا يستدعى شخص من فراغ

– اذن انت تعرفني جيدا العبد الفقير ابراهيم سعدون / بكلوريوس علم اجتماع واعمل في مؤسسة لحقوق الانسان وهذه هويتي ،اخذ الهوية وحدق

بها : اذن أتاكد من وجود هذه المؤسسة وباشر الاتصال فجاءه الجواب: نعم وهو احد اعضائها البارزين

– اذن ماسر نقل بيتك الى مكان اخر

– العراق ملك العراقيين ولدينا ارض تعود لنا تم استغلالها من قبلي وبموافقة والدي وانا مازلت على تواصل مع اهلي واحبتي في المنطقة ...

– وهل تم اعتقالك سابقا ؟

– سبحان من لم يعتقل وانت كنت معي في احد الاعتقالات العشوائية ..

– الضابط يضحك ، اذن لابد من الاحتفاظ بك ليومين

– وماسر ذلك الاحتفاظ؟

– ستعرف كل شيء لاحقا

وعلى هذا كان يريد ان يعرف السبب فجاء الجواب .

– ان هناك اقراص CD و DVD لفصائل مسلحة قد القيت في مناطق مختلفة بالمحافظة

– وماعلاقتي بالموضوع ...؟

– تنتهي الموقوفية وتخرج ولاتسأل

بعد يومين اطلق سراحه اذ لادليل في الموضوع وهو لا يعرف عن ذلك الموضوع شيئا ...

خرج من السجن الذي اعده له المخبر السري واخذ عائلته ناكصا الى بيته ، يبدو ان الارض جميعها اصبحت عيون تعمل لصالح الامن ولصالح الامريكان فهو مطارد في كل مكان ثمة شعور في صدره انه ربما يعتقل ويشبع أسا كبيرا فضلاًعن كل هذا ...

زاره حداد ضاحكا : الحمد لله على السلامه ياصديقي انت اينما تذهب يبحثوا عنك فكن صبوراً على الاهوال جلدا...

ونظر الى حداد قائلا : ياحبيبي لقد حل صديقك من هذا النفق المظلم ومن هذه الدواهي ، اني اشعر بالنقص واشعر بالهزيمة فانقذني ، انقذني رجاءا

هيا نخرج نمشي في الحقول والبساتين ونغور بعيدا عن الضجيج مسك في يده اليمنى وراحت خطاهم تجر خطوطها ببطء واعادا حياتهما منذ الطفولة فكانت فصول ملونة ولكن الوجع والحرب والحرمان والدمار هو أغلبها ..وجلسا تحت ظل شجره وقص له مادعاه الى الذهاب يوم المداهمة والهروب في هذه البساتين ...

وكيف كان متوجسا وخائفا من الموت دون ان يدفع عدوه ثمنا قبل ان تغادر روحه هذا الجسد الهزيل ...

اتفقا على بعض الاعمال المشتركة في الشركة وافترقا كل الى داره ...

قرارات اخرى فكر بها واقرها بمفرده ابراهيم باجراء جولة تفقدية في الناحية اذ سمع بان القائد الامريكي المدعى ((ساسمن)) قد فتك بشكل مريب في حياه الناس وحين شعر انه غير قادر على السيطرة على مرجل المواجهة

فقد قرر تقطيع المناطق بغلق طرق التواصل وانعكس من هذا كله بفرض حظر التجوال الدائم على منطقة (الزور) والتي تضم آلاف من البشر وسيطرة للدخول والخروج وصرف باجات لتقييد حركة الرجال صادره من الوحدة العسكرية فالرجال يدخلون في الساعة السادسة عصرا ويخرجون الساعة السادسة صباحا ولايجوز لاحد الدخول او الخروج خارج هذا التوقيت مع ابراز الهوية في الحالين ولايمكن للضيف القادم من بعيد المبيت فقد يتعرض الى للاعتقال او الموت كما لايمكن نقل المرضى الا عقب شبكة من الاتصالات وتدخل الشرطة والحرس الوطني وان هذه المنطقة الضخمة قد لفت بسياج من الاسلاك الشائكة المنفاخية والسيطرات باشراف الامريكان واصبحت الفرصة سانحة لاجراء المداهمات واعتقال عشرات من الشباب مما اضطر الكثير الى مغادرة المنطقه ودخول مواجهات شديدة راح ضحيتها العشرات منهم اذا لم نقل المئات ، ولا ننسى ان ذلك يتم بعشرات المسرفات والهامرات والطائرات المقاتله وقد اعدم عدد من الرجال بل وقصف البيوت الامنة ...

وثق ابراهيم ذلك عبر مؤسسته وعبر منظمات حقوق الانسان الاخرى ولم يفك الحصار هذا الا بعد حرب ضروس وجلسات وتدخل اطراف على مستوى الحكومة وشيوخ العشائر وبعض المثقفين وضباط الجيش والشرطة من ابناء المنطقة وعقب ذلك كله كانت الاوضاع سيئة المادية والمعنوية خاصة بعد عمليات التجريف للحقول الزراعية المحاذيه للطرقات بين النواحي والاقضية ، واهمال المتبقي منها من قبل اهلها ... ولعل ناحية يثرب والضلوعية والاسحاقي وسامراء وبيشكان والدجيل وابوغريب وتكريت والبيجي والشرقاط والبوعجيل وغيرها قد تعرضت لهذا العمل لتعكس واقع

القسوة والتعسف الكبير في التعامل اللا انساني واللا اخلاقي مستذكرا قرارات وشعارات الانسانية التي يطلقونها عبر قراطيسهم ...

لا حلول توجد بايدي الناس ازاء مايحدث فربما هناك شخص يتصل بالجوال والامريكان قد مروا من الطريق فسوف يتعرض الى الاعتقال والضرب والاهانة ولربما يذهب سنوات في الدهاليز المظلمة ... وعلى العجلة الاخيرة من الرتل الامريكي تجد لافتة بالخط الاحمر ابتعد (١٠٠) م القوة مخولة باطلاق النار .. ابراهيم كان ينظر لهذه العبارة ... ويبتسم ساخرا انها تشبه الى حد ما تلك اللافتة المكتوبة في مطار بيروت ((ابتسم انك في بيروت)) شتان بين الحالتين الموت والابتسامة نقيضان لايجتمعان مطلقا...

وتمضي ليلة يشوبها القلق كحال الليالي الماضية وهو يكتب باسهاب ويفكر ويتحرى ان تضع الحرب اوزارها ...ولكن لاسبيل " غدا اسوء من اليوم " الساعة الثانية بعد منتصف الليل يمر رتل لقوة امريكية على الشارع وتتعرضه مجموعة مسلحة بالاسلحة المتوسطة وفيما يصيبه الارتباك وينزل في الوادي المجاور دون امكانيه الرد الا بعد ... كانت اصوات اطلاقات B.K.C تملأ الفضاء ... كان ذلك مجاور احد مراكز الشرطة في الناحية ... كان افراد الشرطة على سطح المركز ينظرون باعجاب الى حامل السلاح الذي يبعد عنهم مسافة (٢٥٠) م ولايرون من العتمة الا وميض الاطلاقات وهو يقف على مرتفع بعد (١٠٠) م عن الدورية الامريكية ... بيد ان احد الضباط قد نزع رتبته العسكرية ورماها في الارض قائلا : عيب علينا نرتدي هذه الرتب وسط تلك الاهانات ماذا يفرق عنا هذا الرجل الذي يقف كأسد الغاب في الليل الاظلم ضد هؤلاء الذين نتخضع لهم كل صباح ... انه يستحق الحياة ويستحق المنازل العليا اللهم انصره ومن معه ...

اختفى هؤلاء الرجال وسط تلك الغابة الكثيفة وخرج الامريكان في حملة مداهمات على المناطق المجاورة .. ولكنهم لم يفلحوا بشيء حملوا جرحاهم وآلياتهم وتركوا المكان الذي اصبح شؤما يحفظون رؤوسهم به كلما مروا منه تحسبا من النار المفاجئة....

ان مرحلة المداهمات والتجريف للحقول والبساتين وحواف الطرقات وحتى اشجار الزينة في الممرات من اوليات العمل الامريكي الجديد ...

النخيل والبرتقال والزيتون في مقابر جماعية اشرف عليها القائد "ساسمن" بنفسه لتحقيق النصر الامريكي المرتقب

(١٨)

الهروب من المواجهة جزء من حل وقتي لدفع عجلة الحياة الى اجل قريب او بعيد ...وان المواجهة الفعلية هي التي تحكم حجم ونوع التاريخ الذي سيكتب ...

بات الشعور بالمسؤولية كبير ، وامكانية عزل النفس بعيدا عن الوضع الامني المتدهور شيء صعب للغاية لانك ان عزمت عدم الوصول اليه سيصل اليك وان كنت على سرير النوم ، قضى ابراهيم هذه الايام بين تعاسة ولحظات امل بين ضحك وبكاء ، بين سحب الماضي التي تغيث الارض ولهاً وبين مطر الغضب النازل وجحيم الموت الذي يصارعهم ... حتى ليشعر احيانا بالضيق حد الصمت والاحجام عن الكلام لان الكلام هو مجرد ثرثرة زائدة لاتجدي نفعاً ولاتغير وضعاً

الجميع يتحدث عن الاحتلال وتداعياته ، الجميع يظهر التذمر والشعور بالذل ، وفي وجه آخر هناك ايمان بهذا التغيير كما يسمونه ... فهناك فرق كبير بين من خسر افراد عائلته وبيته وتعرض للاعتقال المرير والنوم في العراء بلا ملابس لايام وبين من تنعم ببيوت فارهة وسيارات حديثة وحين يجرنا مالك الحديث تجده بالمقابل يتحدث عن الوطنية والامانة والدين وهو احد خدم الاحتلال...

صفحات نفاق تحطم الصخر ، ولحظات بؤس قاسية في تاريخ العراق ، وربما لا تجد اتعس من هذا في البلاد الاخرى ...

ابراهيم كان يضحك ساخرا عندما يسمع احد جنود الامريكان او ضباطه يتحدثون الى الفلاحين والموظفين والعمال عن الديمقراطية والحرية... اما ان يكونوا جمع همج ووحوش غاب ساقهم بوش للحرب واما انهم تصوروا ان امامهم حشد جثث ميته لا تقرأ ولا تكتب ... الديمقراطية من منظورهم توزيع اقلام رصاص وكراسات للاطفال او صرف ادوية للمستشفيات او محاضرات تثقيفية او اخذ معلومات استخبارية من السذج او زيارة المناطق واللقاء بشيوخها وعرض الهبات عليهم وتشكيل الصحوات ...او مشاركة الناحية والقائممقامية ببعض المناسبات او افتتاح مركز شرطة بغرفتين واستعلامات او بناء مضخة ماء شرب ناسين او يتغابون عن حجم الدمار في كل مفاصل الحياة الآمنة (الارواح التي سقطت بالالاف

- الارامل وصل تعدادها المليون- الايتام والتسول ومعدلات خط الفقر

- المؤسسات والمنشآت والوزارات التي دمرت بالكامل نتيجة فك السجون باسرها واستبداد المجرمين بل واستلام مناصب و مسؤوليات مهمة...

وقتل العوائل الامنه وهم نيام بل وحالات الاغتصاب من قبل قوات الاحتلال وقد جاء القانون (١١٧) لعام ٢٠٠٣ الذي يحميهم ولا يحق للقضاء العراقي محاكمة جنود الاحتلال وجميع الجرائم تغلق حسب هذا القرار الصادر عن قوات الائتلاف بامرة الحاكم العسكري ((بريمر)) بل هو (بول) لا غير ...نهض بموجة غضب عارمة راكضا الى خارج المكان يصيح الله اكبر – الله اكبر حتى ظن اخوته وعائلته انه قد جن...ثم يطلب ان يبقى بمفرده ويواصل ما اتعس حياتك يا ابراهيم لا معنى لها ان تضيع كما يضيع الماء في خروم الارض ... كل هذه الجرائم ويتحدث الامريكي عن

الحرية والديمقراطية ... حقا نحن اغبياء... بل نحن اغبياء لاننا سلمنا مفاتيح العراق بسوء اعمالنا انها ساعات تستهلك في ذاكرته ثم يعيدها لاكثر من مرة يضع يده فوق راسه يرفع عيونه للاعلى محدقا الى السماء خافضاً نظره الى الارض ، ماسداً لحيته ، ماسحاً عينيه ، يتثاءب ثم يعتدل واقفا ، يضجر ثم يمشي باتجاه الدار ثم ينظر في المرآة المنصوبة في الممر الخارجي ، متأملاً قسوة الحياة شكلها المزري الفاسد القاسي في تجاعيد وجهه ، ثم يمسك يده من الذراع التي تشوهت من الاطلاقات ولم يبح بها لاحد ... لكنه كان مصراً ان يواصل ولن يتوقف امام هذا الجور الفاضح لمعنى الرجولة والشهامة والمنتهك لاحوالهم دون مدافع ...

الساعة العاشرة صباحاً ، وهو بين دوامته ودائرته المفرغة من الحلول المليئة بالافكار التي تكاد تؤدي بحياته الى الجحيم ويضع يده فوق صدره في جهة اليسار قائلاً :

انبض ايها القلب كما شئت ، عش كما شئت فانك ميت فكن جلدا على الاهوال والمصائب فربما تفقد كل شيء بيتك ومالك ونفسك...!!!هو يشعر ان ظروفه تسير الى السوء ... فقرر ان يغادر المنطقة الى سامراء لزيارة بعض الاقارب وتفقد احوالهم واعادة ترتيب بيتهم هناك والاستراحة يوم او يومان ثم العودة ...

نادى زوجته والاطفال يصطنع ابتسامته هيا للذهاب الى اهلنا... راح الاطفال يرقصون كالبلابل على غصن شجرة التوت ... الا ان زوجته كانت منطوية وغير مرتاحة ولم يسرها الموضوع كثيرا فسألها : مالي اراكي حزينة؟

- ابراهيم لا ارغب ان تتحول من وجع الى وجع اكبر

– اننا بحاجة الى الاسترخاء والراحة اذ يقولون ان المنطقة هناك باتت اقل سخونة من الاحداث في يثرب والضلوعية والاسحاقي وبيشكان وغيرها...

– اذن نذهب غدا وليس اليوم ولو انا غير مطمئنة ابدا وقد وافق على ان تكون الرحلة في اليوم التالي ، واتصل بحداد واخبره بالامر ...

انقضى اليوم لدى ابراهيم في هواجس الاوضاع السالفة ولم يتمكن ان يعمل اي شيء سوى التفكير بهذا المصير ...

الساعة الواحدة صوت المدرعات وهصيص الحصى تحت مسرفاتها يخترق الطرقات والمزارع والابواب وعلى مقربة من داره ، نداء من الباب الخارجي وطرق مخيف وزوجته تصرخ ... ابراهيم ، ابراهيم .. ، ابراهيم ينهض واقفاً على قدمه وركض الى الباب واذا بأخيه ... ابراهيم غادر البيت صوت المدرعات بات قريباً . اشار اليهم اخراج الحاسبة من الديوانية والى الخارج ليلتهمه الظلام بين الاشجار الكثيفة المحيطة بالقرية ... بوقت قد وصلت المدرعات على مسافة (٥٠)م من الدار ...

استمر يركض ويركض ... ولكن الترسانة العسكرية الامريكية لم تتوان من الدخول في المزارع ... ودخول الدار وتحطيم كل مافيها وهكذا بالنسبة لجميع الجيران وسرقة بعض الاموال ومصوغات الذهب ولكن من جميل الصدف انه لايملك اموالا وذهبا "والمفلس بالقافلة امين" مازال يبتعد اكثر في الظلام وبين الاشجار ولايسمع الا الطيور الفارة من الشجر وقد افزعها ولكن لاتعلم ذلك الفزع الذي يعيشه هو كذلك..

وصل عند حافة نهر مليئة بالماء فقفز عابراً الى الجهة الثانية ولكنه لايأمن ان يكون الجنود يختفون في السواقي ويطلقون النار عليه فيموت كما حصل للعشرات من ابناء هذه القرية ولكن التعذيب الذي رآه في الاعتقالات السابقة هي التي دفعه للهرب قدر الامكان ...

وصل ابراهيم على مسافة (١) كم ولكن يشعر ان المدرعات والهامرات هم يتبعون الطرق الرئيسة للوصول الى ادق الطرق بين البساتين

وقف امام سياج احد البساتين ولان يده مازالت فيها بعض الاوجاع فقد تعرض الى صعوبة كبيرة للعبور الى الضفة الاخرى بتلك الغابة الموحشة ، وهو يسمع في سدف الظلام سحيق اعشاب يابسة فاضطر الى التوقف والحذر والتنصت ومتابعة الحركة بهدوء وقطع النفس احياناً لانه ربما تكون الحركة بين الاغصان لجنود امريكان يتربصون للهاربين من البيوت ...

انها ربع ساعة تقريباً كانت صعبة للغاية كان يتمنى ان يحمل بيده سلاحاً لكي لايموت بدون ان يقتص من عدوه ... فتح عينيه بعمق واذا بسرب لابن اوى تهرب راكضة ... فأطمأن مبتسما بسخرية ان الامر سهل وهين وحال ماهمَّ للسير ثمَّ صوت آخر فجلس يترقب تارة اخرى ولكن الصوت اقوى وراح يتراجع الى الخلف بين الحلفاء والثيل الى ان دخل في الساقية المجاورة ... الصوت يقترب ويقترب ... وفتح صيوان اذنه بقوة لفهم شيء ولكن نباح كلاب القرية الكثير حال دون التمييز ولكن صوت المسرفات يقترب شيئاً فشيئاً ...

بعد ثلث ساعة اخرى سمع صوت ... قائلاً : صاحب- صاحب فعلم انهم مجموعة من الشباب قد هربوا كذلك لان صاحب هو جار له ... نهض

مناديا بصوت خافت : صاحب انا ابراهيم وواصلا المسير حتى اصبح صوت جحفل الاحتلال بعيدا ..

جلس يلملم جسده في سترته التي لم يوفر له الدفء بقدر ماهي تقنعه ((شيء افضل من لاشيء)) الصوت يبتعد عن القرية ولكن ابراهيم يقول الحمدلله رب العالمين ... اللهم ابصرنا بعينك التي لاتنام وارحمنا ولاتخزنا بين عبادك انك على ما تشاء قدير .عاد بعد مسافات الخوف يجر الالام مقرراً الموت بقتال ضدهم وان لايبح لاحدا بذلك وان اول عمل يقوم به السفر يوم غد وعدم العودة ...التقى اثناء العودة بأحد اخوانه فقال له انهم مازالوا يرابطون على مقربة ... ابتعد ... الضباب بدأ يتصاعد والبرد يشتد قائلا(اللهم اجعل هذا في سبيلك)

جد ببقايا قواه الى احد بيوت القرية منادياً : صالح ياصالح ... فخرج اليه من انت

- انا ابراهيم

- اهلاً وسهلاً تفضل مالامر ؟

- الامريكان يداهمون القرية وانتم اخر المطاف والبرد قد قسى على عظامنا الخاوية

- تفضل

- دخل الى غرفة متواضعة وهو يوقد مدفأة نفطية (كيرونا) قديمة قد تهالكت بحكم الزمن والاستخدام وسنها الاحمر الذي يستخدمونه للتدفئة

والاضاءة بان واحد...امتد متعباً الا ان عينه تأبى ذلك لان ملابسه قد تبللت وقدميه قد اصيبت ببعض الاوحال والجروح ...المدفأة تنفث سمومها النفطية القاتلة التي لايحتملها فقد صنعت جواً خانقاً لايحتمل ابداً ...صالح لم يسأل ابراهيم شيئا لانهم قد اعتادوا على ذلك كل يوم ...

الرجال تغادر البيوت والامريكان يتسورون في المنطقة والرؤوس خاوية ذليلة ... الموت اولى لنا نعم اولى للناس هكذا يحدث نفسه لانه يحذر ان يقول هذا حتى لصالح هذا الرجل الطيب لان الامور والاحداث في كل يوم تعطينا درساً وشكلاً اخر اشد ظلمة وتعاسة...

نهض من فراشه قائلاً لصالح سأذهب فالمساجد تنادي (سحور ، سحور)

اليوم الثاني من رمضان وكم يشتاق الناس لمثل هذا الشهر ان يمارسوا شعائرهم الدينية بأطمئنان الا ان ابراهيم كان على الدوام مرتبكاً وغير مرتاحاً ...

- ولكن قوات التحرير ربما مازالوا هناك

- لا ان شاء الله انتهى الموضوع ... غادر ويشعر بأكبر لحظات الحرمان ...

تناول السحور مع العائلة ولم يتحدث عن المعاناة واللحظات الحرجة

الامريكان جاءوا اما لمعلومات استخبارية او يقصدون اعتقال شخص ما ...

في الصباح غادرت العائلة متوجهة الى سامراء ... خرج يقود سيارته بسرعة تصل الى (١٢٠)كم/ساعة واذا بسيارة (كراون او ماتسمى "بطة") تعترضه في منطقة معروفة بالقتل والتسليب تدعى (الركة) تلك المنطقة التي

ذهبت فيها ضحايا بالعشرات ...كان يظن ان الاعتراض بالخطأ وحال وصوله بالقرب منها وانحرافه من مقدمة السيارة نزل رجلان يرتديان الاسود والجوارب في وجوههم وراحوا يطلقون الرصاص فقال لعائلته اخفضوا رؤوسكم واناخ رأسه كذلك ثم لحقوه وهم يرمون بسلاح متوسط BKC وبندقية كلاشنكوف ... ولكن الله نجاه وعائلته بسلام فقد وصل السيطرة الاولى للحرس الوطني واخبرهم بالموضوع ... وقال الحمد لله رب العالمين على هذا الامتحان في المساء امريكان وفي الصباح ملثمون مجهولون!

وصل داره هناك وقد كان متعباً فناشد افراد عائلته بعدم الكلام لاحد بهذا الموضوع ولكن سأل نفسه ((ترى لماذا قصدوني بالذات هل انا امريكي – او حرس وطني او شرطة او ... او ... او .... مخبر سري هز راسه رحماك ربي

اخبره احد ابناء المنطقة ان يوم امس قد قتل قرابة (٤٥) شخصاً في (الركة) وألقوا في الماء من قبل جهة مجهولة عندما غلق الامريكان الطريق مما يضطر الناس الدخول الى المزارع باتجاه نهر الاسحاقي ...انها لعبة جديدة دفعت الناس الى الذهول فتلك حادثة مفاجئة فبعد ان كان الجميع يظن ان الركة معقلا للمقاومين يتضح الامر شيئا آخر فقتل الابرياء وتسليبهم بات مباحا

لابد من امر جديد لايعرفه الناس يصدر بتكتيك معين سيؤدي بالجميع الى الهاوية ...اللهم سترك من فتنة المحيا والممات...

قد لاينفع احدا ان يحذر من الموت لان الموت لايعزله حاجز ولاينجو منه قوي او ضعيف ... فنحن سائرون والاقدار ستحكم بامرها المكتوب

بات يدرك تماماً ان الهروب من مواجهة الاحتلال جزء من حل وقتي ، او مناورة لدفع عجلة الحياة الى اجل قريب او بعيد وان المواجهة الفعلية هي التي تحكم حجم ونوع التاريخ الذي سيكتب ...

(١٩)

الصباح والمساء هما جديدان على الدوام والقديم هو مجمل الاحداث التي تمر في حياة المرء ... كل شيء في عين ابراهيم يراه مر المذاق يستذكر السنوات العجاف التي مضت والقادم منها ربما يكون اكثر ايلاماً ...

كان يتمنى ان يرى وجه ملازم محمد كيف اصبح وكيف يقضي عمره ان كان حياً وهل له ابناء ، وهل ان الشيب غزا سواد شعره ذلك الليل الكثيف ...

كم كان ابراهيم يتمنى ان يراه ويسأله ويحاوره وماذا يعمل وهل عاد الى الجيش وهل تمكن ان يعمل بالحيوية والنشاط والشجاعة نفسها...

كان يتمنى ان يرى ماجدة وان يسألها اين اصبحت وهل مازالت تعمل في منظمة حقوق الانسان ام تركت العمل وركنت الى بيتها ...واستذكر :

اصاب الهوى قلبا بعيداً عن الهوى

فما كل من يبتغي السلامة يسلمُ

يفز من فوره ... يحاكي نفسه لماذا لاتتصل بها يسحب الموبايل ويبدأ يقلب الارقام ويبحث عن حرف الميم ... ويردد ميم ... ميم وهمس قلبه بوخزة حين رأى " ماجدة " اذ لايريد ان يستثير غضب وغيرة زوجته اذا رأت ماجدة ... أمن الاتصال

– بعد بضع ثوان ... مشغول .....ولكنه بات يشعر بامل مبعثر واعاد الأتصال تارة اخرى ... وقت قصير

- صوت ناعم... تفضل

- صباح الخير ... من معاي

- انت من

- انا ابراهيم

- وأي ابراهيم

- ابراهيم مؤسسة حقوق الانسان

- اعتقد بالخطأ ((لست امم متحدة))

- انت ماجدة

- نعم ماجدة اخي

- لطفا انا ابراهيم سعدون كنا في عمان سوية

- تصمت – وتصمت – وتصمت ... اهلا ياعراقي ياأصيل ...

وتجيب بارتباك كانها تلتقي اول رسالة حب في حياتها

- مشتاق جدا – اين اصبحت ماجدة وماذا تعمل

- انا في البيت وانت ماذا تعمل ...

- مازلت في المؤسسة واعمل في شركة ... ثم يضحك

- انا تركت العمل كما قلت لي ... واتمنى ان اراك

- لم اترك العمل لاني بحاجة اليه كثيراً كثيراً ...

- سبحان الله ... انت اكثر شخص كنت مكترث

- لي اسبابي الخاصة ...

- انا احس بتلك الاسباب فلربما تجمع بين المؤسسة والشركة

- ضحك ... لا ... لا

- هل فكرت بي خلال مامضى ياصديقي ؟

- كثيرا وتمنيت ان اسمع اخبارك يانخلة العراق الباسقة . الشبكة تقطع الاتصال ... وتبين فيما بعد ان دورية امريكية تجوب المنطقة بعدد من الاليات التي لاتُعرف اسماؤها ... يلوح بعض منها امام نظره فبادر قائلاً : قبحكم الله : كم اكره هذه الاشكال وهذه الالوان ... ولكن كان الامر سهلا حين استمروا دون الوقوف والسؤال عنه ...كان طفله الصغير على مقربة منه فيسأل

- هل تكرههم

- واموت منهم ويصيبني الاعياء والقرف

- ابتسم الصغير حاضنا والده فيبادر بتقبيله من رأسه : حماكم الله من ويلات هذا الزمن الوضيع الذي اذل الكرماء ورفع البخلاء والسخفاء والاقزام ...

الوقت مفتوح هذا اليوم لابراهيم فكر ان يكرر الاتصال فقال لا لن اتصل مرة اخرى بماجدة فرصة اخرى ان شاء الله ولربما تسأل لماذا لم يتصل فلربما لديه امر يكمن في صدره...ولكنها الحقيقة ....نعم الحقيقة التي تتعارض مع فأل الموت القادم والذي نويت ان اشتريه ...

سرح في مخيلته بالاشهر الاولى من الاحتلال وهو يزورالقضاء لبعض احتياجاته عند احد الزملاء من ابناء القضاء وفي السوق : الامريكان يدخلون اشبه بديك (رومي) الذي ينفخ ريشه ويخط في جناحيه على الارض ، انهم ينزلون منتصرين اذ مازال مارآه يصعقه اذ جاء احد الرجال من كبار السن يرتدي دشداشة ويلف((غترة)) بيضاء على راسه طويل القامة ذا بشرة بيضاء مبتشرا ، ضاحكا قائلا للامريكان ((اهلا وسهلا بكم لقد افرحتمونا بقدومكم وخلصتمونا من الدكتاتور وقد اقسمت على نفسي ان اقبل كل من اراه من الامريكان وبدأ بهم مصافحة وتقبيلا على الرغم من كثرة عددهم وكان المترجم يوضح لهم سبب ذلك الشعور في حين بادر خمسة من الصبية يصفقون خلفه واحدهم يقول له ((وهل تقبل المترجمة؟))....استمر هذا المتخاذل في تقبيل الجنود

ولكن ابراهيم كان غاضبا بشكل لايوصف قائلاً ياحسرة على امة الاسلام باعوا آخرتهم بدنياهم فاضطر الى مغادرة المكان بأخر نظرة لهذا وهو يقلد امريكياً اسودا كبيرا كالبعير الاجرب او الثور الاسود اكليلا من الزهور في رقبته ...شق ابراهيم صفوف الحضور متمتماً : مسكين هذا الرجل كم انه ساذج يتصور ان الموضوع مرتبط بصدام ناسيا ان الدنيا قد اخذت مثله ملايين لكن المؤامرة عليك وعلى دينك وعرضك ومالك واحفادك ... فسيعقب ذلك ويلات وكوارث تشيب له الرؤوس..

فجأة يقف حداد امامه فلم يشعر به فوضع كفه امام عينيه ففزع ناظراً بقوة : ها حداد مرحبا بك وصافحه واجلسه مبادرا واين كنت ياصديقي

– منذ الصباح انا في سياحة كبيرة كيفما اشاء

– اذن انا جائع وبحاجة الى لقمة طعام وبعد الى مهمتنا لبعض الامور

نهض ابراهيم الى ام عياله طالباً ماتيسر من فضله واجتمعوا مع الصغار على مائدة واحدة وتناولوا الطعام ... ثم الصلاة والدعاء بالتوفيق ...خرجا سوية دون ان يخبرا احدا بذلك وعلى المسافة التي قطعها كان يحدث حداد انه مابات يطيق الوضع الحالي وانه بحاجة الى تغيير بعض الامور في حياته –

– حداد ضاحكا – نزوجك امرأة اخرى

– لا ... ياصديقي تلك امنية ولكن الحياة لن تسمح لي اكثر مما عشت..

– تعوذ من الشيطان يارجل ...وصلا الى حد التلول العالية وعند بيت متواضع للغاية بيت من الطين وعلى مقربة منه بئرا يفور ماء جلسا واتفقا الى مهمة كبيرة ... خرج ابراهيم يقود السيارة وعلى مسافة (٥) كم قرر ان ينزل من الشارع العام في طريق بغداد – صلاح الدين ...كان الجو قد اغبر بالتراب وهناك مطر خفيف – نظر في مرآة السيارة والا بسيارة شرطة رباعية الدفع خلفه وينادون عبر سبيكر صوتي توقف صاحب السيارة توقف .. توقف بكل هدوء – الى اين ذاهب

– الى بيت خالتي

- ولماذا في الطريق الترابي

- اعتقد ان الطريق باتجاه بلد مغلق فانا مضطر الى ذلك وكل الطرق تؤدي الى روما...ثَمَّة خوف يعتريه لاسيما ان الارهاب قد عم البلد وهو يحمل سلاحاً في السيارة ...

ترجل الضابط متجها صوبه– انزل – انزل

- بأبتسامة متواضعة – تأمر

- هل تحمل سلاحا او شيئاً ما

- لاأبد لااحمل شيئاً

حاول ان يكون طبيعياً ولايوضح على معالمه شيئاً بل وهادئاً في الكلام ...

التفت الضابط الى اربع شرطة معه قائلاً استدر ليس عنده شيئاً هذا الرجل توكلوا بالله ...

وفي حين صعد ابراهيم تصل سيارة اخرى ينزل منها ضابط وشاهراً سلاحه توقف ... توقف – انزل – انزل ابتعد عن السيارة وافتح الابواب والحوض الخلفي ...كان ابراهيم في اصعب ظرف يمر به في حياته تم تفتيش الابواب ومحرك السيارة والاطارات.... والكارثة الكبرى الحوض الخلفي حين فتحه فنادى امسكوهم ارهابية ... وقد رمى الشرطي بعض الاطلاقات في الهواء فرحاً بهذا الموقف وبأمر من الضابط يقع مرة اخرى في قبضة الشرطة ...

ويلتفت الضابط : تريد ان تضحك علينا باسلوبك هذا اقتيد الى مركز الشرطة رقم (١) كانت الساعة الثانية ظهراً ووضع في احد السيارتين وبرفقة جندي واحد الذي رمى بندقيته بجانبه وكان بالامكان ان يسحبها خلال الطريق ضد هذا الشرطي المسكين لكنه فكر انه عراقي –نعم عراقي فاصبر صبرا جميلا... وكان معه زميلا اخر جاء برفقته اقتيد في سيارة اخرى ...

(٢٠)

القبض من جديد بصيص الامل يختفي شيئاً فشيئاً والافراج مجرد حلم واوهام تحول بينه وبين التسليم الى اليأس...

الاحداث كالموج مد وجزر في حياته ، افكار سوداء وبيضاء ، صفر ، وحمر ، تحيط كيانه وهو يقبع في القبضة الصماء جدل ونزاع ومشاجرات مرة اخرى هذا ماكان يخشاه منذ زمن غير قليل وهو يتأمل في غرفة المركز المليئة بالاثاث سرير منام وميز فخم وكرسي اسود دوار وطقم طبلات سوداء وسجاد ايراني يفترش الارض وصور وتحفيات في الغرفة احدها طيور تحلق في السماء وفي نشوة افراحها كان ينظر بعمق اليها مقارنة بنفسه وزميله اذ بدءا رحلة القيود والاغلال والسجون المظلمة والبعد عن الاهل والاقارب ثم يمسح وجهه اللهم فرج عنا وارحمنا فأنك بنا راحم وينظر الى زميله فيجده كئيباً للغاية وضجراً فيبتسم له قائلاً : اصبر وما صبرك الا بالله .

بعد نصف ساعة اجتمع جنود الشرطة لتناول وجبة الغداء ودعوهما بالحاح لتناولها معهم (كبة مع الخبز والماء وصمون) كان يظن ان ذلك زادا وملحا سيدفعهم للمساعدة والخروج من مأزق السجن ...

ضابط الاستخبارات يدخل ثم يخرج وهما ينظران خلفه انه شاب وسيم برتبة نقيب متوسط القامة / عيون خضراء ، شعر اشقر ممتلئ الجسم ... ثم يدخل ضابط برتبة مقدم متوجها الى ابراهيم دون سابق معرفة ويهمس في اذنه بعض الكلمات لم يسمعها احد فرد:

ابراهيم ((وهذه هي الحقيقة)) واستدار خارجاً من الغرفة بسرعة فألتفت الى زميله هامساً في اذنه كذلك واومأ له في رأسه وابتسم الاثنان وكان هناك امر اراحهما بعض الشيء .

عاد ليدخل ضابط الاستخبارات والذي عرف بنفسه لهم انه النقيب ((حامد صالح)) قائلاً :

اين كنتم وماذا كنتما تعملان ومن اين لكما السلاح وبدون كذب؟

– كنا عند بيتنا في المزرعة ونحن نعمل فيها بالسقي بمحرك "كازوايل" ولدينا غرفة بسيطة مبنية من الطين وعند الوصول الى المكان وجدنا هذا السلاح فقررنا تسليمه الى الشرطة فحملناه في السيارة لتسليمه اليكم ولان هناك دورية في الشارع العام للشرطة طاردونا ووجدوه عندنا فأقتادونا الى هنا

– ماأسمك .. نسيت ان اسألكم؟

– ابراهيم سعدون

– يعني تريدني ان اصدق بك انك لم تكن ارهابياً مع زميلك

– يفز بسرعة : لا نحن في زمن التكذيب والتصديق امر صعب للغاية لقلة الصادقين

– يعني كنت تنوي النيل من الشرطة؟

– بهدوء .. هم ابناؤنا واخوتنا واقسم سواء صدّقت ام لم تصدّق ليس لدي اي موقف ضدهم والله يعلم ... فمن للعراق غير اهله وابنائه ؟

- قل لي ماذا تفعل اذن

- ماعندي غير ماقلت لك وزميلي هذا شاهد على ذلك

- عموماً ليس بأمكاني مساعدتكما لان الدورية الامريكية قد علمت بكما وسوف تأتي لاخذكما ...

خرج ضابط الاستخبارات وبعد ربع ساعة قدم جحفل القوات الامريكية بواقع (٣) همرات ومدرعتين فاسرع الشرطي الى عصب الاعين والنزول ثم الصعود في المدرعة الحوض الخلفي ... وتوجهت الى المعسكر ثم افكار وحكايات واسرار ومشاعر جياشة وخانقة تدور في الرأس، قبر مظلم وصوت عارم يجتاح الفضاء وصمت يجرف بقايا الامل الى المنحدر الاسود والمصير القاسي المتكرر بين الحين والاخر...

وبعد وقت ساعة تقريباً نزلا كانت المسافة قريبة انها المخازن في الدجيل كما تسمى كان جنود الاحتلال مدججين بالسلاح والنظارات والكسارات والدرع ... واخذا ابراهيم وزميله في غرفتين مفردتين ... الغرفة قياس ٥ ×٧ متر ومصبوغةبلون احمرصارخ كان الباب مشبك لاترى من خلاله شيئا واذا شئت الخروج الى الصحيات عصبوا العينين واخرجوك وان تمشي امام فوهة السلاح التي لاتراها ولاتحسها تلامس عظام ظهرك من الخلف...

الساعة الرابعة عصراً والهدوء يعم الغرفة ، ألوانها مزعجة جداً انها حرب نفسية بلا شك ... تساؤلات تمر في ذاكرة ابراهيم اين كنت ايام زمان وقبل سنوات وكنت بائسا ضجرا غير راض واين اصبحت الان تضرب تهان دون ان تقوم بادنى فعل ((فصبر جميل والله المستعان)) ...فجأة يدخل

شاب يرتدي الملابس الرياضية طويل القامة اسمر البشرة مبادرا جئت بتسجيل بعض المعلومات في لائحة .. اسمك / عنوانك / سكنك الحالي / مواليدك / دراستك ...

خرج وأغلق الباب ... وابراهيم ينظر خلفه سارحا امام رحلة العمر يسجد في محرابها وجلاً ولكنه بالوقت ذاته هو مستسلماً لتلك المقادير التي لايملك امامها سلطاناً...

الساعة السادسة اقتادوه الى كرفان خشبي معصوب العينين وتم فتحهما فنظر جندياً امريكياً كالديناصور طويل القامة سمين ووضع على نفسه اجهزة واسلحة لم يكن ابراهيم قد رآها من قبل...بالتأكيد لم يرها يرافقه مترجم ابيض البشرة سمين الجسم يظهر من لهجته لبناني الاصل وامامه المحقق ربما كان ضابطاً لانه لم يرتد رتبة سوى قطعة الاسم المكتوبة في صدره (A . jems)

بدأ التحقيق بالسؤال عن : الاسم – المستوى الدراسي – الا سؤالاً واحداً لم يجب عنه :

- هل عملت ضابطا في جيش العراق السابق؟

- لاطبعا... كنت جندياً

- كيف تم القاء القبض عليك

- واعاد له ماقال لضابط الاستخبارات العراقي

- فقال له انت تكذب في معلوماتك

- ولماذا اكذب انا لست خائفا من شيء؟

المترجم يغضب تكذب هذا المحقق امريكي ليس عراقي لاتكن غبياً

- ولو كنت كاذبا لتمكنت من الهرب من المزارع والحقول بل انا جئت لتسليم السلاح الى الجهات ذات العلاقة ...واعيد الى الغرفة ذاتها وقضى تلك الليلة بعد تناول بعض النساتل والارزاق الجافة المسلفنة التي لم يأكلها لانها (جامبلايا) اي لحم خنزير فاستبدلوها له بنوع اخر اخف شراً (snake meat)..

قضى الليلة وابراهيم لوحده يمتد على بطانية قديمة ووسادة متسخة كان يظن سيطبق الليل بظلام شديد لكن العكس هو الصحيح ... اذ انيرت بلاجكتورات كبيرة في الغرفة باضاءه قوية جديدة بامكانها ان تضيء ارض المعسكر كلها وبالتأكد هذا الاجراء حتى يبقى بمواجهة اللون الاحمر الصارخ المزعج... الذي كان يشبه الى حد ما قريب من لون الدماء التي نزفت من اجساد الابرياء بمجزرة حديثه والاسحاقي ومعركة الفلوجة الاولى والثانية والنجف والموصل وغيرها

اه كيف العيال وهل ورد نبأ اعتقالي اليهم .... كيف احوالهم...؟ ما ياكلون او يشربون ... ثم يغمض عينيه ويستدير على شقه الايمن فالايسروالايمن والايسر وعلى ظهره يريد ان يهرب من الاضاءة القوية باي صيغة لكن الصبر ولي نعمة عبد ضاق الفضاء حرضا عليه...ويحدث نفسه الى هذا الحد انا انسان مهم فعزل في غرفة واسعة كديوان العشائر ولكن اين العشائر اين الدواوين عملاء باتو عملاء يسجدون للدولار وجميعهم لا –لا – لا يجوز البعض الغالبية... يتربع جالسا ينظر الى الحائط يقرأ شيئا من ذكريات

المعتقلين الذي سبقوه بعضها مضحك والاخر مبكي... كم ان هناك تاريخ مرارات كبرى يسطرها هذا الجدار ولعل بعضها لا يحتمل ولا يقال اصلا...

واين زميلي هل هو هنا ام خرج؟ لا ادري ... لا ادري ....؟؟

في اليوم التالي تم نقل ابراهيم وزميله الى قاعدة بلد كان الجو نيساني والاشجار قد بدأت ترتدي ثوبها الاخضر وهم في طريق الحرية وراء القضبان الحديدية .... جلسا عند الباب الخلفي للمدرعة وبعنف وصراخ يصيحون ثلاث مدرعات وثلاث همرات وعدد من الجنود ... وبعد وقت انتظار نصف ساعة تقدم احد الجنود الى ابراهيم وانزله ووضع وجهه امام فتحة العادم... كان الهواء حارا جدا وينفث الدخان الاسود حتى اصابته الغيبوبة ثم اعاده واطبق يدي بالجامعات او القابضات بشدة ... ثم احس الاما ووجعا ثم فتحها قليلا تعاطفا الا ان عراقيا ناشزا ، كان يعترض بشدة طالبا ان تبقى قائلا : انه ارهابي يستحق الموت!!

كان وصولهم الى قاعدة بلد عند الغروب ... وسط تعذيب وضربات وكلمات موجعة ووقفات وسيطرات و ... واحداث هربت من الذاكرة تم استلامهما كالسلع ورموهما في سقائف مفتوحة مغطاة بمشبك ...

كان الفراش اشد قذارة من ذي قبل وكانت المداخل واطئة حتى ان جندياً امريكيا جاء ماراً بسرعة فضرب رأسه في الاعلى فخرج وسقط والدماء سالت من جبهته.....

ليس غريباً على ابراهيم حجم المعاناة والتعامل عدا زميله (شامل) الذي لم ير السجن والاعتقال سابقاً فكانت ظروفه صعبة الى حد ما وكان يشجعه ويشد من ازره...ليست المشكلة الخوف بل تداعيات المصير المجهول

كل شخصين اصبحا في زنزانة والكلام ممنوع انه يشبه معهد الصم والبكم ،كانت اعداد المعتقلين ليست بالكثيرة والمرافق الصحية ذات رائحة كريهة جداً وبدون باب خارجي ولانك تضطر لها فالامريكي يقف ساخراً ويضحك لمشاهدة سوءة المعتقلين الذين جاءوا بهم بسبب او بلا سبب...ثلاثة ايام مضت لم يجر اي تحقيق سوى اسئلة كثيرة بسيطة .

اليوم الرابع تنزل طائرة هليكوبتر وقد صرح احد النزلاء القدماء بانها تنزل كل صباح لنقل المعتقلين ...وبالفعل اذاع المترجم الاسماء وكان في مقدمتهم ابراهيم سعدون – وشامل اسعد .. واسماء اخرى لايعرفانها... عصبوا الاعين وكبلوا الايدي ودفعوهم كالنعاج الى فوهة الطائرة العملاقة وصفهم بحزام واحد من بداية الطائرة الى مؤخرتها لاشيء بالامكان ان يعبر به ابراهيم وقت قد استنفذت به جميع الكلمات ...

حاسة السمع والتذكر تعمل والكلام ممنوع تماماً ويتجول السجـــــان مرة يضحك مرة (Fak you) ويكرر(Fak you) ثم يضحكون ويضحكون حد القهقهات والركل (بالبسطال) لمن يحرك يده او يهمس بكلمة او يشك انه يهمس ...

ياألهي الى متى هذه الاقدار تجرني وهل سأبقى مع الزمن على هذه الشاكلة دون تغير ...((اللهم لطفك فنحن عبادك بنو عبادك فانصفنا من هؤلاء الظلمة)) الارتفاع الشاهق والغيوم لربما يتمنى احد ان يكون محلقاً معها

حين يكون طليقا بل الحديد فقط الحديد والامريكان وجمع من الخانعين قسراً وبالقوة ويتذكر ببقايا ايامه الجميلة صورة ماجدة يوم حلقت بهم الطائرة من مطار بغداد الى عمان ويحدق بعين واسعة الى بغداد الرشيد وهي تحدثه ويجيبها بشيء من كبرياء يعتز به يستذكر عينها الفاجعة التي تؤلمه شيئا فشيئا وداعا ياماجدة ايها الحب الذي ساقبره معي للاخرة وداعا ياسمرة الجنوب ياوهما يلاحقني ياسوطا يجلد ذاكرتي صباحا ومساءا لا احد يدري وجعك يانصفي الاخر الذي حط الى الارض ودفن في مقابر المسيح لايزوره احد ولايعرفه مني اليك اكليل ورد انثه بمطر روحي المفجوعة بالرحيل بلاعودة ...نصف ساعة وحطت الطائرة في مكان غير معلوم وهو متمنياً ان ترفع العصابة ليراه..

حين ابصر كانت الاعداد كثيرة عند النزول وبدى المكان هو كلية القوة الجوية في تكريت – سبايكر) الافق يمتد والاعداد البشرية المذلولة تجول في المكان بانتظار السيارات لتنقل المسافرين الى المجهول ... سيارة نوع كيا تاخذهم الى (جملونات) وهناك حاويات حمراء وعندها تفتح الاعين والايدي التي عصبت اثناء الصعود الى السيارة ...

صف الجندي الامريكي ذو الرائحة النتنة كل ستة اشخاص على مصطبة انتظار اذ يتم نزع الملابس وحتى الملابس الداخلية وبحضور جنود الاحتلال ((تخمة الديمقراطية المزيفة)) وتوضع الملابس في كيس ويسجل عليها رقما متسلسلا .

ابراهيم يندفع الى جانب شامل ياصديقي عليك ان تكون كما انت فما قسم الله لنا سيكون ... ادخلوا الى " جملون "كبير مقسم الى زنزانات

ضيقة يسع ٣ اشخاص... وعلى مقربة زنزانات للعقوبة ١×١ وهي ظلماء جداً تعيش بها الكائنات الحية بأشكالها يضاف لها بني البشر ... تم توزيع ارزاق جافة (كاكاو – كيس مرق – لحوم خنزير جامبلايا وعادة يتم تبديلها الدخول الى الحمامات جماعي بواقع عشرة اشخاص كم كان ذلك صعباً على ابراهيم فهو يشعر بالخجل والحياء كان جنود الاحتلال يهزؤن ويسخرون ويضحكون وغضبه يتعدى الخط الاحمر .. " كيف يكون لنا ان نكون حفاة عراة امام بعضنا وامام هؤلاء الكلاب ... اذ يجلس الجميع بوقت واحد وصف واحد لقضاء الحاجة بعض الاحيان كان البعض يتمنى الموت او ان يكون حزاماً ناسفاً او شيئاً اخر من سيفور ينتقم والى الجحيم ...

ابراهيم يأخذونه الى التحقيق - ضابط امريكي – ومترجمة عراقية وجندي امريكي ... وامامه كاميرا تصوير فديو قد وجهت عدستها باتجاه الكرسي الذي يجلس عليه .كان الضابط احمر الوجه متوسط الطول امامه منضدة وعليه اوراق كثيرة وقد تجاوز الاسم ... و... و... اسئلة مكررة ومملة :

- من قبض عليك؟

- الشرطة العراقية وتم تسليمي الى القوات الامريكية

- صف لي المكان الذي وجدت به السلاح وارسمه على الورق

- كانت المزرعة بقرب الغرفة الوحيدة التي نقضي الليل فيها احيانا وتم وضعه وتوجيهه اليها من قبل جهة مجهولة والى جانبه تل تراب وبعض اخشاب وحشائش ... نرسم المكان كما تحدث ...ولكن شامل اسعد لم يتمكن من ذلك او اخلف في الوصف والرسم ذلك ماعلم لاحقاً

- هل انت ضابط ؟

- لا جندي خدمت في الجيش العراقي السابق

وبعد المعلومات التي حصل عليها الامريكان من المخبر السري والوكلاء والعملاء والجواسيس . فقد اكدوا في التحقيق اللاحق

- هل انت ضابط ؟

- نعم

- ولماذا أنكرت في التحقيق الاول

- لاني ضابط دورة احتياط غير معترف بها مثل الكلية العسكرية الاولى وكنت مسؤولا على الاليات وامور ادارية اخرى

- هل انت خبير عسكري

- لا ابد انا خريج كلية الاداب – قسم الاجتماع

أعيد الى مكانه وتم التحقيق مع شامل الا انه كان غير موفق في الادلاء ببعض المعلومات ...

الكلام كان محرما الا رمزاً ومن يتكلم يسحب الفراش منه ٢-٤ ساعات وكانت الارض باردة ... والحرس كان يمشي على طريق في اعلى المعتقل تم تنظيمه فوق الزنزانات صباح مساء ...

بصيص الامل بات يختفي لديه شيئاً فشيئاً واحلام الافراج مجرد اوهام تحول بينه وبين اليأس .

(٢١)

من بغداد الى البصرة رحلة شاقة ... لنرى نهاية النفق... نفق التحريرهل يصل بنا الى التحرير ام الى الجحيم ..

ومن اطلالة صباح جديد ، تراود ابراهيم ذكريات كثر امه ووالده اخوته واخواته زوجته وابناءه فيشعر باشتياق كبير ، كان يتمنى ان يكون بين يديه ورقة وقلماً يسطر بها بعض هذا الالم والجور الذي يشعر به ...

لاخيار امامه غير طريق الصبر والتصبر والرضى بالامر على ايّ كان شكله وفي حين جالس يفتش عبر ذاكرته الخفايا من الجميل والبائس ، يشير له جنديا امريكيا ((انت بوكا))

فالاخر فالاخر فالاخر ((انت بوكا)) تبين انها حالات استفزاز لمزيد من الاستفزاز النفسي حتى ان البعض قد صار لديهم شئ من الهستريا في التصرف والصراخ والبكاء احياناً اذ يضحك ابراهيم مرة ويبكي مرة اخرى خفية عن اعين الناظرين ...تراب يغطي سمرة وجهه وهم وقتر ملون يجازف به بين عاديات الزمن...

بعد خمسة عشر يوماً تهبط الطائرة لنقل المعتقلين بواقع (٧٠٠) معتقل من قواعد(تكريت – كركوك – الموصل)

وكما هو معلوم – ربط الايادي – وبلا كلام وتوضع واقية بلاستيكية على العين لحجب الرؤية – وحال الوصول تم تسليم الجميع الملابس المدنية واستلام ملابسهم الصفراء المقززة...وعلى شكل طوابير طويلة على مقر

الحاسبة – تم تسجيل المعلومات من الالف الى الياء وبأدق التفاصيل وبصمة للعين واليد ...

كانت رحلة شاقة حقاً تحمل بها ابراهيم ماتحمل ولكن يكرر لنرى نهاية نفق التحرير هل يصل بنا الى التحرير المزعوم؟؟احجم عن الكلام سوى نفسه هي الصديقة التي تناقشه ويعترض عليها ويجلدها بفقدان الوعي احيانا واغماض العين او يهز راسه او يذرف دمعا او يستذكر الماضي او يعلق على الحاضر كل شيء مباح لها ومن غير كلام ..تقاد الرجال بالرتل الى غرفة او مخزن للملابس لاستلام الكفن الاصفر "بدلات صفراء" وحرق الملابس المدنية بمثابة انذارلنهاية الحياة الحرة الكريمة والمغادر بسفر طويل غير ميمون...

رجع الذاكرة واخذ ابراهيم الى ذلك اليوم الذي ذهب به لاستلام راتب بالدولار الامريكي بداية الاحتلال يوم كان متردداً حين رأى الضباط يصطفون امام احد مدرسة ابتدائية في الدور على شكل طوابير والمجندة الامريكية تصرخ بصوتها يرافقها عدد كبير من الجنود المحاطين بالاسلاك المنفاخية ، شعر وقتها باتعس اللحظات واعلى درجات الذل حتى ان احد الضباط قد وجه ضربة الى الامريكي الذي يقف في مدخل القاعة بسبب تصاعد الشعور بالنقص وسخرية الايام وقد اعتقل الضابط الى جهة مجهولة لربما يكون مقبورا في المطار ببغداد او في بوكا ...

وصل التسلسل الى ابراهيم .. وتم استلام المنحة والتوقيع عليها والشيء المهم الذي زرع الالم في قلبه هو سحب الهوية ((هوية ادارة الضباط)) وقطعها من جانبها الاعلى في مقص صغير يصلح لتزيين الشوارب واللحى ... ثم اعادتها له وباشراف امريكي حاقد وبغيض تصلح لرسم صورته كل

النعوت السيئة ، كانت بمثابة تعبير كبير ومعنى انك قد انتهيت (Expire) لاصلاحية لك بعد اليوم بتعني لامكان لك ،او انت لست ضابطاً لان هويتك مقطوعة الاذان كما كانت تقطع آذان الهاربين تخاذلا في يوم ما ...

جر نفسه بتعب كبير الى المرآب المجاور وهو ينظر الى الجمع الغفير اذ اجتمع رجال الحرب الذين ابكوا جيوشاً لاستلام دفع الطوارئ كالعجزة في دوائر الرعاية الاجتماعية ، اسود الغاب ، رجال المهمات الصعبة ، اهل الغيرة اليوم في مسكنه وذل وانحناء تتناقض تماما مع "ارفع راسك انت عراقي" ... يوم كان يعجب النساء والرجال والاطفال ان ينظروا الى قيافة الضابط العراقي بهندامه المتميز وحركة قدمه وانتصاب راسه كالجبل الاشم ... ماهذه الدنيا ... وكيف تفعل ...؟

ركب سيارته كانه عائدا من معركة خاسرة تعيد تعاسة فوق تعاستة والما فوق اله ... عاد من "الفلاشات" الكثيرة ثم استلام مصلى وقرآن وملابس داخلية وبطانية ... تم دخوله في زنزانة وشخص اخر وكانت باردة جدا مع ان الكلام ممنوع ومن يتكلم يظهر لديهم في الكاميرا ...

بعد ساعتين اقتاده جندي امريكي يحمل سلاحه الى قاعة الحاسبة انها مشتملة على عراق مصغر بعد يومين نقل الى الكمبات وهي مقسمة حسب الطوائف سنة وشيعة اكراد وعرب وعند الوصول الى أحد الابواب سأله الامريكي سني ، شيعي :فأجابه عراقي ورد المترجم لاتكثر في الكلام اجب بسرعة غبي ،عراقي "حذاء"

– فأجابه بغضب انني (.....) عراقي اصيل وبدون اعتداء

لقد احزنه السؤال وانّب نفسه على الجواب لاسيما انه في معتقل مقطع على شكل B .R.C وبارتفاع(٤)م وهناك باحة داخلية يخرج اليها الجميع بعرض (٤م) وفي كل كمب(٤)قاعات وحراس السجن من الداخل (٦) امريكان ... علما ان الكمب فيه مساحة واسعة للتعداد ومن اسوء مارأى ابراهيم هو قطع الماء والدخول الى التواليت بشكل جماعي ولايفتح الماء اليها الا في موجه المظاهرات الحاشدة وتستخدم ضدهم العصا الكهربائية وخراطيش الماء والصجم المطاطي الموجع وقنابر مسيلة للدموع وكل الاساليب لقمع انتفاضة ((حقوق الانسان)) التي يكتبون عنها بل والدفاع عن حقوق الحيوان واذا ترى مايجري تتأكد ان كل قراطيسهم وكتبهم هي مجرد كذبة كبيرة جدا ... واستذكر ابراهيم احد الافلام الامريكية على احدى الفضائيات بزواج الفأر الابيض من صديقته وقد جرى احتفال كبير في احد الفنادق الراقية في امريكا لضمان كجزء من التسويق لحقوق الحيوان ... كم يضحك ذلك انه هراء وتهويل فياليت العالم يشاهد مجازر الضرب للمعتقلين حد فقدان الوعي او الموت احياناً ياليتهم كانوا فأرة بيضاء او سوداء او خضراء لافرق المهم ان يطبق عشر ماقيل...

اللعنة عليهم ... اللعنة عليهم يتمتم مع نفسه كلما ضاق الفضاء ذرعا به ليس هذا فحسب بل ان المغاسل ((المرافق الصحية)) هي ½ حائط (١×١) والباب هو نايلون شفاف .

وهناك نظام ان لكل قاعة مسؤول او مايسمونه (جيف) يتولى الاشراف على المعتقلين ومشاكلهم واداریاتهم تجاه الامريكان اي هو ارتباط لامكانية التواصل مع امر الحرس او الحرس نفسه...

واذا مرض احد المعتقلين فان العيادات في الساعة العاشرة صباحا تبدأ بالتسجيل / عيادة خارج وما على المريض الا ان يمد يده بين القضبان وتقفل بالجامعة ويخرج الى الباحة الامنة ويجري تفتيش بسيط دقيق والى باب القاعة تفتيش كذلك – ويمشي خلفه (٢) جنديان امريكيان مسلحان وعند وصول الطبابة تجري عملية تفتيش كذلك بل وحتى ياقة القميص والملابس الداخلية ان وجدت والى اتعس من ذلك ... ؟؟؟ والنعال البلاستيكي .

والتعداد كل ساعة او ساعتين ليل نهار .....

ابراهيم في هذا الوضع كان يحاول ان يستعيد قوته والصبر وتجديده بقراءة القران والصلاة والدعاء الموغل في الخضوع ...

وحزن آخر يلم بهم اذ ان هناك جداراً عالياً لمعتقلات عراقيات كنّ بين الحين والاخر يسقطنّ رسائل مكتوبة من اعلى الجدار في الباحة رقم (٤) ... ومن بين ماكان يقرأ ابراهيم نحن (جمع نساء اخواتكم في جور وضيم – نضرب ونغتصب ونتعرض لأصعب لحظات الذل ... فبلغوا الشرفاء والمنابر عنا ... ثم يغط في بكاء منفرد دون ان يعلمه احد ماسحا دموعه)وكانوا يبادلونهن بالرسائل بلف الورقة او الرسالة على قطعة من الحصى وتطلق في الفضاء وبالمثل كذلك ولكن بدأ الامريكان يكتشفون ذلك اثناء تجوالهم فوق ممر القاعات وعرفوا مضمونها من خلال المترجمين .

هنا حقوق المرأة ((الجندر)) تعالوا ايها العالم نحن نعيش في الغاب هنا النساء تموت وجعا فاذا كان هؤلاء ارهابيون فلماذا هذه النساء المنتهكة...اللهم فرج – اللهم فرج

كانت الصلاة اجبارية هناك فلا يوجد احد لايصلي ...ولعل ذلك الضيق يدفع الجميع الى اللجوء الى مالك الملك...وما ان يفرغ ابراهيم حتى يستذكرسيدنا يوسف عليه السلام وما لاقاه من التعذيب ظلماً...كان يتعرض واصحابه الى اذى كثيراً موجعاً ...

بقايا امل مفقود يخالجه على مرالأشهر ليعود الى اهله ولكن الايام تمد ذراعها بساعات خانقة ولحظات ايلام ومعاملة سيئة وظروف صحية لاتحتمل ... كان ابراهيم ملازما لقراءة القرآن والتسبيح والدعاء وحالما يقرأ تنزل دموعه متذكراً كل شيء الدنيا والسفر الى الاخرة الاهل واحوالهم وهم لايعلمون سوى انه اعتقل لدى الامريكان ... فهم كباقي العراقيين الذي ينأوون بالآلام بالالاف باسباب او بغيرها ...

والطائرة تنزل تارة اخرى ... وتقل(٧٥٠) معتقلا بحافلات وحسب الارقام وقد كان رقم ابراهيم (١٥٠٠) وكثيراً ماكان يعجبه هذا الرقم ...لاأحد يعرف السر بذلك ؟؟

ان الطائرة تستقبل الضيوف وابراهيم يهمس بأذن شامل الذي التقى به عند مدخل الطائرة ساخراً ، معقولة هذا نسافر بلا فيزا ولا اجور نقل ...

- يبتسم شامل مابالك هل انت مجنون؟

- لاأبداً

ضوضاء الامريكان وهمس المعتقلين وسط أضوية شديدة وتركيز عال وملابس كان يكره ان يراها احد ...

شدت سواعد الرجال وتهيأت الطائرة للانطلاق – النوافذ كانت مظللة – عينك مفتوحة هذه المرة ولكن رأسك مطأطأ الى الاسفل ، ودون ادنى شك ابراهيم كان لديه حب الاستطلاع فهو ينظر بين الحين والاخر الى الجنود ولكنهم كانوا يصرخون به ويضربونه على رأسه ...

الرحلة ساعتان هبطت الطائرة اخيراً في البصرة..... هنا الساعة الرابعة صباحاً ثم التوجه الى بوكا ارض رملية وسواتر ترابية...

ابراهيم يتنفس بهدوء ويقول وصلنا ارض الميعاد ويبتسم ساخرا فيقول:

– له احد المعتقلين على ما يقول كبار السن ((وين تكف حل اجلالها)) والله لن اتنازل ولو قطعوني اربا اربا

– كم هذا واثق من نفسه ... ماسمك ياعم ؟

– انا سعود احمد ... كنت لواء ركن في الجيش السابق واعدموا ابني طالب جامعي وبنتي وزوجتي

– من اعدمهم ؟

– الامريكان في واحدة من المداهمات واسأل الجزاء من الله فهو القادر فوق عباده ... اغلق ابراهيم فمه ... قائلا : من يرى مصائب الناس تهون عليه مصيبته ....

(٢٢)

الاعتقال والافراج رحلة انتقام

كان مصراً ان يكسر قيد الضياع وان يبدأ الطريق من جديد فاتحاً آفاق المستقبل اما للنهاية الحتمية او عيشاً يعز العراق وخاصته...

بلا ادنى شك ان ابراهيم يتنفس غضباً من خزين صدره المحترق بالهموم ، وعلى نسيمات الفجر التي يتمناها الانسان ليخلد الى راحة عميقة وسط هدوء على فراش وثير ولايريد ان يسمع ادنى صوت يزعجه وان كانت زقزقة عصافير او هديل حمام ولكن الحافلات تندفع بسرعة في حين ذاكرته كانت في غمرة الذكريات والاعوام التي قضاها ذات يوم مستذكراً ملازم اول محمد ذلك المارد الذي سكن جنون راسه ومقدم فراس ومقدم فلاح وخالد شحمان وجنود كثر تحولت اسماؤهم مجرد بقايا ذكريات ...

هذا هو المكان الذي طالما انطلق بحرية واباء وشمم يعود فيه مقيداً لايسمح له حتى النظر الى الفضاء اذ ان نوافذ الحافلات مظللة ... نعم غير مسموح كل شيء بأوامر تمشي وتاكل وتتكلم وتسجن وتذل وتهان ... كان يستذكر الجنود الذين يقطنون في سجن فوج المشاة /٩ وكيف كان يزورهم ويستمع الى مشاكلهم ونوع الوجبة الغذائية التي تصلهم ويحاول ان يقدم لهم اي خدمة بالامكان وضمن صلاحياته ...

لربما يكونون الان مسؤولون عن السجون وقد يعاملونه بقسوة او قد يردون جميله .. لا لربما كل القائمين على العمل هم امريكان ... نصل ونرى ماذا هناك واعتقد كل الذكريات قبرت هي واهلها لايعرف بها احد ولايمكن ان

يسمعها اي شخص وان سمع بها فيعد ابراهيم من رجال النظام كما اطلقوا بمصطلحات التحرير الجديدة ... " ناسين او متناسين ان القيادات تزول والشعوب باقية" ... والحافلات مازالت تندفع بهم الى معسكر بوكا ...او بالاحرى معتقل بوكا.. او مقبرة بوكا كما يسميها البعض ... يسأل ابراهيم نفسه ترى ماذا تعني بوكا ؟ وجاء الجواب من قبل جندي اسباني الاصل امريكي الجنسية بان تسمية بوكا جاءت من اسم مجندة امريكية قتلت هنا فسمي السجن بأسمها .... ولاندري مدى صحة تلك الرواية لربما يكون هذا الجندي كاذباً ... عموماً كم جنت بوكا على آلاف العراقيين وهم يقطنون لسنوات تحت حزام الرمال ولايرون الا بقعا من السماء تتفصل عليهم بزرقة لونها او بغيثها في الشتاء ...وصلت الحافلات عند باب بوكا ((معتقل بوكا)) الساعة الثامنة صباحاً وطال الانتظار حتى الثانية بعد الظهر بواقع عشرين حافلة وبعدد (٧٥٠) معتقلا ... كانت الوجوه متعبة وشاحبة ... ترى ماذا سيفعل بها وكم ستبقى وكيف الاقامة ونظام المواجهة ... اسئلة كثيرة لاتكاد تنتهي كان الجو حار جداً جداً ... وفي وسط ساحة كبيرة محاطة باسلاك تم ترقيم المعتقلين وتسليم كيس ((بدلة لون اصفراو برتقالي مع نعال اصفر وبطانية وفراش (دوشك) ... ويسأل ابراهيم ولماذا اللون الاصفر دون غيره فيجيب جندي امريكي ان هذا اللون البسوه اجدادكم الى اسرى من اجدادنا في معركة خسرناها وهذا بمثابة رد اعتبار؟؟ ... ترى هل يصدق ام يكذب وجائز الحالين بهذا الوضع .

المعتقلون عبارة عن طوابير مرة اخرى تجلس في الرمال الحارة ومن شدة الحرارة فان النعال او المداس الاصفر قد جاءت فائدته بوضعه مقعداً ليحجب لهب الرمال الساخنة التي احرقت كل شيء ..

الساعة الخامسة عصراً يتسنى لابراهيم ان يأخذ تجهيزاته وينقل في سيارة (٢١) راكب وقد فار الجوف من العطش ووزع هؤلاء القردة ماء يزداد سخونة عن حر الرمال التي مشى فوقها ابراهيم سيداً والان ذليلاً منكراً اللعنة ... كل اللعنة ... لزمن وضيع اذل الاحرار ... تم توزيع وجبة غداء سفري تفاحة نستلة واشياء اخرى لم يكد يرها والشهية عازفة عن الطعام...

طبيعة التعامل كانت بعنف ، وبلا اخلاق وتفتيش كل شيء وحتى الملابس الداخلية وما تحتها كذلك ؟؟ ورأسك اسفل مع دفع وركل وضرب ...

البناية طريق طويل وفي اليمين واليسار المداخل الى المعتقلات ومحاطة بـ(هيسكو) من التراب العالي وابراج عالية كذلك يتربع عليها الامريكان من ١- ٢ جندي ...

الكمب يحتوي على(٢٥٠)معتقلاً والعموم يصل ال (١٠٠٠) معتقل بواقع(٢)دونم ... وبعد الهيسكو الجدار الترابي جدار عال اخر يفصل بين كمب واخر بارتفاع(٤) متر وفي الداخل محاط بأسلاك شائكة..

الجنود الحرس يحملون بندقية "بمبكشن" اطلاقاتها رصاص مطاطي تستخدم لفظ التظاهرات واخطر منطقة تصيبها هي فقأ العين اذا سقطت فيها وحصل من هذا القبيل ببعض المواقف التي نقلها المعتقلون القدماء ...

لم يكن دخول ابراهيم الى متنزه سياحي او فندق خمس نجوم او فضاء جاء باختياره اليه وحالما دخل من الباب الخارجي راح يتأمل اليوم الذي سيفرج عنه ... ووقع نظره الى الجدار العالي (٤) م الذي لايقوى احد على

اجتيازه وحمالات التراب (هيسكو) كشفير قبر يجلب كل تداعيات الحزن والالم واسلاك شائكة كاسنان ذئاب ضارية ... لاشيء يمكن ان يفعله بهذا المكان الصعب...

كان يتمنى ان يحصل على سلاح ويفتك بهؤلاء ... لايرى شيئا سوى هذه الخيم المنظمة بشكل هندسي متقابلة مع بعضها وقد ذهبت به الذاكرة الى ايام الفرضيات والتدريب اذ كانوا طلبة تحت خيم تشبه الى حد ما هذا الترتيب الا ان الفرق الوحيد كانت في الماضي تعدهم رجالاً لمقارعة الاعداء وحماية اسوار الوطن واليوم اعدت لاذلال الجميع دون تمييز ... آه اي ركن يمكن ان يأوى اليه ليرتاح من هذا الوجع لاشيء ابداً لاشيء ... وكل من معه اصابهم الاكتئاب ... ماأشقى العمر امام هذا المعترك الصعب ...

الدار التي تدافع عنهم من الحر والبرد هي المخيمات التي اطلق عليها اسم البادية لكن الفرق كبير بين البادية "البدو" الاحرار الذين يأكلون ويشربون ويرعون الماشية واشداء على جماعات النهب والغزو والتنقل بالجمال والخيول والحمير والاغنام حيثما توفر الكلأ و بين بادية بوكا الثانية انها بادية حتمية البقاء فوق الرمال وتحت الخيم وبشبكة قيود وحزامات امان معلنة وغير معلنة ...

اولى التعاليم في هذا المكان الهدوء والابتعاد عن الشغب اي كما في الصف الاول الابتدائي ان تجلس (عاقلاً) كما كان يفعل المعلم ... اعادوا الجميع الى الماضي وبصورة اخرى بقسوة مفرطة ... مفرطة حد الموت احياناً والالتزام بمواعيد التعداد ووجبة الطعام التي تأتي بخبز مسلفن من قبل شركة كويتية ... نعم مكتوب عليها كويت .. انه خبز اصابه العفن من

البكتريا ولان رائحته لايمكن تحملها تكررت المطالبة بتبديله فكانت الاستجابة بالبسكويت ((باكيت ٣ قطعة)) .لربما كان قصاصا كويتيا من العراق عن سنوات مضت بدخول العراق للكويت يضاف الى اوجاع الاحتلال...

كان لكل خيمة مسؤول وللمعتقل بأكمله مسؤول يدير الشؤون بالارتباط مع الحرس بسلسلة مراجع طويلة وعريضة ، فلو احتاج احد الى عيادة يسجل الرقم والى المسؤول (الجيف) ثم الحرس والى و.... والى ... ويأتي الدكتور الامريكي للقيام بالفحص للسجين على ان يكون مقيداً بالاغلال ومهما كانت اوجاعه ولو كان الامر يستوجب الخروج الى المستشفى فهناك جملة اجراءات قاهرة حتى يصل الى هناك وبوقت قد يصل الى ساعات وقد يدركه الموت ...

كل هذا كان تحت نظر ابراهيم فهو يسجل في ذاكرته ادق المعلومات وامنياته ان يصل الى مكتبته ويستل اوراقه البيضاء ليكتب تلك المآسي ولكن (تجري الرياح بما لاتشتهي السفن)

هكذا بدأت ايام السجناء على التطبع وحساب الايام ولكن ابراهيم لايدري كم سنة سيبقى هنا فلربما العمر كله وقد لايرى احدا من ذويه الذين ظلوا تحت سقف الانتظار المفتوح ويتأملون الرسالة التي يخطها باوجاعه كل شهر او شهرين ...

المحاجر هي نوع من العقوبات التي تهدى للمعتقل بابسط الاشياء هي غرف (٢×٢) ظلماء ولها فتحة صغيرة يقدم لاهلها الطعام ... يأن يبكي يتألم لأحد يعرف ذلك انها مخصصة لكل من يرغب بالديمقراطية الامريكية

وكان هناك كمب خاص بالمحاجر فقد تبقى يوما يومين او اسبوع وحسب مايرغب المحرر ...؟!

ابراهيم رأى جورا وظلما قاهرا تحت وطأت الوجع وفي ليلة حارة شديدة الظلمة وجو عاصف ترابي اخذه الحرس مع زمرة من جماعته واقعدوه على كرسي حديدي وربطوا يديه الى خلف الكرسي ورجليه ايضا وقلبوا به المقعد وبقى يأن على رأسه وقتاً طويلاً قرابة ساعتين وهم يحتسون مشروبات مع الضحك والقهقهات مع مجندة شبه عارية ثم فتحوا يديه ورجليه وكان متعباً للغاية ثم ربطوا حبلا من الابط ويديه للاعلى وعلقوه في السقف ببكرة تسهل عملية رفعه من الارض حتى الفجر وقد اغمي عليه وانزلوه وشعر بنفسه وهم يركلونه بالبسطال الامريكي الخاكي على ظهره وقدمه وراسه ...

كان لايقوى على الكلام وحملوه والقوه في (سايلبر) التعداد ، ان الكلمات لاتفي في تصوير حجم المأساة التي تعرض لها ، كان المعتقلون يصفون كل الاشياء ، ابرة الخياط هم بحاجة لها وهي ممنوعة في عرف بوكا فكانوا يستلون من بلاستك الطعام الجاهز ويطرقونها حتى تصبح مدببة ودقيقة ويعكفوا راسها الاخر ويطرقوه كذلك ويخيطوا ملابسهم ولكن بسرية تامة اما قص القماش فيستخدموا شفرة يقطعونها من الاسلاك المنفاخية بليها يمينا ويسارا حتى تقطع وتطرق حتى تصبح حادة جداً ولكن ذلك لايكون الا بواقع ثلاثة سجناء اثناءالعملية يتكلمون عن قرب ويخفون ثالثهم الذي يكسرها عن نظر الحرس الامريكي في البرج.

يجري بين الحين والاخر عمليات تفتيش تستمر نهارا كاملا بعد ان يخلى المكان من المعتقلين في (السايلبر)وذات يوم وجد الامريكان اكياسا من الخام معلقة في الخيمة مليئة بالاجبان فاندهشوا لذلك ولكن الجندي العراقي كان ينزلها بشدة على الارض ويسحقها بحذائه يسيء الى أنعم الله بهذه الطريقة وكان ذلك قاس على مشاعر الجميع ... فالامريكي يسأل ماهذه ثم ان الجراثيم ستدخل بها بهذه الطريقة ... وملخص الموضوع ان هناك روبة او مايسمى (خاثر) فيضعوا عليه قليلا من الماء ثم تعلق فتصبح جبنا طيب المذاق تشتهيه انفسهم افضل...

ابراهيم كان كعادته قرر الابتعاد عن الركون الى ان يصبح رقما كما كتبوه في الباج بل لابد ان ينفع الاخرين ففي احيان كثيرة كان المعتقلون يتعرضون الي التعسف والاهانة فكان يثور بقيادة المظاهرات بالاتفاق مع الكمبات الاخرى .. بشأن الطعام او التصرفات غير اللائقة من هؤلاء القردة كما يسميهم... ولكن بالمقابل هم يستخدمون كل مامن شأنه ان يبطل العمل لا سيما انهم سادة المكان بسبب متاريس الاسحلة المختلفة التي يمتلكونها – الرصاص المطاطي- الكهرباء – قناني سبري(فلفل) او كما يسمى فليت فيه رائحة الفلفل مسيلة للدموع وهي مؤذية واستخدمت باحيان كثيرة من خلال سرية مكافحة الشغب المعده لهذا الغرض ...

اشد ما كان يعاني ابراهيم هو وجود سجن في داخل سجن الامريكان والثاني الطوائف المشكلة داخل السجناء وفق منهجها التي تراه مناسبا ومن يعترض يتعرض الى الهلكة اي فرض توجهات دينيه معينة او سياسية فالذي ليس له من يحمونه فهو في عداد المسحوقين ... اذ ان الامريكان يذكرون هذا الموضوع ففي احد الايام هجمت مجموعة على خيمة ابراهيم

الساعة (٢) بعد منتصف الليل واستخدمت آلات جارحة لضرب معتقل كان يعمل شرطيا وبعد نزاع وصراخ وضرب فقد ادمي الشخص واصيب باذى شديد تمكنوا ان يخلصوه من الموت ...

جلس ابراهيم مع نفسه يحدثها (ترى الى اي مدى يا الهي الصبر في اي محنة نحن وكيف الخلاص منها...؟ لماذا كل هذا...؟ اللهم افتح علينا ... اللهم ان ابراهيم يناجيك فالطف بحاله وحال الجميع... اللهم يارب وسع الصدور على الصبر ووسع رحمتك فينا وافتح ابواب رحمتك...)

ان هذا الفجر كان الجمعة ونادى المنادي للصلاة... وغط ابراهيم في بكائه متوجها بقلب جريح وعين دامعة ... الهي لتصلني رسالة تطمئنني عن عيالي ... يارب اني اقرع بصمتي ابواب رحمتك... فياسامعي اسالك الاجابة ، وجاءت الاجابة بوصول رسالة في الصباح وكان الفرح يغمر قلبه قائلا الحمدلله رب العالمين... ويكأني قد رأيت اهلي جميعا... وقد كتب لهم رسالة كذلك وقد عبر عما يكنه قلبه وكانه الغريق في بحر عميق... فالدموع رشقات المطر في موسم الشتاء... وهو يمسحها بمنشفته كل دقيقتين...

ومن الجدير بالذكر ان الامريكان بعد كل مصادمة وخلاف لم يسالوا احدا عن سبب مايجري ولماذا الاشتباك وكأنهم يؤيدون ذلك... دون ادنى تساؤل...

ومن المشاهد المؤلمة التي واجهها تلك القصص الخيالية ... هو جريمة قتل لشخصين حصلت في المعتقل اذ قتلوا شخصا والاخر رآهم وقتلوه كذلك ودفنوهما تحت لحاء الخيمة وخلال التعداد اكتشف الامريكان النقص وعلى مدى اسبوع من التحقيق لا يمكن لاحد ان يتكلم خشية الموت بعد ان تعرض المعتقلون الى اشد العذابات فخرج احد في السايير مع المترجم

بهمس اخرجنا من هذا الكم وسنقول الحقيقة وفعلا حصل ذلك وتبين انهم ذبحوه بسكين مسمار طويل تم حده جدا بالحصى او مطرقة ما ... وحسب الابتكارات فراح ابراهيم في تداعيات مشاعره يسأل ترى لمَ كل هذه القسوة ...الله اكبر رحماك ربي رحماك وتبين ان في كل خيمة مخبر سري لهؤلاء المتشددين يوصل لهم مايجري كالغناء او السكائر... وغيرها...

تنقل ابراهيم خلال عدد من الكمبات (٥- ٢٢-٢٣ -١٩) وفي كل مكان وجد صعوبات جمة الا الخامس ففيه من اصحابه ومن ابناء المنطقة الذين كانوا هم سلوة ايامه الفانية التي تقترب من النهاية الحتمية... ومن يرغب بالاغتسال فعليه ان يبقى مستيقظا كخفارة على الماء وهذا ماكان يفعله مرارا مع ان هناك(شمعه) ماء من الانابيب المتقاطعة تفتح العاشرة صباحا ويدخل كل عشرة سجناء وينهوا بعد ان ينتهي العد من (١-١٠) كان يذكر ابراهيم ذلك بوجبة الفطور الصباحي في الكلية العسكرية قبل عشرين عاما وكيف كان يقسو عليهم النقيب مثنى وهو يحمل عصاه السوداء في باب المطعم وكل من يخرج يصيبه وابل العصى لا شك...

كانت وجبة الغداء مملة للغاية لانها استمرت معهم مرق تمن لحم (افخاذ دجاج) وقدموا طلبا لتغيير نوعية الوجبة ولكن دون جدوى ولان ابراهيم مل من ذلك كله دخل نقاشا حادا مع الحرس فوقعت عليه عقوبة الماء الحار على جسده في الصيف والماء البارد في الشتاء حتى يغادر بوكا حتى اصابته اوجاع ازلية في جسده...

ظل ينتظر المواجهة مع والدته العجوز حتى تحقق ذلك ولكثرة مابكت وتألمت وما اصابها من نصب طلب اليها الا تأتي الى البصرة لانها بعيدة

ولا يمكنها تحمل روتين المواجهة وكان الشخص يبلغ قبل يوم بالمواجهة ويكتب رسالة لاهله عن طريق معتمد بين السجين والامريكان وتدخل الفحص وقد تتم الموافقة او الرفض فربما توجد فيها شفرات يخاف منها الامريكان...

وهكذا انتهت المواجهة وعاد ابراهيم بعد الساعة الخامسة متعبا وعيونه مليئة بالدموع وقلبه مثقل بالهموم بعد ان جاءت امه بمجموعة صور لعائلته وجلس في ركن الكرفانات الذي جاء حديثا يتطلع الى تلك الصور ويعيد الرسالة مرة ومرتين الى عشر ولكنه لا يمل من تلك الاعادة فهو كل مرة يقرأ وكانه لم يقرأها فراح يبكي ويبكي وقد غطى وجهه في المنشفة خشية ان يراه احد...

دخل الامريكان صباحا يحملون بريمة كبيرة محلزنة تحفر في الارض امام الكرفانات وصوته كالرعد ... حاولوا الاستفهام عن الموضوع تبين ان المعتقلين قد حفروا سردابا في الارض بمثابة نفق الى الكمب المجاور يتزاورون من خلاله وهو مغشوش بشكل ممتاز وقد وصل خبرالى الحرس بتبليغ متعاون عميل – مخبر سري وما الى ذلك...

كان البريد بين المعتقلين يتم باستخدام (المجلاع) خيوط تحاك بطول" ٢ م "او اقل وفي المنتصف يصنع كف صغير يوضع به البريد الذي يلف بالصابون او الحصى ويدار بسرعة حول اليد ويطلق الى الجهة التي يراد الارسال اليها ... وذات مره في اول الفجر تم ارسال بريد بهذه الطريقة وقد شعر الحرس بذلك ونهض يستدير يمينا ويسارا ولكنه لم يعرف شيئا ومع انها طريقة بدائية الا انها ظلت تؤدي واجبا وطنيا للمعتقلين حتى الافراج

ابراهيم يعاد الى البادية مرة اخرى كان الجو الحار يزداد شدة فكثيرا ما كان ابراهيم ينكفيء على الملابس الزائدة يسرح في تفكير عميق فهو يرغب ان يتذكر حداد وصاحبهم الثالث الذي لايعرفه ولكنه فز بسرعة كبيرة وتبين ان ذراعه الاسمر قد مس العمود الوسطي للخيمة الذي ارتفعت درجة حرارتة فحرقته مما دعاه الى الاستجابة السريعة والنهوض ...

اي حرارة هذه والاجساد تنز منها الاملاح ورطوبة الجو الذي يغبر واي طريقة يمكن بها تحاشي هذه الحرارة وتحاشي لدغات العقارب والثعابين لاشيء سوى رحمة الله... اقترح ابراهيم شد سقف ثانوي للخيمة لتخفيف الحرارة الساقطة من السقف الاول وفعلاً اجروا هذه العملية ولكنهم على الدوام هم يحتاجون الى الماء البارد ولكنه مجرد حلم في عراق اليوم وفي البصرة وبالتحديد في بوكا مقبرة الاحياء ...معتقل سبعيني انه رجل جديد مع ابنه كان باكيا ولحيته الكثة البيضاء وخطاه العاجزة وشعره المتناثر وجفونه الغائرة في كهوفها يعطيك جزما حجم المأساة التي مرت بهذا الشخص ... استقبله ابراهيم بالتحية والترحيب وضيافة سجين مرغم ليس له حول ولاقوة وقد قص بدموع غارقة قائلاً : نحن من منطقة ذراع دجلة في قرية ريفية تمَّ مداهمتنا وابني الاصغر هرب منهم وارسلوا خلفه مجموعة من الكلاب البوليسية وخلال مد البصر قد لحقت به ومسكته واسقطته في التراب وانا اعتقلوني خلال رحلة من التنقلات ولاأعرف عنه اوعن العائلة شيئاً لحد هذه اللحظة ... غرق في دمعه وابكى الحضور

- كن واثقاً ياعم ان الله مع الحق ...

– المخبر السري ياعم والكذب والزور والموضوع ليس اكثر من خصومة عشائرية كانت نتيجتها هكذا وبعد شهر وصل ابنه في الكمب نفسه الا انه كان مصابا بجروح بليغة في كل مفاصل جسمه ومع ذلك فقد فرح والده لانه حياً .

يسأل ابراهيم نفسه هل ستخرج من هذه الزنزانة ولاترى الامريكان ..هل ستعيش باقي عمرك حراً كهذه الطيور البيضاء التي تعانق السماء ..لا... لا .... لاأظن ذلك ... ثم يرد الامل بالله كبير ...

يدخل الحرس(Happy pass)... تستبشر الوجوه واولهم ابراهيم لانه مضى سنتان فلعل الفرج قريب ثم يرجع بقوله محكمة غداً : اربعة اسماء من ضمنهم ابراهيم وفي اليوم التاني اقتيد الى كرفان فيه ضابط امريكي ومترجم رفض ان يعطي ادنى صورة عن المحكمة ... عرض ابراهيم وقص قضيته التي مل من تكرارها ضمن (٦١) معتقلاً عرضوا على المحكمة المزعومة ، وهي صورية الغاية كسب ثقة المعتقلين ان هناك محكمة ولاعطاء فسحة امل في الموضوع لاسيما ان بعضهم قد انتهت محكوميته التي سجلت جزافا فاطلق سراحه وليحمل الجميع على الالتزام ... اعيدوا الى اماكنهم فمن بقي له ستة اشهر قالوا له وفق كتاب نظمته القوات الامريكية تم تمديد المحكومية ستة اشهر ومن كانت منتهية اطلق سراحه ...ابراهيم بعد شهر واحد وصل اطلاق سراحه المرتقب ابتسم وجهه وفي الغيب غاضب واي غضب لعيون هذه الكذبة الكبرى في تاريخ الشعوب ...

نقل ابراهيم مع (٧٠٠) معتقلا الساعة التاسعة وبالانتظار حتى الرابعة عصرا الى مطار البصرة ومع الظلام عوملوا كالاغنام التي تربط في حوض سيارة ربط بالحبال مع خفظ الرأس وعدم الكلام والى مطار بغداد الدولي ..

تساؤلات كثيرة في ذهنه تحتاج الى اجوبة ولكنه يجيب نفسه : لن تحصل عليها حتى الموت ...الساعة الثانية بعد منتصف الليل وصلوا في مطار بغداد وبعد اجرآت مملة حاسبة فحص وملابس ... بقي ابراهيم ومن معه (١٠) ايام بسبب العواصف الترابية ثم نقل الى تكريت المكان نفسه في حاويات (سبايكر) ثم قاعدة بلد ... ومنها الى اهله الذين تفاجأوا واستقبلوه بمطر من الدموع الاهل والاعمام والاخوال لقد كان واضحاً على ابراهيم ملامح التعب والعناء والسخط اضعافاً مضاعفة لاسيما ان الشيب قد مزق سواد الليل بالكامل ولكنه كان مصراً في داخله ان يكسر قيد الضياع وان يبدأ الطريق من جديد ليفتح افاقاً اما ان تؤول به الى النهاية الحتمية او ان يكون بها ذا عزة يسر بها العراق واهله وخاصته ....

(٢٣)

النهاية

لم يعد ابراهيم الا ملحمة وتاريخ خالد في ضمير العراق .... لاشيء غير العراق

جراح الامس والعذاب بكل اشكالها ترافق خطوات ابراهيم المثقلة عبر خمس سنوات مضت والتي نجحت في ان تخلق شخصا اخرا بالتصرف والافعال ..حزن كبير لألاف الصور يوزع ملصقاتها بصمت على جدار ذاكرته المزدحمة حتى يرى نفسه انه مشوشاً بهوس تاريخي لايمكن ان يتخلص منه مادام حياً ... ركب السيارة حاملا شيئا من الاغراض وينظر من النافذة بعد عامين في بوكا وماقبلها ذاق بها مرارات كبرى ... كل شيء يتغير البنايات والطرق والمحال التجارية ونظام السيطرات البنايات الجديدة ... والشرطة والملابس والسيارات ... دخل القرية يرافقه احد من اصحابه واقربائه فرحا كبيرا يحمله على الرغم من كل هذا ان يرى عائلته ويسمع اخبار القرية انه غير مهتم هذه المرة لوجود الامريكان الداخلين والخارجين لم يثيروا استغرابه فهو عرفهم جيدا من هم ؟ وكيف يفكرون ... وكيف فرقوا الناس الى ملل كثيرة حتى في المعتقلات ...دموع تنهمر من عينيه وهو يمر في مكان كان يقف فيه يوم اصطحبه والده لاول مرة في مطلع السبعينيات لالتقاط الصور الشمسية وجلب ملف للتسجيل في الابتدائية وكيف كان الهدوء يعم المنطقة ثم الانتقال الى سامراء بعد (٤) سنوات من هذا التاريخ ...

النهاية لاشيء غير النهاية هذا ماكان يفكر به ابراهيم كيف ستكون نهايته وهو يودع هذه السماء والارض والاشجار والاهل والابناء ...

ان الغضب والحقد على مافعل الاشرار كان يدفعه في بعض الاحيان الى التهور والعشوائية في التصرف ... ويبادر زميله خالد مالي اراك صامتاً هل اخافتك سنوات الاعتقال ...

- ها – ها ... لابدا ياخالد ولكنهم قد حطمونا شر تحطيم واذاقونا الحنظل ...

- انت توصي بالصبر !

- صابرون ان شاء الله

- قل لي كيف الاخبار في القرية؟

- يبتسم كل شيء على مايرام ياصديقي

- اذن اخبرني عن الموتى

- لطفاً اترك الموضوع هذا لان القائمة طويلة

- طويلة سأحتمل كل شيء

وراح يسرد له اسماء شباب ، صغار ، وكبار ، ونساء وهو صامت بلا كلام وانفجر باكياً حين علم ان جل اصحابه واخوانه قد احتظنتهم اللحود ((لااله الا الله محمد رسول الله)) ((لاحول ولا قوة الا بالله))

وصل بيته فوجد حشداً كبيراً من الناس ينتظره ، امه وابوه واخوانه وابناءه .....؟؟كان يحاول ان يكون طبيعياً وان يسيطر على دموعه وهو يصافح هذه الاعداد التي اجتمعت لاستقباله ... كان العناق مع والديه وابنائه يطول بشهقات تمطر سيل دموعها حينا ابكت الحضور ...انه كرنفال كبير جلب انتباهه الى حد ما مع انه جمع بين المحب والمبغض لكنه كان متحفظاً في الكلام وعند السؤال عن موضوع الاعتقال كانت اجابته بسيطة جدا وبدون تفاصيل في الموضوع مع ان بعض اسماء المخبرين السريين قد جاءوا : الحمدلله على السلامة وبلهفة كاذبة وهو يدرك ذلك جيدا والتفت الى احد اخوته قائلاً :

- بقي الامريكان فقط لم يأتوا للسلام علي ((الحمدلله على السلامة)) ابتسم الاثنان وانتهى الموضوع .

الساعة الخامسة عصراً من شهر نيسان وبعد ان امضى سنتين في الاعتقال نحروا له شاتين وسط فرح غامر وتقدمت زوجته ياأبراهيم بعد الان تتفرغ لعائلتك - اجاب ان شاء الله ياحبيبتي

وقف امام المرآة وقد تحول الجليد غاطساً في مساحات شاسعة في وجهه ورأسه وقد حلق ذقنه وفي حين رغوة الصابون تسيل بكثافة يدخل حداد مفاجئاً ابراهيم فيشتبكان دون ادنى كلام ويغطان في جهشة بكاء عارمة حتى اجتمعن النساء حولهما وبعد تلك النوبة وافترقا فاصبح وجه حداد تغطيه الرغوة ومن باب المزحة دفع ابراهيم واخذ ماكنة الحلاقة وراح يحلق ذقنه قائلا نشترك بكل الاشياء الجميلة ...

ومن طباع الريف ان يقدموا بكرمهم طعاماً في جفان كبيرة وهذا ماحصل فعلاً واجتمع الشباب وباعمار متوسطة للعبة الجوبي على صوت ((المطبك)) وهو ينظر الى تناسق تلك الحركات المثيرة التي تجبرك على الرجوع الى ايام زمان بل وتجبرك على البكاء وغرقت مشاعره في زمان البس الاحرار ذلة ومهانة ...جاءت امه تتوكأ عكازها جالسة الى جانبه قائلة

- اراك تبكي ياولدي ؟

- لايأأمي تذكرني بأيام زمان – هذا تراث جميل وقبل يدها وبادرت الى تقبيله والبكاء على صدره المخرب بالركلات والوجع ...

كان ابراهيم معترضا في داخله الى هذا الصخب والضجيج لكن ذلك عرف اجتماعي ريفي فهو المتنفس الوحيد في ظرف كممت به الانوف والافواه والاغلال في الايدي والاقدام ... شعورا منه ان الفرح صار بعيد المنال وان مايتعرض له الالاف خلف القضبان يدعوا الى قضية اخرى وفعل آخر ومواقف اشد حزما واكثر تاثيراً ...

كان ينظر خلف الاطفال وهم يركضون ويبكون بالوقت نفسه تعيده تلك المواقف الى ايام زمان قبل قرابة اربعين عاما آه.... آه ياله من جمال وطيبة وصدق وعفوية .

اضوية قوية تتوجه الى القرية تحديدا الى داره استمر الناس على شكل فرحهم الذي اختاروه ولكن ثمة ريبة تعتري البعض ولكن بالانتظار ...

بضع ثوان وصلت القوات الامريكية ((دورية المنطقة)) جاء البعض ليناشد ابراهيم بترك المكان فاجابهم .. لا ابدا ولو اعادوني او اعدموني

لافرق لدي هذا اليوم فارقت بوكا لن اتحرك متراً واحداً...نزل الضابط الامريكي يستفسر عن الموضوع وقد اوضح لهم المترجم سبب هذا التواجد ... فركب وتحرك من المكان ولكن ابراهيم لم يقم من كرسيه الابيض

انتهى الحفل وتفرق الناس ولم يبق الا الخواص من العائلة ...

توالت الدعوات في اليوم التالي من العمام والاخوال والاصدقاء ولكن هناك غصة في صدره لايفكر الا في النهاية كيف ومتى ... وكلما نظر في عيون اطفاله المه الحزن فلربما يعيشون حياة صعبة في ظرف كهذا ...

وكان ابنه يسأله :

- لماذا غبت عنا ياأبي كل هذا الوقت ؟

- كنت في رحلة في سفرة مدرسية الا تذهبون في سفرة انتم ؟

- لا ... لانذهب ... المعلمون يقولون هناك تفجيرات ومفخخات واحزمة ناسفة ...

ياللبؤس والشقاء حتى الاطفال يعرفون كل هذا ... يخافون من القادم

حداد يزور ابراهيم في اليوم الرابع او الخامس من الافراج قائلاً عليك ان تستريح ياصديقي وان تنسى او تحاول نسيان كل الماضي وان تبدأ حياتك من جديد ولاأريد ان اثير حفيظتك عن كآبة مارأيت في دهاليز الظلام خلال سنتين مضين ....

– وكيف انسى وانهض احيانا من منامي اظن ان هناك تعداد او عقوبة جسدية او نفسية او نقل الى كمب اخر او .... او ..... او.....

– قلت حاول ... وامامك هذه المكتبة اقرأ ثم اقرأ

– بالمناسبة لم اسألك عن الشركة ... لم تتوقف حتى هذا اليوم ولاعليك منها ياصديقي حصتك محفوظة وانت دفعت ماعليك من سهم فيها ...

– انا اشد شوقاً من اي وقت مضى فلم يبق للعمر مايستدعي الانتظار بعد ان غرس الشيب دعوته في وجهي ... وخارت قواي ويدي تؤلمني في الايام الباردة ..

– اما سألوك عنها ؟

– نعم اجبتهم وكما تعلم اصبت في حادث سيارة قديم

– ضاحكاً لو كنت معك لقلت لهم الحقيقة وجعلت تنام باقي العمر هناك

ضحكا الاثنان معا بعد ان ارتشفا الشاي وبعض قطع "الكعك" ثم خرجا في المنطقة يتفقدان بعض الامور الخاصة بهما غادر حداد على امل اللقاء

قرر ابراهيم ان يذهب الى بعض الاصدقاء في سامراء والاسحاقي والضلوعية وبلد والدجيل ولكن تصادفه مفاجآت كثيرة وغريبة بأستشهاد البعض واعتقال اخرين ...

وقد سمع قصص من الخيال باساليب القتل البشعة والاعدامات المباشرة والمداهمات واستغلال بيوت الاخرين من قبل قوات الاحتلال كاماكن

مراقبة واكل المؤونة والتغوط والبول في الصالة وغرف المنام باختصار ((امريكا شعب مثقف))... عفوا((همجية)) قاتلة ...

اهدى حداد موبايل الى ابراهيم الذي بات يعاني عسرا ماديا بسبب المصارف المالية المطلوبة تجاه عائلته التي كانت بعهدة والده مما يستوجب عليه العمل لتوفير لقمة العيش ... ولكن ياترى اين بالامكان ان يعمل بهذا العمر وقد كان ضابطا في يوم ما وقد اعتاد على سياق معين من بينها الكبرياء ومن الصعب ان يعمل في مكان يثلم ذلك الكبرياء او يخدشه .

جلس يعاني بعض الاوجاع في كتفه ويديه واقدامه بل وحتى اظافره وفقرات ظهره مما اضطره ذلك الى الذهاب الى طبيب متخصص وقد اعفاه من رسوم الكشفية والدواء حين علم شيئا من ويلات ماتعرض له ...

بدأ يسجل ارقاما جديدة في جواله ويستذكر ملازم محمد وماجدة واحمد وحكيم ومقدم فراس والشحمان واسماء حفرت في الذاكرة ولكن محمد وماجدة هما من يحتلان المكان الاوفر في قلبه ويمني نفسه اللقاء ... لكنها النهاية التي يسير اليها كانت حكما في هذا الامر ... احس بحاجة كبيرة ان يراها ويتكلم معها ولكن ها قد ضاعت الارقام والموبايل استولى عليه الشرطة فكيف يعيد ماجدة ويكلمها وهي حفرت تاريخا من الذكرى وان كانت قصيرة فكان يسأل نفسه : ترى تحبها ؟

- لا.... لا..... لانها عراقية اصيلة

- ولكنك كذلك عراقي اصيل وماذا لو كانت زوجتك الثانية

- وام العيال

- يقوم من مكانه : سترفض لانها صبرت كثيرا علي في محنة الاعتقال

- لكن العراق اولى ثم انك لاتملك مالاً

- اذن تصمت ولاتبوح لنفسك هذا الوجع ...

- ومحمد اين هو ماذا يعمل ميت ام حي ...

ياألهي اني صبرت على بلائك ومحنتك فاسألك حسن الخاتمة انك على ماتشاء قدير

نهض متوجها الى الحاسبة (لاب توب) وراح يقلب فيها ويحفظ بعض اشياء ويرسلها عبر الانترنيت الذي ربطه للتو ... وفتح البريد الشخصي واطلع جملة امور لم يعرفها احدا ... حل المساء وهو يلاعب صغاره وبصمت وكانت تنظر اليه زوجته : ارى وضعك غير طبيعي وكأن في نيتك شيئا .

- لاشيء لاشيء

- وكيف حالتك الصحية بعد الذهاب الى الطبيب؟

- بتحسن واشعر اني رجعت شاباً

- لااريدك شابا اخاف ان تخطفك النساء مني

- مع نفسه ماجده ام الموت ..... لاالموت لانه حق وهو اقصى غاية الجود ...

- اراك صامتاً ... لابديل لك الا انا .

وضحكا سوية وعم السرور العائلة واغلق باب الدار وهو يفكر في اخر عملية سوف يقوم بها مع وكلاء الشركة ...

خلا الى نفسه وكتب وصيته الاخيرة للعائلة ووضعها باحد الصحف فوق المكتبة لعلهم يطلعون الى مضمونها ذكر فيها كل شيء وكل تفاصيل ليبريء ذمته ... انهاها ويده ترتجف خشية ان تدخل زوجته وتعلم ماهنا من امر .. وضعها وخرج الى غرفة المنام الدافئة وغطى اطفاله وراحوا يهنؤن بنوم عميق وهو يقبلهم الثلاثة وتسقط دموعه فوقهم ...ويتصور انهم كبروا ... وقد كبروا وهو تحت التراب الهي الوقت ضاق ولاأطلب الارحمتك فانت القادر فوق عبادك ..ليلته كانت مليئة بالارق وعدم الارتياح حتى صلاة الفجر التي غطس فيها بدموع ودموع ودموع ...بعد الفطور الصباحي راح يمشي يتأمل القرية صغارها وكبارها امه وابيه يقبل هذا ويودع ذاك ... يضحك واذا عاد مع نفسه بكى ... قائلاً : لست حريصاً على الحياة بقدر ماأنا حريص ان يعود العراق معافى

كانت امه توصيه ياولدي عيالك عيالك ...

فرد : اوصيك ياابي عيالي

- ولكنك عدت سالماً من المعتقل فكن لهم

ويتمتم مع نفسه عدت سالماً من المعتقل لكن هذه المرة لاأظن ذلك ...

الساعة الثانية بعد الظهر يودع زوجته قائلاً لزيارة احد الاصدقاء ... وزوجته تمسك يده بقوة وتقبله وتقول له

- فكر بنا

- نعم افكر بكم سأعود ان شاء الله

- انا اخاف من زياراتك

- لا هذه المرة زيارة .... زيارة

ركب مع حداد الذي وصل بهذا الوقت حاملاً ملابسه الرياضية الرصاصية القديمة / يبدو ان العملية التي ارادوها كانت مركزة على مكان مهم في القاعدة الامريكية – وقت التنفيذ كان الساعة الخامسة عصراً ... وصلا هناك ووجدا زميلهم الثالث يقف كالوتد ملثم لايبين منه شيء حتى كفوف اليد..

الهاون (١٢٠) ملم ينصب بين الاشجار الكثيفة – السيارة التي تنقلهم على مسافة (١٠) م – كاميرات التصوير مثبته على مقربة منهم عند احد الاشجار .

بضع ثوان يركض ابراهيم " بسم الله يضع القنبرة الصاروخية في فوهة الهاون قائلاً اللهم سدد رمينا وانصرنا على القوم الكافرين ثم الثانية فالثالثة فالرابعة فالخامسة ويبدأ حداد مكانه بحمل القنابر الى فوهة الهاون في حين ابراهيم يحثو خلفه ساحبا الحبل وفي القنبرة السادسة تنفجر قنبرة معادية امام الهاون بوقت اطلاق القنبرة السادسة كان اثر ذلك انفلاق الهاون محطما اقدام ابراهيم ويديه وصدره ليرتفع الغبار فوقه ويظلم الجو المحيط فوقهم وبين الاشجار ولكن حداد سالماً فركض صارخا ...ابراهيم ...ابراهيم ... فسحبه من كتفه المدمى الى الخلف ففتح عينيه الى حداد : الحمد لله رب العالمين اهربا ياحداد قبل وصولهم اليكما فانا في رحمة الله وفي ذمته...

ابراهيم بات قطعة دماء فحمله ووضعه في حوض السيارة هارباً من المنطقة المكتظة بأغصان الشجر ولكن رداً كثيفا يسقط في المنطقة ونهاية الامر قد وصل في منطقة آمنه صاعداً اليه تأمل في السماء فاذا هي صافية ويشاهد طيورا بيضاء تحوم فوقهم في الاعالي وتطلق اصواتها ...انها مودعة لاخية ورفيق دربه بهذه اللحظة ايقن ان ابراهيم مات ولن يعود مرة اخرى ....

نظر مسبلا دموعه كالمطر صديقي اخي ... ابراهيم ... فرد عليه : قل لي من هذا الملثم الشجاع الذي معك اريد ان اعرفه قبل الشهادة :

- انها زوجتي

- يا الهي الحمد لله ان لنا نساء كالرجال... كل هذه السنين لم اعلم ذلك ...

- بارك الله فيكما ويسر لكما طريقاً اليه ومد يده في جيبه واخرج ورقة بيضاء دسها في يد حداد قائلاً : امانة الله ورسوله

" اشهد ان لااله الا الله وان محمداً رسول الله " ... ومد سبابته اليمنى غاطاً في نوم عميق ... الى النهاية ...

اتصل حداد باكيا ببعض الزملاء وجاءوا سراعا اعانوه الى ايصاله الى الدار فسمعت الناس بالفجيعة وكبرت المساجد خبر استشهاده كانت زوجته تسمع فتضحك ... وتخرج ابنها الاكبر هل تسمع شيئاً ياولدي ... فجاء الصوت واضحاً هذه المرة تأكد ماتسمع فسقطت على الارض فاقدة للوعي واطفالها يرقصون كالطير الذبيح حولها واجتمع الناس الى داره

رحمه الله ... لاجراء التشييع ... ولعل الحديث عن امه وابيه قضية اخرى لاتلم اوجاعها كتب مسطورة ولادفاتر ولا اوراق ...

وصل هذه المرة ميتاً ملطخا بدمائه لينزلوه الى احد الغرف الفارغة ولعل افواج الناس التي حضرت لاتعد ولاتحصى وضع على السرير وشعره الابيض مغبراً بالتراب وجسده ممزق وقد رأى حداد دمعة وقفت في محجر عينيه اليمنى فقال انها دمعة للعراق للعراق ...جاءت زوجته محنية الظهر لتدخل اليه ووقعت عليه بجرحها الموجوع- ها قد ارتحت هذا ماكنت تبحث عنه فقد اخذته وناحت وناحت حتى فقدت وعيها ... فنادوا اخوتها اخرجوها ..المشهد كبير ومئات البشر جاءوا وحداد يعيش خشية من الامر على نفسه فلربما الامريكان يعتقلون كل الحضور ...سيارة حديثة (jeep) سوداء تقف في مدخل الطريق يقودها شخص يرتدي الزي العربي (عقال ويشمغ) ومعه امرأة ترتدي ملابس محتشمة ينزل زجاج النافذة للسيارة ويسأل شاباً في العشرين من العمر

- السلام عليكم

- وعليكم السلام

- اين بيت ابراهيم سعدون

- هذا التجمع عند البيت وهو استشهد قبل نصف ساعة

- ياألهي ... ياألهي ... يعني لم اره حياً ينزل من السيارة متوجها حتى ان قدمه لاتحمله مما اضطره الى الجلوس على مسطبة من الكونكريت في باب الدار راح يبكي ويبكي ويبكي حتى ان نشيجه ليسمعه الجميع نهض

ببقايا عزيمته للوصول لرؤيته ... ولكن لاأحد يعرف من هذا الرجل الذي يكمد دموعه باليشمغ الاحمر بين حين واخر وعند باب الغرفة وهو ينظر الى الوجوه التي لم يرمنها احدا يخرج سعيد اخو ابراهيم وهو في العقد الثالث يمسح دموعه وينظر الى هذا الشخص القادم بكل دموع العراق ويندفع اليه بسرعة : أأنت ملازم اول محمد

- بصراخ نعم ويحتضنه ببكاء مر ، كم رأيت صورك مع اخي فانا سعيد اخوه الاصغر ...ووجيب قلبيهما جمع الناس كلهم وطال العناق معه وادخله الى الغرفة ... فوقف واعاد في ذاكرته كل ايام الخدمه في البصرة وسقط عليه - بصوت عال السلام عليك ايها الغالي وبكى فوق وجهه حتى بله بالدموع واحتضنه حتى تضرج بالدماء كذلك...

كم تمنيت ان اراك قبل الرحيل ياحبيبي اهكذا الرحيل اهكذا الصحبة ... بعدك لم يبق لي احد ... خرج من الغرفة وواقفاً مع جمع الناس ودموعه كالمطر المنهمر بعد ان رأى لوعة والدته واهله اجمعين ...

ثم تحرك الى سيارته صاعداً فيها فوجد اخته تبكي على ماتشاهده من مواقف تجلب الحزن ... قائلة من هذا الذي احزنك الى هذه الدرجة ؟

- بصوت متراكم بالحزن كالزوابع العدية انه النقيب ابراهيم سعدون ...

- لااعرفه

- مد يده الى جيبه واخرج مجموعة من الصور تؤرخ لهما عندما كانا في البصرة ودفعها لها ... وأشر بقلب جريح هذا هو فصرخت بأعلى صوتها .. ياويلاه ... ياويلاه هذا الذي كان معي في عمان فلطمت وجهها...

فنظر اليها محمد ياللفجيعة تعرفيه وهو الشخص نفسه الذي اتحدث عنه لك فأومأت برأسها ونزلت من السيارة ولكنها لاتعرف احدا راكضة كالمجنونة والى غرفة تجمع عندها نسوة القرية لتدخل وتنظر الى زوجته التي تحولت الى قطعة تراب ونفسها ينزل ويصعد ... وراحت بجوارها تبكي وتصرخ واقتادت الاطفال الثلاثة حاملة في حضنها (زينب) بعمر ثلاث سنوات وتقبلها وتبكي معها ... آه ياابنتي ... آه ياابنتي ... وتحدث نفسها ياليتهم كانوا ابنائي لربيتهم على احسن مايرام ... ياليتني حملت وولدت كاالنساء اما الان فانا ارض جرز ... ارض بوار ...فيسأل ابنه الاصغر من تكونين انت

- انا عمتكم ((النخلة الباسقة)) هذا ماكان يسميني ابوكم

-وقال لي انت العراق – انت دجلة والفرات

فراح يرقص ويرقص باكياً كالذبيح النخلة الباسقة في ارض العراق مرة واخرى واخرى...حتى ان صدى صوته عم القرية وافزعها وابكاها... وجلس على الارض يراقب الناس ماتفعل وهو محطم ..أب مسافر الى غير رجعة وام فاقدة.وعيها... القوات الامريكية تصل المكان ... يفر اغلب الناس ... يعتقل البعض ويحملون الجثة.. ولكن الزغاريد من اعلى السطوح وقطع الحلوى قد ملأت الطريق استبشاراً وفرحا في الشهادة من اجل الوطن وبعد وقت غير قليل ومع اسئلة القائد الامريكي في التحري عن الحادث اندفع (جلال) ابن ابراهيم حاملا السكين باتجاه احد الجنود الامريكان فاخافه فزعا فسقط سلاحه وهرب ...فحجبه بعض الناس عن هذا الفعل ...

فالجميع يقول هذا شجاع مثل والده لايخاف ولايخشى

توجه الامريكان يحملون الجثة وحداد هرب من المكان على الرغم من كل اساه ليفتح الورقة التي كتبها له وهو يبك قائلا الحمد لله ثم الحمد لله

والتي جاء فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم

لم اجد اصدق من العمل في سبيله .... ومن الايمان به وحلاوة الايمان

- كل ماجاء به الامريكان كذب وخداع وزور وان فعلوا شيئاً صالحاً فهو ثمن لمصالحهم وكل ماقالوه عني صدق لانني ضدهم منذ اول يوم واسأل الله القبول وكل العراقيين حتى المتخاذلين فاني لم امسهم بسوء والله على ماأقول شهيد

- اوصيك ياحداد – الله – الوطن – الصدق

- ولك اجمل ماقرأت من شعر امس فأنحته على قبري :

وحين اغفوا وهذي الارض تغمرني

بطينها وعظامي كلـــها بـــللُ

ستورق الارض من فوقي واسمعها

لها غناء على اوراقها ثمـــــلُ

سيصبح بي ايها الغافي هنا ابـــدا

ان العراق معافى ايها الجمـــــلُ

ولك ياحداد هذا البريد الالكتروني مع الباسورد تفتحه فتجد ابراهيم سعدون حياً لم يمت فانشر ماتجده من تاريخ مسجل بقطرات دم عراقي يحب العراق... وفي غمرة الحزن هذه فتح البريد الالكتروني وبالخفاء عن الانظاروقد سطر كل حياته وتاريخ القرية وتاريخ العراق خلال مدة الظلام بعد الاحتلال مع صور فوتو وفديو لكل الاعمال .... حتى ادهشته هذه الدقة والتفاصيل ...في اليوم الثاني تم تسليم الجثمان واطلاق سراح المعتقلين ليشيع في اعظم كرنفال للشهداء الى المقبرة المجاورة التي تبعد (٥)كم عن القرية وحضر حداد متسللاً ووضعه بيده في مثواه الاخير مقبلاً رأسه وداعاً ياصديقي فلم يبق لي اخ وصديق بعدك ...اقتربت الشمس على المغيب وتسرب الناس كشلال ماء من المرتفع ولم يبق الا حداد يجثوا على ركبتيه عند تل التراب... يقرأ ايات القران ويودع ويدعو له الرحمة وكان يحمل ماأوصاه ووضعها على قبره مع اكليل ورد ملون وركض يصرخ ابراهيم .... حتى اختفى في الوادي وملازم اول محمد قد رافق اخته ماجدة يحملان جرحا عميقا وادهشه الموقف كلاهما كانا يتحدثان لبعضهما عن شخص واحد ولم يعرفا ذلك حتى يوم الرحيل غطت المنطقة في سبات ليل هادىء....كفن الجميع جراحهم بأسى الفراق ... فلم يعد ابراهيم الا ذكرى وتاريخاً سيبقى خالداً في ضمير العراق ...

انتهت .

كانون اول ٢٠١٤- العراق